مؤسسة الشيخ سيدي الإسلامية والثقافية

الشيخ سيديّ
"الموروث الثقافي والأدبي"

أعمال ندوة بوتلميت
19 و 20 محرم 1427 هـ
18 و 19 فبراير 2006 م
بوتلميت ـ موريتانيا

تقديم الشيخ محمد الحسن ولد الدَّدَوْ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

الحمد لله رب العالمين

أما بعد، فقد كانت قراءتي لهذا الكتاب الذي جمع مشاركات العلماء والأدباء والباحثين في ندوة "الموروث الثقافي والأدبي للشيخ سيدي" تعزية لي عن عدم حضوري هذه الندوة المباركة، وقد كنت أنشدت متمثلا في غيابي عنها: (كامل)

بغـدادُ لحـن بَنـوكِ لا نرضَـى بـأَنْ ... نُـدْعَى لـديكِ مـع الـضيوف ضـيوفَا

ولقد تنوعت مقاصد المشاركين نظرا لتنوع المادة، وكل قد اغترف غرفة بيده من معين الشيخ سـيديّ أو أحد أبنائه الأعلام: الشيخ سيدي محمد وابنيه: الشيخ سيديّ باب والشيخ سيدي المختار، وقد تفاوتـت غرفاتهم بتفاوتِ مستوياتهم وما كان لهم أن يغطوا إلا شيئا يسيرا من هذا الموروث الذي هو مضرب المثـل وأنى لهم نزح هذه الأبحر. وقد قيل: (طويل)

يميـد إذا مـادت إليـه دلاؤهـم ... فيصدر كـلٌّ نـاهلاً يـتعجَّـبُ

ولم ينقـصـوا إلا كـنقصٍ بمخـيطٍ ... ترامت بـه أمـواجُ دجْلَـةَ تلعـبُ

وذلك فضل الله مـا كـان ينتـهي ... إذا مـا التـهى هـذا الكـلام المركَّـبُ

إن الذين عاصروا هؤلاء الأطواد من فطاحلة البلغاء قد جهدوا في تنويع العبارات ليعرِّفوا من لم يعاصرهم بشموليتهم واجتماع الكمال الممكن فيهم ومع ذلك أقروا بالقصور, ولنستمع إلى الشاعر المجيد محمد بـن محمدي إذ يقول في تنوع فضائل الشيخ سيدي الكبير: (كامل)

هـذي محاسـن مـن غـدا بـصفاته ... مـستوجب الإجْـلال والتعظـيمِ

مَـنْ بالـسيادة والمحامـد وَسْـمُه ... وَفْـقُ اسمِـه فالإسـمُ كالموسـومِ

نالـت مـن الرُّتـب العَـوَالي كفُّـه ... مـا لـم تكـن لتنـالَ كـفُّ أَرِيمِ

ألفـى المكـارم قـد تهـدَّمَ رُكْنُهـا ... فأقـام سـاقطَ رُكْنـها المهْـدومِ

خلـق الإلـه بنائـه للبحـث عـن ... صـعبِ العلـومِ وكَـسْبِ كـلّ عـديمِ

ولـسائـه للكَـفِّ إلاّ مُـذْ نمـا ... لـتعلُّمٍ أو مـدمنَ التعلـيمِ

وجَنائـه الماضـي المـنيرَ لفهـمِ مـا ... عَنْـهُ قـد اكْـدَى فهْـمُ كـلّ فهـيمِ

وقـصـائد وَدَّ العَـذارَى جعْلَهـا ... حَلْيًـا مكـانَ اللُّؤلـؤ المنظـومِ

يـــا راكبًـــا يُدنيـــه ســـاحةَ بابـــه ... تَقْرِيـــبُ دامِيَـــةِ الأظَـــلِّ رَسُـــومِ
أبْـشِرْ فقـدْ يَمَّمْـتَ مَـنْ مَـنْ يَنْحُـهُ ... يَظْفَـــرْ بنيـــلِ مُؤَمَّـــلٍ ومَـــرُومِ
إنْ ســـائلاً يَمَّمْـــتَ بَحْـــرَ مواهـــبٍ ... أو جـــاهلاً يَمَّمْـــتَ بَحْـــرَ عُلـــومِ
أو مـــشتكٍ مِـــنْ ذي عـــداءٍ مَظْلَمًـــا ... يَمَّمـــتَ رفْـــعَ شـــكايةِ المظلـــومِ

أو إلى الشاعر المجيد: سيدي عبد الله ولد أحمد دامْ إذ يقول: (بسيط)

وإنْ أَلَـــمَّ بـــه ضـــيفٌ فَمُرْتَحِـــلٌ ... يُـــثْنِي وكـــان جميـــلَ الظَّـــنِّ إذْ رَغِبَـــهْ
ولّـــى يُفَـــرِّقُ حَمْـــدَ الـــشيخِ في فِـــرَقٍ ... شـــتَّى ويُكْثِـــرُ ممَّـــا قـــد رأى عَجَبَـــهْ
رأى هنالـــك أخـــلاقَ الكِـــرامِ إلى ... زِيِّ الملـــوكِ وزيِّ الـــسَّادَةِ النُّخَبَـــهْ
رأى مُـــصَرَّعَةَ الأنعـــام قـــد قُـــسِمَتْ ... بـــين الـــصَّفيفِ وبـــين الجَوْلَـــةِ الرَّحَبَـــهْ
رأى الوفـــودَ علـــى بـــاب الكمـــالِ كمـــا ... يَرى الدُّثورَ على عِـــدٍّ حَمَـــتْ قُـــلُبَهْ
مِـــنْ مُـــعْتَفٍ واخـــي فتـــوًى ومُلْـــتَمِسٍ ... فَصْلَ القَضا ومُريـــدِ كَـــشْفَ مـــا حُجِـــبَهْ
أو كَـــشْفَ مـــسألةٍ والكـــلُّ قـــد وسِـــعَتْ ... جِفَانُـــهُ ولِكُـــلٍّ منـــه مـــا طَلَـــبَهْ
فـــاللهُ بـــاركَ في نفـــسِ الكمـــالِ وفي ... مـــا اللهُ مُوليـــه مِـــنْ قُـــصْوَى ومُقْتَـــرِبَهْ
إنْ تَـــسْتَبِقْ حَلَبـــاتُ المجـــدِ راكـــضةً ... خَيْـــلَ المَعـــالي تَـــرَاهُ ســـابقَ الْحَلَبَـــهْ
لا يُـــضْمِرُ الـــضَّجَرَ مِـــنْ جـــارٍ أساءَ ولا ... مِـــنَ المُرافِـــقِ يُـــوهِي صَـــبْرَ مَـــنْ صَـــحِبَهْ
ولا يَـــضِيقُ ذِراعًـــا بالـــذي صَـــنَعَتْ ... أيـــدي الحـــوادثِ تَبْتَـــزُّ الفَتَـــى سَـــلَبَهْ
وكَـــمْ لَـــئَا بـــيْنَ مـــا حَيَّـــيْنِ أَصْـــلَحَهُ ... خَـــرْزَ الصِّنَاعِ لِمُسْنِي أُجْرَةٍ قِـــرَبَهْ
أمَّـــا الرِّقَـــاعُ فَـــأَغْلاقٌ يَجـــودُ بهـــا ... والـــسيرُ لُـــصْحُ بليـــغٍ يَـــبْتَغي القُرُبَـــهْ
رَآهُ ذو العـــرشِ عَـــلاَّمُ الغيـــوبِ لِـــدًا ... أَهْـــلاً فَـــساقَ لَـــهُ مِـــنْ قبلـــه سَـــبَبَهْ
علْمًا وفهمًا يَصِـــيدُ المُشْكِلاتِ بـــه ... دَرْكَ الطِّمِـــرَّةِ مِـــنْ سِـــرْبِ المَهَـــى عَطِـــبَهْ

أما الشيخ سيدي محمد فيكفي في وصفه أنه لم يكن أحد يقارَنُ بالشيخ سيديّ في حياته سواه، وبعد وفاته تفرد بخلافته, فإذا قرأنا شهادة معاصريه في وصفه وجدناه مطابقا لوصف أبيه تماما، وسآخذ مثالا على ذلك شهادة جدي محمد مولود بن أحمد بن عبد الله الحاج بن المبارك، إذ يخاطبه في قصيدة فيقول: (كامل)

فـــذر الـــصبا وزر الكـــريم محمـــدًا ... بتحيـــة تـــستـــوجب الإفـــضالاَ
أكرمـــه إجـــلالاً بـــذاك فإنـــه ... يـــستوجب الإكـــرام والإجـــلالاَ
قَـــدِّمْ لـــه مـــا تـــستطيع مـــن الثنـــا ... واصـــدع بـــه واضـــرب بـــه الأمثـــالاَ
صِـــفْه بمـــا تـــصف الكـــرامَ وفوقَـــه ... إذ فـــاقهم أدبًـــا وفـــاق نـــوالاَ
وشمـــائلاً تـــزري بنفحـــة روضـــةٍ ... مُلِئـــتْ تنـــاويرًا زهـــتْ وزُلاَلاَ

أخطـــأتَ إنْ شبَّهتَـــــه في جُـــوده ... مَعْنًـا وكَـعْـــبًا حـــاتمًا وبـــلالاَ
أو كنـتَ قـد شبَّهتَـــــه في علمـه ... مُتَموِّجًـا يَرمـي السَّفـــينَ تِـلالاَ
فـــانزلْ إلى ذاك الفنـــاءِ تَجِـــدْ فتًـى ... جـمَّ الرمـاد علـى الـــرُّبَى محـلالاَ
سَهلَ الجَنـاب لمـن أوَى لِجَـنَـابـه ... حُوش الجَنان لـــدي البَنـان أُلـــالاَ
يَـلْـقَى العُـفَاةَ بواضـحٍ مُـتَبَـلِّـج ... متبـسمٍ يَـسْـتَـبـشِرُ اسْـتِـهْلالاَ
يَهَـبُ الألـوفَ علـى الألـوفِ وضِـعفَها ... للمجتـــدين قَنـــاطرًا وريَـــالاَ
ولَـــجانبًا شـــمَّ الـذرَى مـشدودةً ... برحالهـــا والعـــوذَ والأشْـــوالاَ
فـــاللهُ إذْ قـــسَمَ المكـــارمَ في الـــوَرَى ... أوْفَى لـــه منْ حظِّـــــه المِكْيـالاَ
لـو واجـهَ البـدرَ المنيـــرَ بوجهـه ... لَـفَـــدَا بـــه البـدرُ المـنيرُ هـــلالاَ
أو قابـــلَ الـشمسَ المـضيئةَ بالـضُّحَى ... صَـــحْوًا لأَلْـبَسَ وجهها اجْـلالاَ
قـسمًا بـربِّ الرَّاقـصاتِ إلى مِـــنًى ... عُوجًـا عَوَابِـــــرَ في الهجـيرِ الآلاَ
خوصًـــا تبـــارى في الأزِمَّـــةِ جُنحًـــا ... يطـوين منـشـــور الفـلاة شـلالاَ
يحملـــن شُـــعْثا عامـــدين لحجِّهـــمْ ... كيمـــا يحطُّـــوا عنـــهمُ الأثقـــالاَ
مـــا أمَّـتِ الْوَجْـنَـــاءُ في راحُولِهَـا ... منـــهُ أَبَـــرَّ مَوَاثِقًـــا ومَـــقَـــالاَ
وأعـــزَّ جيرانًـــا وأغـــزر نـــائلاً ... والمُحْـــلُ يَغْـــرِقُ بالـــسُّعارِ مَحَـــالاَ
وأتمَّ أخلاقًـــا وأحـــسنَ خِـلْـقَـــةً ... منـــه وأطْيَـــبَ شـــيمَةً وخِـــلالاَ
آلَ الكمـــالِ وُقِـيتُـــمُ شَـرَّ العِـدَى ... ووُقِـيـتمُ البَـــأسَـــاءَ والأَلْكَـــالاَ
وكفيـــتمُ شـــرَّ الحَـــسودِ وكيْـــدَهُ ... وكفيـــتمُ المُـغْـــتَـــالَ والمُحْـــتالاَ

فالقارئ إذا لم ير الاسم يجزم بأن المخاطَب هو الشيخ سيديّ.

وأما المجدد الشيخ سيديّ باب فلا يختلف واصفوه من معاصريه أنه قد زاد في الفضل والكمال على أبيه وجده، وآخذ مثالا على ذلك قول جدي محمد فال ابن محمد مولود المشهور بالدَّدَوْ: (وافر)

ســـــلام كالمدامـــــة بـــالزُّلالِ ... وكالمـــسْكِ الـــذَّكيِّ وكاللَّـــآلي
يشق به السَّـــفين بحورَ مـــاءٍ ... وطـــوْرًا في القفـــار بحـــورَ آلِ
إلى المحمودِ قطْـــب رَحَـــى الزَّوايَـا ... ومـــأمنِ كـــلِّ ذي داء عُـــضالِ
ترى معه الوفـــودَ أُولـــي المَوالـــي ... وأربـــابَ المراتـــبِ كالمَـــوالي
فَـــعَـــفٌّ عَنِ التَّـــصَـنُّعِ والدَّعاوي ... وكَفٌّ عنِ الضَّـــــلال والاعتزالِ
علـــى أبويـــه زادَ وأيُّ مَـــرْءٍ ... يُطـــاوِلُ غـــيرَه قُـــنَنَ الجبـــالِ
فَـــدَعْ خـــيرَ القـــرونِ وفَـــضِّلَنْهُ ... على مَـــنْ بَـعْـــدَ ذاك مِـــن الرجـــالِ

وفي البيت الأخير تصويب لقولِ الشاعر المبدع: محمذن بن السالم: (وافر)

حَـوَتْ مـا دون مرتبـة التـنـبي ... يداك مـن المـكـارم والمعـالي
فأنـت إذا مـن الثقلـين طُـرًّا ... بمنزلـة اليمين مـن الشمال

وقد اتفق معاصرو الشيخ سيديّ باب أنهُ بلغ رتبةَ الاجتهاد وأصبح إمامًا عامًّا للمسلمين في غرب إفريقيا عنه يصدرون في أمور دينهم وأمور دنياهم.

وأما الشيخ سيدي المختار فيكفي في وصفه أن معاصريه مجمعون عَلى أنه كان من الشيخ سيديّ باب بمنزلة هـرون من موسى فلم يحجبْه بَـابَ عن أية فضيلة من ميراث أبويه وكانا في كلِّ المكارم كفرسي الرِّهان يُعدُّ السبق بينهما بتقدُّم الوجه أو الأذن. وكان الشيخ بابَ شديد الإعجاب بأخيه، وقد جعله مُعاصـروه مضرب المثل في الكرم والصدق والإخلاص والعبادة والسيادة... وآخذ مثالا من شهادة معاصريه قولَ ابن عمي: محمد المصطفى بن محمد ولد الطالب: (طويل)

فبالـسيدِ المختـار حـسبي فإنـه ... لأجْـدَى وألـدَى مِـنْ عَـدِيٍّ وحـاتِمِ
إمـامٌ يـرى الحـق الـذي لـيس لازمًـا ... أحـقَّ عليـه مـن حقـوقٍ لـوَازِمِ
هـو الذائـدُ الحـامي الـذمارَ عـن الـورَى ... هـو القائـدُ الكـافي هجـومَ العظـائمِ
هو السلسلُ العـذب المـذاقِ لـدَى الرِّضَـا ... وأهْيَـبُ مِـن لَيْـثٍ عَـبَنّ لُـبَـارِمِ

وقولَه فيه أيضا: (بسيط)

يـا مـن بأخمـصه هـام العـلا بطـأ ... يـا مـن هـو الملجـأ اللاجـي لـه الملأ
يـا مـن يـسح إذا شـح الكـرام يـدا ... يـا مـن يـصح إذا يعـزى لـه النبـأ

وعموما فإن هذا الشمول في جميع المكارم والمعالي هو ميراث الشيخ سيديّ «وجعلها كلمة باقية في عقبه». فمن عاصرناهم من أحفاده يتجلّى في صفاتهم هذا الشمول واضحا فيتواطأُ وصف معاصريهم لهـم مـع وصف معاصري أوّليّتهم، وآخذ مثالا على ذلك قولَ جدي الشيخ محمد علي بن عدود في إسماعيـل بـن باب: (طويل)

إلى الـشيخ إسماعيـلَ أوّلَ أوّلِ ... سـلامي بـنَصٍّ بـيِّنٍ لَـمْ يُـؤوَّلِ
إلى بحـرِ علْـمٍ للأنـامِ مـسَبَّلِ ... وقبلـة حـاجٍ للـورَى لَمْ تحـوَّلِ
ولم يـستند يومًـا إلى غـيرِ مُـنزلٍ ... فليس بخَطِّـيٍّ وليس بـجَدوَلِي
إلى عمدتي إمَّـا خـذلتُ وناصـري ... ومَـن هـو بعـدَ اللهِ أوْلَـى معوَّلـي
ومَـن هـو صـوبي مـا حييـتُ وإنْ أكـن ... صرفتُ إلَى مَنْ دونه عـن أحـوَلِ
فلي فيـهِ أستاذٌ ولي فيـه مولِـىً ... ولي فيـه شـيخٌ في الطريـقِ ولِـي ولِـي

وما شاهدناه من صفات المعاصرين هو أدلُّ دليل على صفات السابقين كما قال الشاعر: (بسيط)

إن غـاب عنـك أبُـو ابـنٍ لم يغـب فلمـن ... يبـدو لنـا إنمـا يبـدو لنـا غَـيَـبُـهْ

وقديما قال زهير بن أبي سُلمى: (طويل)

ومـا يَـكُ مِـنْ خـيرٍ أتَـوْهُ فإنمـا ... توارَثَـهُ آبـاءُ آبـائِهِمْ قَـبْـلُ

وَهَـلْ يُـنبِـتُ الخَطِّـيَّ إلاَّ وَشِـيجُهُ ... وتغرَسُ إلاَّ في مَـنابِـتِـهَا النَّخْـلُ

وفي هذا الكتاب وهذه الندوة حث للأجيال الآتية على الاتصاف بصفات الماضين.

هذا ويأبى القلم أن يتوقف قبل إسداء الشكر الجزيل لمؤسسة الشيخ سيدي الإسلامية الثقافية ـــ التي هذا الكتاب باكورة عملها ونرجو أن تستمر في مشروعها ـــ، ولفضيلة رئيسها الدكتور الشيخ إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن الشيخ سيدي، وقد كنت قلت فيه قديما بأمر خالي أحمد محمود ابن عـدود رحمه الله: (طويل)

حـوى الفـضل والتقـوى بنـوهم ورُبمـا ... أضافوا لِـمَا قَـدْ وُرِّثُـوا صَـفَقاتِ

وهم طبقاتٌ في المـعـارفِ والعُـلَى ... وأنت مُجَـلِّـي تـيلِكَ الطَّبـقـاتِ

والشكر موصول واصل كذلك للأخ الكريم أحمد بن هارون بن أحمد بن الشيخ سيدي منسق هذا العمل، ولجميع من شارك في الندوة أو ساهم في هذا الكتاب في طباعته أو نشره أو توزيعه، ولجميع أفراد الأسرة الكريمة وعلائقها, وأختم هذا التقديم بقول خالي الشيخ محمد سالم ابن عَدُّودْ حفظه الله: (بسيط)

يـا صـادق الوعـد عهـدًا بالوفـاء إلى ... يـوم اللقـاء لحـقٍّ خـابَ مَـنْ جحـدهْ

مُـدُّوا إلينـا بأيـدٍ طالَمـا رفـدتْ ... حـتى لُبـايعَ منـها سـادة مَجَـدَهْ

لـسنا نقيـلُ ولـسنا نَـسْتَـقيلُ ولـنْ ... يُقـيمَ غيرُكُـمُ مِـنْ دُرْءِنـا أوَدَهْ

أبقـاكم الله ذخـرا للعبـاد ولا ... حـل الزمـان لكـم مـا كـان قـد عقـده

ودام نهـجُ هـداكم يـستبينُ بـهِ ... مَـنْ جـارَ أو حـارَ في ظَـلْمائِهِ رَشَـدَهْ

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتبه وقاله محمد الحسن بن الدَّدَوْ كان الله لـه وليـا ونـصيرا، يـوم ١٤٢٧/٧/٢٣هـ الموافـق: ٢٠٠٦/٨/١٧م

الشيخ سيديّ.. التأثير والإبداع

العلامة/ الشيخ محمد سالم ولد عدود

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين

صلى الله وسلم على محمد خاتم النبيين

وعلى آله ومن هدى بهديه إلى يوم الدين

أشرفتُ على هذه النّجاد الغربية فذكرتُ قول الشيخ سيديّ رحمه الله تعالى: (كامل)

ظَهرَتْ مَعالِمُ أَرْضِنا مِثْلَ الغُرَرْ ... يا حَبَّذَا لُجُدٌ تَبَدَّتْ لِلبَصَرْ

أَرْضٌ تُحبُّ لُزُولَنا وَنُحِبُّها ... فيها أبو تلميتَ ثُمَّتَ ذو عُشَرْ

وبِهَا أَحِبَّتُنا الذِينَ تَنَعَّمُوا ... بِجوارِ رَبٍّ قَدْ رَضِي عَنهُمْ وَبَرْ

وقولَ الشيْخِ سيديّ الثاني: (وافر)

أَبُوتلميتَ واسطةُ البلادِ ... هَدَى أَهْلِيه إِذْ نَزَلُوهُ هَادِ

تَوَسَّطَ بيْنها شَرْقا وَغرْبا ... وَبَيْنَ الرِّيفِ منهَا وَالبَوَادِي

هَوَاءٌ طَيِّبٌ وَنَمِيرُ مَاءٍ ... إِلَى الشُّمِّ الحِسَانِ مِنَ النِّجَادِ

سَقَى أَرْجاءَهُ صَوْبُ السَّوَارِي ... مُبَارَكَةَ الْمَغَبَّةِ وَالغَوَادِي

وَصاحَبَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ لُطْفٌ ... وَإِرْشَادٌ إِلى سُبُلِ الرَّشَادِ

وَأَعْطِيَ كُلَّ عَافِيَةٍ وَأَمْنٍ ... مَدَى الدُّنيَا وَفِي يَوْمِ التَّنادِي

وأنا مع ذلك كلِّه أذكر قول الشاعر: (كامل أَحَذُّ مُضْمَر)

إِنِّي وَمَا نَحَرُوا غَدَاةَ مِنًى ... يَوْمَ الجِمَارِ تَؤُودُهَا العقْلُ

لَوْ بُدِّلَتْ أَعْلَى مَعَالِمِها ... سُفْلاً وَأَصْبَحَ سُفلُهَا يَعْلُو

فَيَكَادُ يَعْرِفُهَا البَصِيرُ بِهَا ... فَيَرُدُّهُ الإِقْوَاءُ وَالْمَحْلُ

لَعَرَفْتُ مَغْنَاها لِمَا ضَمِنتْ ... مِنِّي الضُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

وأنا أذكر قولي: (كامل)

مَاذَا أَقُولُ وَقَدْ تَنَاهَتْ شِرَّتِي ... وَتَنَاوَلَتْ ذِهْنِي يَدُ الْحَدَثَانِ

بأي ناحية أبدأ من حياة الشيخ سيديّ؟

عُيِّن لي "الشيخ سيديّ: مكانته العلمية، مكانته الإصلاحية"... هذه جوانب متعددة، وربما أسطو من غير

قصد على المحاور التي سيتناولها المحاضرون بعدي... أذكر بعض المدائح وأذكر بعض المراثي فينفسح أمامي المجال. من هذه المدائح قصيدة الشيخ محمذن ولد السالم الحسني التي يقول فيها: (وافر)

وعَرْجَلَةٍ مِنَ الظِّرْبَاءِ شُعْثٍ ... مِنَ اللأْوَاءِ تَجْأَرُ كَالسَّعَالِي
جَمَعْتَ عَلَى مُكَلَّلَةٍ رَدَاحٍ ... كَجَابِيَةِ الْمُخَوَّلِ وَفْرَ مَالِ
وَمَلْهُوفٍ أَغَثْتَ وَذِي عِيَالٍ ... جَعَلْتَ عِيَالَهُ أَحْظَى عِيَالِ
وَعَانٍ قَدْ فَكَكْتَ وَمُسْتَضِيفٍ ... حَضَأْتَ لَهُ الزَّخِيخَ عَلَى التِّلَالِ
لَقَدْ أَرْخَصْتَ فِي طَلَبِ الْغَوَالِي ... وَفِي كَسْبِ الْمَثُوبَةِ كُلَّ غَالِ

وأذكُرُ قول الشاعر بالحسانية: (امْرَيْميدَ)

يشَيْخْ شفْتَكْ من كَرْمَكْ ... لُلُوفْ بَعْدْ الْعَزْرِيَهْ
أَلاَ كَطْ مْعَطَاهْ حَزْمَكْ ... مَعْرُوفْ تَسْتَلْزَمْ بِيَهْ
والْلُوحْ لَلْفْ اعْلَ كَوْمَكْ ... وامْنَيْنْ تَابَ تَعْطِيَهْ
وانْجِيكْ قَرْيَ منْكَبْ ... يَشَيْخْ مَا قْمْلَكْ سَبْ
واتْعُودْ فَوكَكْ تتَنَبْ ... واشْوَايْلَكْ بَيْنْ أَيْدِيَهْ
وارْحَاكْ مَا تكْصَرْ حَبْ ... مَا كَامْ لعياطْ اعْلِيَهْ
أفْدِّينْ تَوْطَ والْشَرَّمْ ... ابْلِيسْ تَحْتَكْ يَزَّرَّمْ
ما كَطْ فَفْعَالَكْ طَرَّمْ ... أَلاَ كَطْ صَدَّيْتْ الْجِيَهْ
مَا صَدْ عَنَهْ متَبَرَّمْ ... واتْبَرَّمْ الْخِيرْ اعْلِيَهْ

والعلاقة الإيحائية بين "الوافر" وبين "امْرَيْميدَ" معروفةٌ عند الفنانين وإن كنت لست من حقلهم,,! وأذكر قول الآخر: (لبَسِيْ)

أَلْبِلْ عَنْدْ الشَّيْخْ ارْغَ ... عَادَ فيهَ مَطْبُوبَ
أَلَّ تَرْغِ مُفَرْغَ ... وَلْ تَرْغِ مَصْيُوبَ

يذكّرني قول الشاعر الحساني:

وارْحَاكْ مَا تكْصَرْحَبْ ... مَا كَامْ لعْيَاطْ اعْلِيَهْ

بقول الراثي الشيخ الهادي بن محمدي رحمهما الله تعالى: (كامل)

أ ـ هذه الأبيات التي أنشدها العلامة وغيره من المحاضرين، من قصيدة طويلة للشيخ محمذن ولد السالم الحسني تزيد على ثمانين بيتا، مطلعها: قفا نستنطق الدمن البوالي وتبكي أعصُرُ اللهو الخوالي. لكنها لم تبلغ من الشهرة في الأوساط العريضة ما بلغ البيتان التاليان منها: حَوَتْ ما دُونَ مَرتَبَةِ المُنَبِي بَذَاكَ مِنَ المَكَارِمِ والمَعَالِي
قالتْ إذنْ مِنَ الثَّقَلَيْنِ طرًّا بمَنْزِلَةِ اليَمِينِ مِنَ الشِّمَالِ

قُطْبَ الرَّحَى مَأْوَى الوَرَى مَنْ جَاءَهُ يَجِدِ الرَّحَى أَبَدًا تَحُثُّ نِعَالَهَا
وَيَجِدْ كَرِيمَةَ شَوْلِهِ مَعْقُولَةً بِالبَابِ قَدْ خَضَبَ النَّجِيعُ عِقَالَهَا

أتجاوز هذا كله لأتكلم عن مكانة الشيخ سيديّ العلمية. ويمكن أن أقسم هذا الكلام إلى عدة مراحل:

المرحلة الأولى: المرحلة البيتية، المرحلة الثانية: مرحلة خروجه خارج إطار البيت والبيئة الأصلية لإتقان القرآن والمتيسر حينذاك من علومه، ثم مرحلة الخروج لإتقان علوم العربية وعلى رأسها علم النحو، ثم مرحلة خروجه لإتقان علم الفقه، ثم مرحلة خروجه للاطلاع على المكتبات والتفرغ لاستكناهها واستنطاقها، ثم مرحلة التأليف، ثم مرحلة الإرادة، مرحلة الاستزادة من علم الإحسان في أزواد، ثم مرحلة تكوين المكتبات: نسخها واستنساخها واستيرادها واستقطابها، ثم مرحلة الاستقرار في هذه البلاد والتكوين والإنشاء لما يمكن أن يكون نواة لدولة إسلامية تخلف الدولة المرابطية القديمة في هذه البلاد.

المرحلة الأولى مرحلة البيت: الشيخ سيديّ بين بيتين كريمين من أهل هذه البلاد، بيتيْ علم وصلاح وسيادة.

أما أبوه فهو الشيخ المختار بن الهَيْبَه بن أحمد دَوْلَه، هذا الشيخ الصالح الزاهد في الدنيا العازف عن ملذاتها وشهواتها المعتزل للفتن، الذي قال فيه الشيخ سيديّ عندما قال له بعض العرب من مريديه وأنصاره بالحسانية، من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم: *"الشَّيْخْ سيدِيّ الْتَ عَارِفْ عَنَّكْ أَخيرْ مِنَّكْ الشيخْ سيدِي محمدْ؟"*، قال: *بَاشْ؟ (بأي شيء هو خير مني؟)* فقال القائل: *"لأن اباه الشيخ سيديّ وانت ليس الشيخ سيديّ بابيك"* قال الشيخ سيديّ: *" آنَ زَدَانَ بُويَ آلّ امْرَابطْ مْتَعَدِّلْ"*. هذا الشيخ المختار بن الهيبه.

أما الهَيبه نفسه فهو ذلك الرجل الوجيه الشريف ذو المكانة العظيمة: في الوفادات، في محاولة الإصلاح والقضاء على الفتنة في مَكمنها. هذا الشيخ وابنه لم يكونا ليصلا إلى هذه الرتبة الاجتماعية العالية في مجتمع الزوايا في ذلك الوقت إلا برتبة عظيمة من العلم.

ثم نأتي إلى جهة الخؤولة، مَن أخوال الشيخ سيديّ؟ مَن أمه؟ أمه التي أشار إليها في قوله، عندما ذكر ذا عُشَر. ذو عُشَر الذي عرَّب به الشيخ سيديّ "انتورْجَاتْ" مدفنَ والدته أم المومنين بنت أشفَقَ عُبَيْدْ ابن الفاضل بن آبَابَكْ:

أَرْضٌ تُحِبُّ نُزُولَنَا وَنُحِبُّهَا فيها أبو تلميتَ ثُمَّتَ ذوعُشَرْ

هذه المرأة المُنجبة كان لها إخوة جمعوا بين السيادة والعلم. من هؤلاء سيديا ولد أشفق عُبيدْ، من أعلام العلماء في هذه البلاد، خصوصا علم النحو.. سمَّت ابنها باسم أخيها فقيل لها: *" تَقَلْتِ عَلَيه"* فقالت كلمتها المشهورة: *"رَبْهُمْ وَاحدْ"* فتجاوزت التوقُّعات ما كانت هي تتوقع.. فجاء الشيخ سيديّ.. والآن، ما من أحد – إلا من كان مثلي – يعرف اسم سيديا بنَ أشفَقَ عُبَيْدْ.هذا البيت الذي ذكرتُ

جانبيه: جانب العمومة وجانب الخؤولة، جانب الأبوة وجانب الأمومة هو المدرسة الأولى للشيخ سيديّ.

ثم بعد ذلك سمَت به همّته إلى أن يخرج عن محيطه الأسْـري لإتقان القرآن والمتاح من علومه في ذلك العصر، فذهب إلى مدرسة قرآنية في قبيلة مشهورة شريفة ساهمت في التاريخ القديم لهذا البلد تسمى "تِيمْرِكّيونْ"، فأتقن عندهم القرآن تجويداً ورسما وضبطا. وجاء من عندهم مزودا بكل ما يحتاج إليه الشاب مثله من علوم القرآن. وظن الظّانّ – وربما يكون الشيخ سيديّ نفسه أول من يظن هذا – أنه قد حصل على الكفاية، فليبق في أهله مكرما محترما ولكن الهمة كانت أسمى من ذلك.

خرج الشيخ سيديّ، وهي المرحلة الثالثة، إلى مدرسة الشيخ حُرمةَ بن عبد الجليل العلوي فأتقن في هذه الحظرة علوم العربية وخصوصا علمَ النحو. ولا أعلم أحدا في عصره غيره يحفظ تسهيل ابن مالك عن ظهر قلب إلا ما كان من امْحمَّدْ ابن الطلبَه المشهور. هذان اللذان كانا يحفظان تسهيل ابن مالك في هذه البلاد. فإذا قيل إن المَكوديّ كان آخرَ من يحفظ "كتاب سيبويه"، فآخرُ من كان يحفظ "التسهيل" في هذه البلاد اثنان فقط: الشيخ سيديّ وامْحمَّدْ ابن الطلْبَه.

بعد ذلك استعلت به همته لإتقان علم الفقه فرحل إلى مدرسة الشيخ حبيب الله بن القاضي (الصَّفْرَ والْكَحْلَ) فأقام هناك حتى حصّل ما كان يسمو إليه ويصبو إليه من علم الفقه.

ثم سمَت به همّته في مرحلة أخرى إلى الاطلاع على المكتبات والتفرغ لدراستها والاستفادة منها، فجاء إلى مدينة تِشيتْ وهي حافلة بالعلم والمكتبات فأقام بها ردحا من الزمن لا يبحث عن أهله. سمع به رجل من أهله، من أولا أَبْيرِ (بيت إِدَبْ أَعْمَرْ). هذا البيت شديد الالتصاق ببيته هو.. سمع به الرجل فجاء يبحث عنه ليفيده بآخر المعلومات عن أهله، فرفع وجهه فيه وهو واقف في البيت،جاءه ظله، فعرف الرجل فأراد أن يستثيره (أراد أن يغضبه) حتى لايخبره، فقال له الشيخ سيديّ بالحسانية: *"أَخْبارَكْ يَكَوْمْ عَنْ ابْكَيرَاتَكْ؟"* فغضب الرجل وذاك أراد الشيخ، قال له: *"انا جئت من بعيد لأخبرك بأخبار أهلك وأنت تستقبلني بمثل هذا الكلام؟ بقيتَ بدون مُخبر عن أهلك"* وانصرف الرجل وذلك أراد الشيخ. بقي الشيخ في هذه المدينة حتى حصّل ما يمكن أن يحصّله من علمها ومن الاستفادة من مكتباتها.. وكان فيها إذ ذاك شيخان معروفان بالعلم والصلاح، فاستشار أحدهما، قصَّ عليه قصته ومراحل طلبه للعلم، قال له: *"هل ترى أن أذهب إلى أهلي لعلّ الله ينفعهم بي أو أذهب إلى هذا الشيخ (الشيخ سيدي المختار الكُنتي)*، فقال له: *"لا أرى لك حاجة إلى الاستزادة.. الآنَ أرى أن تعود إلى أهلك فتبث فيهم ما حصّلت من العلم والله ينفع بك هناك"*. واستشار الشيخَ الثاني فقال: *"البحر لا يَمَلُّ الزيادة، أرى أن تذهب إلى هذا الشيخ لعلك تدرك منه (من حياته) ما ينفعك الله به"*.

فصمم الشيخ سيديّ العزم على أن يلتحق بالشيخ سيدي المختار الكُنتي. وفي طريقه صادف

الفرسان يبشرون الخلل بأن الشيخ بابَ اليوم جاء إلى المسجد (لأن الشيخ سيدي المختار يلقّب الشيخ بابَ)، ففرح بذلك ورأى فيه فألا حسنا للمهمة التي جاء من أجلها. فجاء إلى الشيخ سيدي المختار وكان قد أسنَّ وصار في سمعه ثقل، فسأله: *ما اسمك؟* قال: *سيديّ، فقال: هُديَ؟* قال: *سيديّ*، قال: *هُديَ؟* فتفاءل بذلك. وبقي مع الشيخ سيدي المختار بقية حياته، ثم ساهم في ترشيح ابنه الشيخ سيدي محمدْ لخلافته وبقي معه أربعَ عشرة سنة.

أذن له الشيخ سيدي محمّدْ بالرجوع إلى بلاده ثم أرسل إليه، استقدمه من جديد وهو في أول الطريق ليصحح له مكتبة كان يستنسخها من المغرب فجاءه وقام معه في المهمة التي انتدبه من أجلها حتى توفي الشيخ سيدي محمّدْ، فاستخلف الشيخُ سيديّ نفسُه ابنه الشيخ سيدي المختار الثاني ابنَ الشيخ سيدي محمّدْ الخليفة ابنِ الشيخ سيدي المختار الكُنتي.

ورحل الشيخُ سيديّ إلى هذه البلاد، فجاء مجيء المطر الذي ليس فيه رعدٌ يزعج ولا برقٌ يكاد سَناهُ يذهب بالأبصار فبدأ حياته التي أدركها الناس: المدرسة العلمية والزاوية الإرادية، التي يصورها بقوله – هنا في بُوتِلميتْ – في استسقائيته: (طويل)

وَلاَ بَرِحَتْ أَرْجَاكَ مَأْوَى ذَوِي التقى ... يُقيمون فيها قُرْبَةً وقُنُوتا

وَمَخْلًى بِهِ حِزْبُ الْإِرَادَةِ يَخْتَلِي ... لجيا وَيَدعو جَاهِرًا وَخَفُوتا

مَتى مَا أَثَارَ الذِّكْرُ حَالاً صَحيحَةً ... بِبَعْضِهِم انْدَى زَفْرَةً وَنَهِيتا

وَمَنْحًى لِأَرْبَابِ الْمَغَارِبِ تَنْتَحي ... إِلَيْهِ عِزُوهُمْ ناطِقًا وَصَمُوتا

وَلاَ زِلتَ مَحْمِيًّا حِمَاكَ وَمُرْتَضًى ... جِوَارُكَ بَيْنَ الخلقِ بِرًّا بَخِيتَا

سَقى اللهُ قُطْرًا كنتَ مَحْشَاهُ حَاشِيًا ... شَآبِيبَ تُزْرِي لُجْدَهُ وَالْحُبوتا

وَتُكْسَى العَوَارِي مِنْ زَرَابِيِّ حَوْكِهَا ... صُنُوفًا تَضَاهَتْ حِيكَةً لاَ لُغُوتا

مَرَاحِمَ تَنفِي البُوسَ عَنَّا فَلاَ نَرَى ... لِسَوْرَةِ بُوسٍ بَعْدَهُنَّ ثُبُوتَا

وَيَسْرِي بِهَا نورُ التقى وَاليَقِينِ فِي ... نُفُوسٍ هَوَاهَا لاَ يَرِيمُ حَمِيتَا

وَيَغْدُو بِهَا مِرْوَاعُنا بَعْدَ رَوْعِنَا ... وَرَوْعٍ مُرِيدِينا مَرُوعا هَبِيتَا

وَيُصْبِحُ مَفْقُودُ المَعِيشَةِ قَبلَهَا ... مِنَ الخَلْقِ مَرْزُوقًا بِهَا ومَقُوتَا

وتُصبحُ لُسْنُ الحال والقَالِ كلُّها ... شَوَاكِرَ مَنْ لَمْ يَفْتَ قَطُّ مُقِيتا

إِلَهًا كَرِيمًا مَاجِدًا مُتَفَضِّلاً ... بَرَا بِيدَيْهِ المُلْكَ وَالْمَلَكُوتا

وكَانَ عَلَى العَرشِ المَجِيدِ اسْتِوَاؤُهُ ... وَمَا ذَاكَ إِلاَّ القَهْرُ وَالجَبَرُوتَا

هُوَ اللَّهُ ربُّ العَرشِ جَلَّ جَلاَلُهُ ... هُوَ الأَحَدُ الحَيُّ الذِي لَنْ يَمُوتَا

هُوَ الصَّمَدُ المَصْمُودُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... هو الخَالِقُ الرَّزَّاقُ عِلْمًا وَقُوتَا

تَبَارَكَ رَبُّنَا دَبَّرَ الأُمُورَ وَحْدَهُ ... مُعِزًّا مُذِلاً مُحْيِيًا وَ مُمِيتَا
تَحَلَّى تَعَالَى بِالكَمَالِ جَمِيعِهِ ... وَلَمْ يَحْلَ مِنْ وَصْفٍ لِذَاكَ مُفِيتَا
لَهُ الرَّحْمَةُ المِيسَاعُ وَالنِّعْمَةُ التِي ... مُرَاوِدُ إِحْصَاهَا يُعَدُّ مَفُوتَا
تَفَضَّلَ بِالإِيجَادِ وَالمَدَدِ الَّذِي ... يُنَاطُ بِهِ مَبْقَى الحَيَاةِ وَقُوتَا
فَسُبْحَانَ مَنْ وَجَادَ بِلاَ أَذًى ... وَعَمَّ بِجَدْوَاهُ الذُّرَى وَالبُحُوتَا

ويقول في هذه القصيدة:

وَسِرْ بِالْمَبَانِي فِيكَ أَحْسَنَ سِيرَةٍ ... وَآتِ الْمَعَالِي خَيْرَ مَا هِيَ تُؤْتَى
بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ الْعُلَى ... وَآيَاتِكَ اللاَّتِي قَمَعْنَ الْبُهُوتَا
بِالاسْمِ الَّذِي مَا إِنْ دَعَاكَ بِحَقِّهِ ... أَخُو ضَرَّةٍ إِلاَّ أَجَبْتَ وَجِيتَا
أَغِثْ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ وَاسْتَجِبْ ... وَلاَ تَثْنِ عَنَّا مِنْ حَنَانِكَ لِيتَا

تفجرت ينابيع الحكمة من الشيخ سيديّ وكان ينصح مريديه... فقدوه ذات يوم وخافوا أن تكون الجن اختطفته، فإذا هوجاءٍ من زيارة أمه حاسرَ الرأس حافيَ الرجل في نحر الظهيرة والناس يستقبلونه أفواجا من كل صوب فيقول لهم: (كامل)

مَا ابْيَضَّ وَجْهٌ باكْتِسَابِ كَرِيمَةٍ ... حَتَّى يُسَوِّدَهُ شُحُوبُ الْمَطْلَبِ

ويقول لهم بلهجة الحسانية: *"يْلاَمِيكْ حَدْ هَامُّ يَجْبَرْ شِ مَا كَطْ جَبْرُ حَدْ إوَاسِ شِ مَا كَطْ وَسَاهُ حَدْ"*، الحكمة المعروفة: "من أراد أن تُخرق له العوائد فليخرق العادة بنفسه".

كاد يكون الشيخ سيديّ أسس دولة هنا: وحَّد بين الناس وأصلح ذوات البين التي كانت فاسدة وراسل الملوك والأمراء وذهب هو بنفسه في هذه المهام وأوفد ابنه الشيخ سيدي محمَّدْ إلى منطقة لكْرَارَ (وادي الساقية الحمراء). وألف المؤلفات المهمة التي منها في الفقه: "شرح مختصر الشيخ خليل"، عمَّمَه وسَرْوَلَه، ورسالته التي عنوانها: "بُغْيَة الحَائِضْ في حكم التَّمَتُّع بالحائِضْ". وغيرها من الرسائل الفقهية.. وألف في علم العربية: "تُحفة الأطفال في شرح لامية الأفعال" الكتاب الذي نوَّه به الحسن ولد زَيْنْ بقوله:

فيه اقْتَفَيْتُ أَبَا الأَنْوَارِ سَيِّدَنَا ... سِيدِيَّ قُطبَ الرَّحَى بَدْرَ الدُّجَى المَثَلاَ

وألف كتابه المسمى: "النَّفْحَة القيومية بتقرير الآجرومية"، مزج متن الآجَرُّومية بما لا يثقل كاهل الطالب من أحكام التسهيل لابن مالك، وشرح "تحفة المودوْد في المقصور والممدودْ" لابن مالك شرحًا شوهدت فيه كرامة عجيبة: احترقت المكتبة فانتُشل هذا الشرح من رمادها بخط الشيخ سيديّ لم يصب بأذى. ألف الكثير من المؤلفات التي قد لا تحضرني أسماؤها وموضوعاتها الآن. وعلَّم بالإضافة إلى ذلك علم التصوف

وإصلاح القلوب أو ما يمكن أن نسميه الآن ب: "علم الإحسان".. هذا بالإضافة إلى اشتغاله بمصالح الناس العامة والخاصة. هذه الازدواجية النفسية عنده التي يصورها الشيخ محمذن ولد السالم بقوله: (وافر)

تُخَالِقُ بِالْجَمِيلِ الخَلْقَ طُرًّا وَالْتَ مَعَ الْجَلِيلِ الْفَرْدِ خال

ويقول فيها:

ولَمْ أَرَ قَبْلَ مَسْجِدِهِ مُصَلًّى تَضَمَّنَ وَابِلاً سَرِبَ الْعَزَالي
يَدَاهُ غَمامَتَانِ عَلَى الْبَرَايَا عَلَى التَّذْآبِ دَائِمَتَا الْهِمَال
فَدِيَ عمَّتْ بِصَيِّبِهَا وَهَدِي تَخُصُّ بِمَا ذَوِي الْهِمَمِ الْعَوَالِي

عاش الشيخ سيديّ هكذا مكرما تؤمه وجوه الناس من مختلف الأجناس من مختلف الأغراض مما ورد في المدح الحساني:

واتْجِيكْ قَرْيَ منْكَبْ يَشَّيْخْ مَا تْمَلْكْ سَبْ
واتْعُوذْ فَوكَكْ تَتَبْ واشْوَايْلَكْ بَيْنْ أَيْدِيَهْ

يشير الشاعر إلى أن حِلَّة من حِلَلِ العرب أُغير عليها وهي غارَّة ولم يبق عندها إلا حصان ورمَكة فدفَّت إلى الشيخ سيديّ وهو في انتجاع. فكان أول ما فعل أن جمع بين البيوت التي أهلها متناسبو الأعمار، جمعها في بيت واحد ثم في المرحلة الموالية أفرد كل أسرة ببيت. وفي المرحلة الثالثة قالوا له: هذا "الربيع" – كما يقولون – هذه البقول نحن لا نساهم فيها بشيء، لا بد أن نحوط على نصيبنا منها لأننا لسنا نملك راعية ترعى فيها، فعين لكل أسرة حلائب وركائب في ذلك المنزل حتى كان لكل بيت من المواشي ما يفي بحاجته.

ومن أبدع وأروع وأصدق ما أعرف مما قيل فيه أرجوزة ابنه الشيخ سيدي محمد البائية الطويلة المشهورة التي يُفَدِّيه فيها ويمدحه بما عرف منه وهو أعلم مادحيه وأصدقهم عاطفة.. ويدعو الله له فيها دعاء منه قوله: (رجز)

وأنْ يُبَارِكَ لكُمْ في العَقِبِ منكم فيحْظى بثبات العَقِب

وأنا أدعو بذلك وأدعوكم أن تدعوا معي بذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشيخ سيديّ.. الأبعاد والآفاق

العلامة/ الشيخ حَمدًا ولد التّاهْ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

والحمد لله رب العـــلميـــن

صاحبَ المعالي السيد الوزير،

صاحب السعادة السيد الوالي،

أصحاب الفضيلة، السادة المشايخ،

كيف أتكلم عن شخص أصبح مضرب المثل؟ الشيخ سيديّ.. هذا الذي أصبح غاية في كل مجـــال، عنـــد العامة وعند الخاصة. وكيف أتحدث بعد الشيخ عدُّودْ؟ سؤالان لا شك صعبان وعظيمان، حـــديث عـــن عظيم يصدر عن عظيم! لكنْ.. حاولت أن ألفَّ بعض الشتات مما تدفق من مائدة العلامة الشيخ محمد سالم ولد عدُّودْ.

أستطيع أن ألخص كما قال الشاعر: (سريع)

لـــيـــس علـــى اللهِ بِمُـــسْـــتَـــنكَـــرٍ أنْ يَجْمـــعَ العـــالَم في واحِـــــــــدِ

إن هذا الواحد هو الشيخ سيديّ: في بعده العلمي كما سمعنا: في بعده الصوفي – وأسميه الصوفي – في بعده الفكري والسياسي والإصلاحي. قد قسمها الشيخ عدُّود إلى: بعد علمي، بعد أدبي، بعد إصلاحي وبعـــد إحساني أو صوفي، لقبوها كما شئتم، ما عساها تمنا الأسماء.

إن الشيخ سيديّ مدرسة واسمحوا لي أن أراجع مصطلحا كثيرا ما نطلقه على بعض الحضرات "محظرة".. إنني أفضل أن أستعمل للشيخ سيديّ "حضرة" لأن الآفاق والأبعاد والإشعاع والرأي الشمولي الذي كان يحويه متعدد الجوانب مما يجعله يخرج عن دائرة المحدودية المحظرية.

قد نجد وليا صوفيا وقد نجد عالما محيطا بالعلوم والفنون، قد نجد مفكرا، قد نجد أديبا، لكن من الصعب أن نجد كل هذه الأوصاف في رجل واحد.

والخلاصة التي أصل إليها مما قدمه العلامة عدّود: "أن الشيخ سيديّ مرجعية نموذجية لمختلف الأبعـــاد، في العطاء الثقافي والاجتماعي والسياسي في هذا البلد".

فإذا كانت الدولة لم تكن موجودة، فإن هذه الأسرة – من الشيخ سيديّ إلى الـــشيخ ســـيدي محمّـــدْ إلى

الشيخ سيديَّ باب إلى أحفادهم – ظلت تراودهم فكرة إنشاء الدولة. وهكذا نجد هذه الرؤية الثقافية التي تتخطّى الأبعاد الزمانية والمكانية لتصل إلى تنبؤات يحتاج إليها هذا البلد وهي إنشاء الدولة.

فإذا كان الشيخ محمد المامي يدعو إليها فإن هذه الأسرة – هي الأخرى – أعلنت الدعوة لها. كما أن مدرسة أو"حضرةَ"، أفضل أن أسميها "الحضرةَ" بدل "المدرسة"، لأن المدرسة مفهوم ثقافي محدود والمحظرة مفهوم ثقافي أيضا محدود يوحي بشيخ وطالب وكتاب، لكن الحضرة مفهوم شمولي يتسع لمختلف الأبعاد والآفاق... فللشيخ سيديَّ في عطائه الفكري والعلمي والثقافي دعوات بآفاق متعددة، في مختلف المجالات.

والذي يقرأ كتاب الشيخ هارون ولد باب ولد الشيخ سيديَّ والرسائل الصادرة عن هذه الأسرة، يجد أن آفاقها لم تكن محدودة، ليس فقط في ترارزه أو في موريتانيا ولكنها تتجاوز هذه الآفاق إلى أقطار أخرى.

وإذا كان الشيخ سيدي محمد يقف في الشمال ليضع حدا من الحدود الموريتانية ويقول: (وافر)

أحـــــراءُ الـــــسواقي مـــــا ورائـــــي أَلانَ غَـــــرُبْتَ أيهـــا الإنـــــتِـــــشَائِي

فإن الشيخ إبراهيم ولد الشيخ سيديَّ يضع أيضا لبنة ليحد الحدود الشرقية: (خفيف)

ها أنـــا اليـــومَ بالنـــُـــــــوَارَ مقـــيمٌ أيُّ عهدٍ بيني وبين النـــّـــُـــــــوارا

وهكذا نجد أن هذه الأسرة رسمت الحدود وحاولت إنشاء الدولة الموريتانية وقدمت من العطاءات الفكرية والاجتماعية والثقافية ما لا يمكن حصره. فلها نتوجه بالشكر راجين لها المزيد من العطاء وأن تستفيد من هذا العطاء وأن تستفيد الدولة مشكورة منه.

ولا شك أن كلمة صاحب المعالي الوزير المبشرة بأن قطاعهم سوف يدعم هذه الأنماط الفكرية والثقافية والأدبية، ليبشر بخير كبير في هذا العهد الجديد. وأشكركم.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

رسالة الإمام/ أحمدّو بن المرابط بن حبيب الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نوّه بأهل العلم وفضّلهم فقال: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُون" وقال: "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ". ووعدهم بالأمن والبشرى فقال:"أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ".

وصلوات الله وسلامه على نبيه القائل: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» والقائل: «إن من إجلال الله تعالى إجلالَ ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الجافي عنه والغالي فيه وذي السلطان المقسط».

أما بعد،

فلما لم أكن متمكنا من الحضور بموجب الدعوة التي شرّفني بها السادة أبناء السادة، أبناء الشيخ سيديّ للمشاركة في ندوة يقيمونها بتاريخ 19 ــ 20 محرم 1427هـ في مدينة أبي تلميت حول الموروث الثقافي والأدبي للشيخ سيديّ والتمسوا مني مشاركة كتابية إذ لم أتمكّن من الحضور، أردت استجابة لذلك أن أكتب مشاركة في الموضوع فنازعتني المشاغل المستغرقة لوقتي فأبيت إلا المشاركة ولو باليسير.. فأنشأت أحاول أن استعرض بعض ما تناثر في الحافظة من درر مناقب الشيخ سيدي وابنه الشيخ سيدي محمد وحفيده الشيخ سيدي الملقب (باب) فتفتّحت عليّ من كل ناحية الأبواب، ولم أدر من أين أبْدأُ ولا إلى أين أنتهي في الباب، فأنشد لسان حالي قائلا وقوله صواب: (وافر)

تكاثرتِ الظباءُ على خِداشٍ ... فما يدري خداش ما يصيد

فلجأت حينئذ إلى استعراض بعض النماذج مما قاله في مناقبهم الشعراء المفلقون والفصحاء المفوهون.

فمن ذلك قول سيدي عبد الله بن أحمد دامْ البوحسني في مدح الشيخ سيديّ الكبير: (بسيط)

ما للمشيبِ وفعْلِ الفتْيةِ الشَّبَبَهْ ... وللّبيبِ يُواصي في الصِّبا خَبَبَهْ

آلتْ لِدي شَمَطِ الفَوْدَيْنِ رَجْعَتُهُ ... إنّ القَتيرَ لَيَحْمي ذَا النُّهَى طَرَبَهْ

لَمّا تَأَوَّبَني مِنْ طُولِ ما جَمَحَتْ ... نفسي همومٌ رمتْ صَبري بما سَلَبَهْ

ناجيتُ فكْري وقدْ أمْعنْتُ من نظري ... ثم استمرَّ بيَ الرأيُ الذي اكتسبهْ

ان يَمّتْ شرفَ الدينِ الكمالَ بنا ... عليا تَعْتَسِفُ الآكَامَ والهَضَبَهْ

حتى وضعْتُ عَصَا سَيْري بِبابِ فتًى ... يؤْوِي الطَّريدَ ويُولِي الرَّاغِبَ الرَّغَبَهْ

مِـــنْ نَبْعَـــةٍ طيِّـــبَ البـــاري أرُومتَهـــا ... بيتًـــا أحَـــلَّ ذُرَى المجـــدِ العُلَـــى لَـــبِهْ

حـــارتْ النـــاسُ بجَـــدْوى حـــاتمٍ ولقـــد ... نـــرى ســـخاءً كمـــالَ الـــدين قـــد غَلَبِهْ

أغنـى العمـاعمَ[1] مـن راجيـه سَـيبُ نـدًى ... مَـــنْ لا يَمُـــنُّ علـــى العـــافينَ مـــا وَهَبَـــهْ

مَـــنْ كـــان يَفْـــضُلُ لِلْمُثْـــتَرِّ إنْ عَرَضَـــتْ ... عَـــزّاءُ[2] تَغْـــدُو عليـــه أُمَّـــهُ وَأَبَـــهْ

أحْنَى علـى الـشُّعْثِ والأيتـام مِـنْ لَـصَفٍ ... علـى صـغيرٍ لهـا قـد أكـبرت عَطَبِـهْ

أشَـــدُّ عنـــد تَمـــادي أزمـــةٍ فَرَحًـــا ... بـــالمعتفين مـــن العـــافي بكـــلِّ هِـــبَهْ

يَلْقَـى العُفـــاةَ بوجـــهٍ مِـــن سماحتـــه ... كالهُـــدواني تَجْلُو مَـــتْنَهُ الجَلَبَـــهْ

وإنْ ألَـــمَّ بـــه ضـــيفٌ فَمُرْتَحِـــلٌ ... يُـــثْنِي وكـــان جميـــلَ الظَّـــنِّ إذْ رَغِبَـــهْ

ولّـــى يُفَـــرِّقُ حَمْـــدَ الـــشيخِ في فِـــرَقٍ ... شـــتَّى ويُكْثِـــرُ لَمّـــا قـــد رأى عَجَبَـــهْ

رأى هنالـــك أخـــلاقَ الكِـــرامِ إلى ... زِيِّ الملـــوكِ وزيَّ الـــسَّادَةِ النُّخَبَـــهْ

رأى مُـــصَرَّعَةَ الأنعـــام قـــد قُـــسِمَتْ ... بـــين الـــصَّفيفِ وبـــين الجَوْنَـــةِ[3] الرَّحَبَـــهْ

رأى الوفـــودَ علـــى بـــاب الكمـــال كمـــا ... يَرى الدُّلورَ على عِـــدٍّ حَمَـــتْ قُـــلُبَهْ

مِـــنْ مُعْتَـــفٍ وأخـــي فَـــتْوَى ومُلْـــتَمِسٍ ... فَصْلَ القَضَا ومُريـــدِ كَـــشْفَ مـــا حُـــجِبَهْ

أو كَـــشْفَ مـــسألةٍ والكـــلُّ قـــد وسِـــعَتْ ... جِـــفَانُهُ ولِكُـــلٍّ منـــه مـــا طَـــلَبَهْ

فـــاللهُ بـــاركَ في نفـــسِ الكمـــالِ وفي ... مـــا اللهُ مُوليـــهِ مِـــنْ قُـــصْوَى ومُقْتَـــرِبَهْ

إنْ تَـــسْتَبِقْ حَلَبـــاتِ المجـــدِ راكـــضةً ... خَيْـــلُ المَعـــالي تَـــراهُ ســـابقَ الْحَلَبَـــهْ

لا يُـــضْمِرُ الـــضَّجَرَ مِـــنْ جـــارٍ أســـاءَ ولا ... مِـــنَ المُرافِـــقِ يُـــوهِي صَـــبْرَ مَـــنْ صَـــحِبَهْ

ولا يَـــضيقُ ذِراعًـــا بالـــذي صَـــنَعَتْ ... أيـــدي الحـــوادثِ تَبْتَـــزُّ الفَتَـــى سَـــلَبَهْ

وكَـــمْ لَنَـــا بَـــيْنَ مَـــا حَيَّـــيْنِ أَصْـــلَحَهُ ... خَـــرْزَ الـــصَّنَاعِ لِمُـــسْنِي أُجْـــرَةٍ قَـــرِبَهْ

أمَّـــا الرِّقَـــاعُ فَـــأَعْلاقٌ يَجـــودُ بهـــا ... والـــسيرُ لُـــصْحُ بليـــغٍ يَـــبْتَغي القُرُبَـــهْ

رَآهُ ذو العـــرشِ عَـــلّامُ الغيـــوبِ لِـــذَا ... أَهْـــلاً فَـــساقَ لَـــهُ مِـــنْ قبلـــه سَـــبَبَهْ

عِلْمًـــا وفهمًـــا يَـــصيدُ المُـــشْكِلاتِ بـــه ... دَرْكَ الطَّمِـــرَّةِ[4] مِـــنْ سِـــرْبِ المَهَـــى عَطِـــبَهْ

ومَـــصَّ كُـــلَّ دَرورٍ مِـــن مـــسلسلة ... دَرًّا تَخَيَّـــرَهُ لِلْمُلْـــكِ مَـــنْ لَـــقِبَهْ

لَمّـــا تَغَلْغَـــلَ في عِلْـــمِ الـــشريعة مِـــنْ ... صـــافيهِ أعْمَـــلَ في لَيْـــلِ العُلَـــى لُجُبَـــهْ

شَـــدَّ الرِّحـــالَ علـــى عُتْـــقِ الرِّكـــابِ إلى ... تـــاجِ الأَجِلَّـــةِ مِـــنْ ساداتِنَـــا النُّخَبَـــهْ

فَـــنالَ مـــا نـــالَ إذْ حَـــطَّ الرِّحـــالَ ومـــا ... أدْراكَ مـــا نـــالَ يـــا وَاهًـــا لهـــا رُتَـــبَهْ

---

[1] العماعم: الجماعات المتفرقون
[2] عزّاء: السنة الشديدة
[3] الصفوف: ما صُفَّ على الجمر لينشوي، الجونة: القدر

فأصبحَ الشيخُ مَأوَى كُلِّ ذِي ظَمَإٍ كَمَا يُصَبِّحُ مَسْقَى دجْلَةَ القَرَبَهْ[2]

ورغمَ كون هذا الشيخ آثر الاشتغال بالتعليم والإرشاد والتأليف على قرض الشعر، كان من الشعراء المُجيدين. ومن جيد شعره قوله في الحث على حسن المعاشرة: (طويل)

أيا معشر الإخوان دعوةَ نادبٍ إلى الحق والمعروفِ ليْس بكاذبِ
أعيرونيَ الأسماع أهْدِ إليكمُ وصيَّةَ مُصْفي النصح غير مُخالبِ
فهذا أوان النصح وسَّطَ لجمُهُ لتوسيط لجم البيْنِ بين الأصاحبِ
فلا تنتجوا البغضاء بالمزْح بينكم بل استنتجوا بالدين ودَّ الأقاربِ
فكسر الأواني بالدفاع مروءةٌ يباين فضلا كسرَها بالتجاذبِ
ومن كان ذا لوح وهمٍّ وطاعة فلا يدْنُ للمسْتصبيَات الكواعبِ
فما أفسد الألواحَ والهمَّ والتقى كبيض التراقي مشرفات الحقائبِ
مِرَاضِ العيون النُّجْلِ حوِّ شفاهها رِقاقِ الثنايا حالكاتِ الذوائبِ
ومن كان منكم ذا وداد وخُلَّةٍ لمرتفعِ الأخلاق جمِّ المناقبِ
ليسْحبْ على عيْب الخليل ذيولَه ويسترْ فشأنُ الخِلِّ سَترُ المعايبِ
ولا يُنسِه قُبْحُ الطَّواري إذا أسا معاشروهُ حسنَ الخصال الذواهبِ
خليليَ لا أُبْدي إلى مَن يَذُمُّهُ طلاقةَ وجْهي بل عبوسةَ حاجبِ
أُحِبُّ الذي يهوى وأُبغض مَا قَلاَ ولستُ عليه إن يَزِلَّ بعاتبِ
إذا ما دعا يوما لصدْمة حادث ألمَّ عليه كنتُ أوَّلَ واثبِ
وليس بعادٍ عنه تهويلُ خَطْبِه وثوبي فإن الخِلَّ خِلُّ النوائبِ
ومِلَّة الإخوان فيها تفاضُلٌ فمنهم لديدُ الطبع عند المُصاحبِ
ومنهم زُعاقٌ لا تطاقُ طباعه مُعاشرهُ يرتاح إذ لم يُقاربِ
ومنهم فَجورٌ يظهر الودَّ كاذبا مذاهبه في الكذب فوق المذاهبِ
وكائنٌ ترى مَن تزدري وتظُنُّهُ لئيما إذا يُمناهُ هَطْلَى سحائبِ
ألا ربما كان الكريمُ بظاهرٍ لئيما له في البخل غوصةُ راسبِ
وما الناس إلا مثل ما قيل سابقا صناديقُ سُدّتْ فَتحُها في التجاربِ

ومن النماذج في مناقب الشيخ سيدي محمد ومناقب والده الشيخ سيدي قول محمدُّو بن مُحَمْدي العلوي من قصيدته الرائعة المعروفة: (كامل)

---

[1] الطمرّة: الفرس الجواد
[2] القربه: ج. قارب، اسم فاعل من قرّبَ الإبل سار بها في الليل لورد الغد.

قالت وكنتُ مِنَ الضلالة سائرا ... في ظل مُستَرخي السُّدولِ بَهيمِ
هَلاَّ اهتديتَ بنجم شيبك إذ بدا ... لكم اهتدى ذو حيرة بنجومِ
أو مَا كَبِرْتَ عن النسيب ألا ترى ... عنه العدولَ إلى امتداح كريمِ
بمحاسنٍ تنسيك ما للبيض من ... وجه أغرَّ الوجنتين وسيمِ
هذي محاسن من غدا بصفاته ... مستوجب الإجلال والتعظيمِ
مَن بالسيادة والمحامد وَسْمُه ... وَفْق اسمِه فالإسمُ كالموسومِ
نالت من الرُّتَبِ العَوالي كَفُّه ... ما لَمْ تكنْ لتنالَ كفُّ أَرِيمِ
ألفى المكارم قد هَدَّمَ رُكنَها ... فأقام ساقطَ رُكْنِها المهدومِ
خلَقَ الإلهُ بنانَه للبحث عن ... صعب العلوم وكسْبِ كلِّ عديمِ
ولسانه للكَفِّ إلاَّ مُدْمِنا ... لتعلُّم أو مُدمنَ التعليمِ
وجنانُه الماضي المنيرَ لفهم ما ... عنه قد اكْدَى فهْمُ كلِّ فهيمِ
وقصائدٍ ودَّ العذارى جعْلَها ... حلْيًا مكانَ اللؤلؤ المنظومِ
يا راكبًا يُدْنيه ساحةَ بابِه ... تَقْريبُ داميَةِ الأظَلِّ رَسُومِ
أبْشِرْ، فقد يَمَّمْتَ مَن مَن ينحُه ... يظفرْ بنيلِ مؤمَّل ومرومِ
إن سائلا يَمَّمْتَ بَحْر مواهب ... أو جاهلا يَمَّمْتَ بحرَ عُلومِ
أو مشتكٍ من ذي عداء مَظْلَمًا ... يَمَّمتَ رفْعَ شكاية المظلومِ
عَلِم المعارفَ والمعانيَ والمعا ... لِيَ من أبٍ لَبِهِ بهنّ عليمِ
شيخ هدى من ضل عن سنن الهدى ... حتى كسى الأنوار كلّ أثيمِ
عمَّ الأنام بهدْيِه وأمدَّهم ... كُلاًّ بفيض من نَداه عَميمِ
وردَتْ حِياضَ نَواله وعلومِه ... هِيمُ الوَرَى فشَفَى غليلَ الهيمِ
في كَفِّه رزقُ الأنامِ فكلُّهُم ... ساعٍ لموضع رزْقه المقسومِ
فترى البيوت أمامَهُ مملوءةً ... ما بين ناوٍ رحلةٍ ومُقيمِ
كُلاًّ بنسبة ما يحاول خصَّه ... من قُوتِ أفئدةٍ وقوتِ جُسومِ
لَمْ يَكْفِه المِئْرُ الكثيرُ لدى القِرَى ... كَلاًّ ورِسْلُ الكوم لَحْرَ الكومِ
فترى بساحته الدماءَ وفرْثَها ... ولَقَى العظامِ جديدةً ورميمِ
وترى القدور رواسيًا وترى الجفا ... نَ لَوامعًا بحواضر المطعومِ
مَن قاسَهُ بالأكرمين فإنه ... في الشأو قاس مُجَلِّيًا بلطيمِ
بل قاس مُلْتَطِمَ البحار بنطفة ... والروضَ غَضًّا ناضرا بهشيمِ
حدِّثْ ولا حرجٌ عن الشيخ الرِّضا ... أو دَعْ إذا حَدَّثْتَ بالمعلومِ

يـــا حبـــذا ذاك الكمـــال وحبَّـــذا ... جلـــبـاذُه مـــن زالـــر وخـــديمِ
وَلَحبَّـــذَا تلـــك القَعيـــــــدَةُ إنَّهـــا ... حليَـــتْ بـــدُرٍّ مِـــنَ حَـــلاَةَ يَتـــيمِ
نالـــت عظـــيم الحـــظ حـــين تعلقـــت ... بمنـــال حـــظ لا يُنـــالُ عظـــيمِ
قـــدْ أكملـــت خَلقًـــا وخُلْقًـــا واتمـــت ... لأُرُوم صـــدْق فـــوقَ كـــل أرومِ
عُـــدِمت نظائرُهـــا فواجـــد مـــن لهـــا ... شِـــبْهٌ لعمـــرُك واجـــدُ المعـــدومِ
إن كنـــت قـــد أخَّرتهـــا ذكـــرا فكـــم ... مـــن آخـــر في رُتْبـــةِ التقـــدمِ

وعَلاوةً على علم الشيخ سيدي محمد وصلاحه قد كان شاعر الأدباء وأديب الشعراء. ومن بديع شعره قوله: (كامل)

يـــا معـــشر البلغـــاء هـــل مـــن لوْذَعِـــي ... يُهْـــدى حِجَـــاهُ لمقـــصد لم يُبْـــدَعِ
إني هممـــت بـــأن أقـــول قـــصيدة ... بِـــكْرًا فأعيـــاني وجـــودُ المطْـــلَعِ
لكـــم اليـــد الطـــولى عليَّ إنَ الـــتمُ ... ألفيتمـــوه ببُقْعَـــةٍ أو مَوْضـــعِ
فاســـتعملوا النظـــر الـــسديد ومـــن يجـــد ... لي مـــا أحـــاول منكـــمُ فلْيـــصدعِ
وحـــدارِ مـــن خلْـــع العِـــذار علـــى الـــديا ... رِ وَوَقْـــفَةِ الـــزُّوَّار بـــيْن الأرْبُـــعِ
وإفاضـــةِ العـــبرات في عرصـــاتـــها ... وتـــردد الزفَـــرات بـــين الأضـــلُعِ
ودعـــوا الـــسوانح والبـــوارحَ واتركـــوا ... ذكـــرَ الحمامـــة والغـــراب الأبقـــعِ
وبكـــاءَ أصـــحاب الهـــوى يـــوم النـــوى ... والقَـــوْمُ بَـــيْن مُـــودِّعٍ ومُـــشَيِّعِ
وتجنبـــوا حبـــلَ الوصـــال وغـــادروا ... لَـــعْتَ الغـــزال أخـــي الـــدلالِ الأتلـــعِ
وسُرَى الخيال على الكـــلالِ لراكـــبِ الـــشِّـــ ... ـــمْلال بين الـــنـــازلين الـــهُـــجَّعِ
ودعـــوا الصَّحارَى والمَـــهـــارَى تغتلـي ... فيهـــا فَـــتَـــدْرَعُها بفُـــتْـــلِ الأذْرُعِ
وتواعُـــدَ الأحبـــاب أحقـــافَ اللِّـــوَى ... لـــيلاً وتـــشقيقَ الـــرِّدا والـــبُـــرْقُعِ
وتهاديَ النـــسوانِ بالأصـــلان في الْـــ ... ـــكُثبان من بين النَّـــقـــا والأجْـــرَعِ
والخيلَ تَـــمـــزَعُ في الأعِـــنَّـــة شُـــزَّبًـــا ... كَيْمَـــا تُـــفَـــزِّعُ رَبْرَبًـــا في بَلْقَـــعِ
والزهرَ والروضَ النضيرَ وعَـــرْفَـــهُ ... والـــبرقَ في غُـــرِّ الغَمـــام الهُمَّـــعِ
والقَيْنَـــةَ الـــشَّـــنْبَا تُجـــاذبُ مزهَـــرًا ... والقهـــوةَ الـــصَّهْبَـــا بكـــأس مُتْـــرعِ
وتَـــدَاعِيَ الأبطـــال في رهـــج القتـــا ... ل إلى النِّـــزَال بكـــل لَـــدْن مُـــشْرعِ
وتطـــارُدَ الفرســـان بالقـــضبان والْـــ ... ـــخرْصانِ بـــين مُـــجرَّدٍ ومُقَنَّـــعِ
وتـــذاكُرَ الخطبـــاء والـــشعراء للْـــ ... ـــأنـــساب والأحـــساب يـــومَ الْمَجْمَـــعِ
ومناقـــبَ الكرمـــاء والعلمـــاء والـــ ... ـــصلحاءِ أربـــابِ القلـــوب الخُـــشَّعِ
فجميـــع هـــذا قـــد تداولـــه الـــورى ... حـــتى غـــدا مـــا فيـــه موضـــع أصـــبعِ

والشعر ليس كما يقول المُدعي ... صَعْبُ المقادة مستدقُّ المَهْيَعِ
كم عَزَّ من قُحٍّ بليغ قبلنا ... أو من أديب حافظ كالأصمعي
هل غادرت (هل غادر الشعراءُ) في ... بحر القصيد لطامع من مطمعِ
والحول يَمكُثُه زُهيرٌ حُجَّةٌ ... أنّ القوافيَ لَسْنَ طوع الإمَّعِ
إن القريض مزلّةٌ مَن رامَهَا ... فهْو المكلَّفُ جْمَعَ ما لم يَجمعِ
إن يتبع القُدَمَا أعاد حديثَهم ... بعد الفشوّ وضل إن لم يتبعِ
والشعر للتطريب أولَ وضعه ... فلغير ذلك قبلنا لم يوضعِ
واليوم صار منكّدًا ووسيلة ... قد كان مقصدها انتفى لم تُشْرَعِ
وإليه ترتاح النفوس غلبّةً ... فيميلها طبعا بغير تَطَبُّعِ
يَنْساغُ للأذهان أوّلَ مرّة ... ويزيد حسنا ثانيا في المرجعِ
فيَخَال سبق السمع من لم يستمع ... ويعود سامعه كأن لم يسمعِ
كالروض يغدو السرحُ فيه ويَنثني ... عند الرواح كأنه لم يرتعِ
من كان مُسطاعا له فليأته ... وليقْن راحتَه امرؤٌ لم يَسْطعِ
والُجلُّ من شعراء أهل زماننا ... ما إن أرى في ذا له من مطمعِ

أما الشيخ سيدي الملقب (بابَ)، فقد استحالت الدلو في يده غربا ولم يُرَ في زمانه عبقريٌّ يَفْري فَرِيَهُ حتى ضرب الناسُ بعطنٍ[1]. ولقد كانت بينه وبين جدي، (والد الوالد: الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن حبيب الرحمن) صداقة خاصة تتمثل في تبادل الاحترام والتقدير والإعجاب والمناصحة.

ومن أمثلة ذلك أبيات الوالد الآتية بمناسبة نزاع أدْلَى أحدُ طرفيه بحجة عند (باب) ليحكم له بموجبها وقد علم الوالدُ عدَمَ لُهُوضِ تلك الحجة، وصاحبُ الحجة يُقال له إدريس، فقال الوالد مراسلا (باب): (بسيط)

أمّست إمامَ المعالي خيرَ مأمومِ ... لا زال وهْو إمامُ كلّ مأمومِ
منّا تحيّةُ راحٍ من مودتنا ... مزاجها شهْدُ إجلال وتعظيمِ
قد كان موجبَه منا التماسُ دُعًا ... يُقضي به الحاجُ من بادٍ ومكتومِ
وحكمِكم بصميم الحق حين به ... في أكثر الناس أضحى غيرَ مَحكومِ
يا من غدا عامرا دُورَ العدالة إذْ ... خلَتْ وأخلى ديارَ الجور واللُّومِ[2]
لا تومنن دون برهان بحجة إد ... ريسٍ فما كل إدريس بمعصومِ

ولقد كان (باب) صادعا بالدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ونبْذِ التعصب العَقَديِّ والمذهبيِّ. ومن

[1] هذا ربط ذهني بقوله صلى الله عليه وسلم: «أريت كأني واقف على قم بئر وبيدي دلو فنزعت بها ما شاء الله أن أنزع فتناولها ابن أبي قحافة فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يرحمه ثم وضعها فتناولها ابن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن»، ومعنى يفري فريه: يأتي بالعجب في عمله.

[2] اللوم: أصلها لؤم بالهمز فخففها، قال ابن بونه: "والهمز إن أفردته فحققه*أو خففنه بالذي قد سبقا"

أمثلة ذلك قوله في تصحيح العقيدة في أسماء الله تعالى وصفاته: (رجز)

مـــا أوهـــم التـــشبيـــهَ[1] في آيـــات ... في أحاديـــــث عـــــن الثقـــــات
فهْـــو صـــفاتٌ وُصـــف الـــرحمنُ ... بها وواجـــــــــب بهـــا الإيمـــانُ
ثم علـــــى ظاهرهـــــا لُبقيهـــــا ... ولحـــــذر التأويـــــلَ والتـــــشبيها
قـــضا بـــذا الثلاثـــةُ القـــرونُ ... والخـــير باتبـــاعهم مقـــرونُ
ومـــن تـــأوّل فقـــد تكلفـــا ... وغيرَ ما لـــــــــه به علمٌ قفا
وفي الـــذي هـــرب منـــه قـــد وقـــعْ ... وبعـــضهم عـــن قولـــه بـــه رجـــع
وقـــد نماه بعـــض أهـــل العلـــم ... مـــن الأكـــابر لحـــزبِ جَهْـــم

وهكذا قوله في القبض والرفع: (بسيط)

الْقـبض والرفـع ممـا صَـحَّ مِـنْ سُـنَنِ ... عن النبيِّ بـــــــــلا لسْخٍ ولا وهَنِ
فـلا تكـن يـا صـحيح العقـل متّبِـعًا ... آثـــارَ أشـــياءَ لم تُخلـــقْ ولم تكـــنِ

وقد ألّف في هذا المعنى كتابه المسمى (إرشاد المقلدين). ولقد كان من الشعراء المُجيدين ومن شعره قوله في يحظيه بن عبد الودود: (بسيط)

أحظـى الـذي جـل عـن شِـرْكٍ وتـشبيه ... بـــالعلم والأدب المختـــارِ يُحظيـــهِ
يرضـى بـه النـاس في أيـامه خلفـا ... مـن سيبويـه مـصافيه وشـانيه
يا رُبَّ جوهرِ علـــــــمٍ ظـل ينفقـه ... في ءاخـذين لـــه لم يُغمـــضوا فيـــهِ
يبدي عويصاته في الـــــدرس بيِّنَـةً ... كـــأن كـــل عـــويصٍ مـــن مباديـــهِ
كنـا لُرَجِّيـهِ مـذْ حِيـــــنٍ ونأمُلـه ... والحمـــد لله مُعطـــي مـــا لُرجِّيـــهِ

هذا ما أمكن إملاؤه في وقت يتنازعني فيه مختلف المشاغل. ومن المحتمل أن يقع في ما أمليت حذف و تقديم وتأخير لتشويش الذهن وضيق الوقت.

رحم الله السلف وبارك في الخلف.

أملاه أحمدُّو بن المرابط بن الشيخ أحمد

---

[1] قول الشيخ "ما أوهم التشبيه" لا يدل على أنه يعتقد أن آيات الصفات وأحاديثها توهم التشبيه بل قال ذلك على سبيل التسليم الجدلي للذين يدعون أنها توهم التشبيه، ودعواهم باطلة، لأن الله أخبر أن كتابه يهدي للتي هي أقوم، وأنه شفاء لما في الصدور، قال تعالى [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ] وقال تعالى [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ].

الشاعر والروائي/ أحمدو ولد عبد القادر

وإنمـــا المـــرءُ حديـــــثٌ بَعْـــدَهُ فكُنْ حَدِيـــثـــا حَســـنا لِمَـــنْ رَوَى

هكذا حكم ابن دُرَيْد على صيرورة وجود الفرد البشري حياةً وموتا وما يتركان من أصـــداء وذكريـــات تحسُن أو تسوء، تخفت أو تتألق بحسب ما قدر لصاحبها من توفيق وما انساق إليه من عمل واختيار.

وهكذا ورغم تتابع هذا الزمن المديد على رحيل الشيخ سيدي يبقى منارة كمال وعز تتوارثهـــا القلـــوب وتسلمها النفوس إلى النفوس، مآثرَ ومحامدَ عطرةً ومكونا بارزا في مخيال الشعب الموريتاني وذاكرته الجمعية الحية.

فلا غرو أن نرى اليوم هذه الجمهرة المهيبة من أصحاب الشأن العلمي والمعرفي مجتمعة على خلفيـــة هـــذه الذكرى مستجيبة لأصدائها ومستنيرة بإشعاعها لتضيف لأهل الفضل فضلهم وللتاريخ حقه في الإثبـــات ولرموزه وصالحيه ما استوجبوا من تقدير وتبجيل.

أيها الإخوة،

لقد اقترح علي أن أتحدث عن الشيخ سيدي شاعرا ومقصدا للشعراء وعن لغة الضاد في شـــعر الـــشيخ سيدي، وعن الشمولية والقوة في مدح ورثاء الشيخ سيدي. وهذه الموضوعات محيط زاخر الأمواج، سيما وأن الحديث عنها يتطلب تمهيدا وتأطيرا من سيرة الشيخ نفسه. وذلك محيط آخر أقوى أمواجا وأوســـع مدى، فتذكرت قول النِّفَري البصري رائد الرمزية عند المتصوفين المسلمين عنـــد مـــا قـــال في كتـــاب المخاطبات: *"إذا اتسعت النظرة ضاقت العبارة"*. وبكلمة أخرى: (وافر)

تَكَـــاثَرَتِ الظِّبَـــاءُ عَلَـــى خِـــدَاشٍ فما يَـــدْرِي خِـــدَاشٌ مَـــا يَصِـــيـــدُ

ولأن الوقت قصير وهذه الموضوعات تتطلب جهدا جماعيا ووقتا معتبرا قررت فقط أن أدلي بدلو عـــصفور في عِدِّ فيَّاضِ الجمام، يكتنفه أصحاب السِّجال الكبيرة من مؤرخينا وأساتذتنا.. فأكتفي بملاحظات عامـــة على صلة بجوانب من الموضوع، معتمدا في بعضها على مَروِياتي عن شيوخ محظرين يرْوُون عـــن الـــشيخ سيدي بواسطتين أو ثلاث، وأسُوق الوقائع بشكل سردي قصصي كعادتي مع بعض الشواهد الشعرية إلى ما تسير من استنتاجات:

الملاحظة الأولى: حول رحلة الشيخ في تحصيل العلم أو بناء الذات القطبية. ودامت تلك الرحلة حـــوالي أربعين سنة. وأرى أن مريد الشيخ المحب وشاعره المبدع وأستاذَنا الشيخ مُحمدّو بن حنبل قد اختـــصرها كثيرًا حين قال:

لَمَّـــا رَأَى أَنَّ الْـــمَعَالِيَ صَعْبَـــةٌ ... لاَ تَـسْـتَـقِـيدُ إِلَـى الـضَّعِيفِ الْـوَانِي

بَـسْـلٌ عَـلى مَنْ لاَ يُجَـشِّـمُ نَـفْسَهُ ... جَـمْـرَ الْغَـضَـى وَعَوَالِـيَ الْمُـرَّانِ

لَـصَبَ الرِّحَـالَ عَـلَـى رَوَاحِـلِ هِـمَّةٍ ... مَا شِـيبَ ذَالِـبُ سَـيْرِهَا بِـتَـوَانِ

عِـيسٍ أَحَـنَّ إِلَى الْهَـوَاجِرِ وَالسُّرَى ... مِـنْـهَا إِلَـى الأَعْـطَانِ وَالأَوْطَـانِ

يَحْدُو بِهَا حَـادِي الرَّجَـاءِ فَـتَـرْتَمِـي ... لَـصًّا يَـدُقُّ مَـنَـاكِبَ الـصُّـوَّانِ

مَازَالَ يُقْـحِمُـهَا الْـمَفَـاوِزَ مَـاضِيًا ... كَـالْـعَضْـبِ يَـوْمَ تَـصَاوُلِ الأَقْـرَانِ

حَتَّـى أَنَـاخَ إِلَـى خِـضَمٍّ خِـضْرِمٍ ... رَحْـبِ الـشَّـرَائِـعِ وَاسِـعِ الأَعْـطَانِ

طَـامِي الْقَـوَارِبِ قَـاذِفٍ أَرْجَـاؤُه ... بِالـدُّرِّ وَالْيَـاقُوتِ وَالْـمَـرْجَـانِ

فَـسَقَـاهُ كَـأْسَ الْمَالِكِيَّـةِ مُزِّجَـتْ ... بِـالْـقَـادِرِيَّةِ سِـرُّهُ الْـمُـصْطَانِ

فَأَتَـيْـتَ إِذْ جَـارَيْـتَ فِـي مَيْدَانِـهَا ... حَلَبَاتِهَـا مُـسْـتَـوْلِيَ الْـمَيْـدَانِ

مُـتَـوَدِّدًا فِـي مِثْـلِ هَيْبَـةِ ضَـيْغَمٍ ... مُتَوَاضِـعًا فِي زِيِّ ذِي سُـلْطَانِ

وفعلا كان الشيخ سيدي المختار قطبَ الطريقة القادرية وعالم العلماء وصاحب المكارم والخوارق العجيبة وقد عايشه الشيخ سيدي وحضرته الغراء وخليفته الأغرّ ردحا مديدا من الزمن. ويروى عنه أنه قال: *«عند ما وصلت إلى الحضرة المختارية أحسست أني في بداية تحصيل العلم والمعرفة...»*.

ولكن لإنصاف الحقيقة والتاريخ فإن رحلة الشيخ سيدي لبناء الذات دارت من حيث الأساسُ في مثلث زماني ومكاني معروف:

تبدأ نقطة زاويته الأولى من التلمذة والتخرج على يد العلامة حرمه بن عبد الجليل. وما أدراك ما حرمه؟ أسمع به وأبصر! كان المتصدرون من محظرته يعتبرون قد وصلوا إلى القمة وكَفَى.

أما نقطة زاوية المثلث الثانية فموقعها مدينة تيشيت، التي كانت جوهرة مدائن القوافل الصحراوية ومحطة "اترازيت" وملتقاها قادمة من الجنوب أو الشمال وقد تراكمت لدى بيوتاتها العلمية كميات هائلة من المكتبات العميقة العاجّة بما لا يوجد خارجها كَمًّا ونوعا. حط الشيخ سيدي عصا التّسْيار حيث جال وصال يعُبُّ الكتب عَبًّا ويلتهمها التهاما. أذكر الآن أنني عندما كنت مشتغلا ضمن بعثات إحصاء المخطوطات الموريتانية في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن الماضي كان الشيخ داداه بن أيده المسلمي أطال الله بقاءه، يساعدنا في التعامل مع مكتبات تيشيت، وكان يلفت انتباهي من كتاب إلى كتاب ومن صفحة إلى أخرى مشيرا إلى الملاحظات والتصحيحات والتخريجات بقلم الشيخ سيدي في هوامشها. وكان يضيف قوله: *«يبدو أن الشيخ سيدي قام بإحصاء المكتبات قبلكم.. فلعلكم لم تجدوا نسخة من الإحصاء أو لعله لم يثبتها كتابة»*.

أما المحطة الثالثة كما رأينا فهي الحضرة الكنتية ولا ينقص من فضلها على الشيخ سيديّ ما للسابقتين من

أهمية وحيوية في بناء الشخصية المتميزة.

الملاحظة الثانية: التأسيس والانبهار. عاد الشيخ سيدي من رحلته إلى ذويه في بوتلميت وآوكار.. وسرعان ما ارتفعت فوقه هالة النصر وأبّهة العز وارتفع برج مجده بسرعةٍ وعفوية القدَر المقدور. وطار صيته في الأصقاع قريبها وبعيدها وانبهر الناس واردين وصادرين وأحسوا أن مرجعية جديدة للفضل تفرض سلطانها على قلوبهم. واستوى في ذلك الشعراء المادحون والأمراء الحاكمون والأغنياء والفقراء والعلماء والمتعلمون والمتسلطون وضحايا الظلم. وسرعان ما اتفق الشعراء الفطاحلة على تسمية الشيخ سيدي بلقب الكمال:

يَـــا حَبَّـــذَا ذَاكَ الْكَمَـــالُ وَحَـــبَّذَا ... جُـلَـسَـاؤُهُ مِـــنْ زَائِـرٍ وَمُقِـــيمِ

محمدُّ بن محمدي العلـــــوي" (كامل)

وَقَافِيَـةٍ بَـذَلْـتُ الْـوُسْـعَ فِـيهَا ... لِـتَـصْلُـحَ أَنْ تُـزَفَّ إِلَـى الْكَمَـالِ

"محمذن بن السالم الحســـني" (وافر)

هَـــذَا وَبَـــارَكَ فِـــي الْكَمَـــالِ إِلَـــهُهُ ... وَلَـــى عليْـهِ عَـــوَاطِـــفَ الـــرِّضْوَانِ

"الشيخ محمدُّ بن حنبل الحسني" (كامل)

لَاجَيْتُ فِكْرِي وَقَـدْ أَمْعَنْـتُ مِـن نَـظَرِي ... ثُـمَّ اسْتَمَـرَّ بِـيَ الرَّأْيُ الَّـذِي اكْتَسَبَهْ

أَنْ يَـمَّمَـتْ شَـرَفَ الـدِّيـنِ الْكَمَالَ بِـنَا ... عَـلْـيَاءُ تَعْـتَسِفُ الْآكَـامَ وَالْهَـضَبَهْ

"سيدي عبد الله بن أحمد دامْ الحسني" (بسيط)

وجمع هذه الأمثلة من الشعر يتطلب بحثا بيبليوغرافيا طويل المدى.

وإذا أراد أي باحث الكلام عن أسباب طلوع نجم الشيخ سيدي وظهوره الغامر، فستتراءى لـه – بعـد مثلث المسيرة – ملامح مثلث آخر واضح الخطوط، شكل نقاط ارتكاز هذه الشخصية الظـاهرة مهابـة وتأثيرا في الناس.. ألا وهو: أولا النبوغ الاستثنائي في الميدان العلمي والمعرفي وثانيا الـصلاح التمكـيني وثالثا التسامي في مكارم الأخلاق.

فيما يعني نقطة العلم، فخير مُعبِّر عنها هو المسيرة المذكورة نفسها ولها مكانها المتنوع في محاضـرات هـذا الملتقى.

أما الصلاح التمكيني، فقد ثبت عن الشيخ سيدي – بغض النظر عما يحيكه الخيال الشعبي والفكر العامي من أساطير حول العظماء – أنه في أحداث عديدة موثقة قد تصادفت همّته مع إرادة القدر الإلهي بمناسبات عجيبة. قال أحمد بن الأمين صاحب كتاب الوسيط في ترجمته لهذا الشيخ متحدثا عن قدومه إلى مـراكش:

فلم تزل فضائله تبدو حتى أذعنت له الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يُعقّبُ أمره وكان أهلا لذلك.. وحدثني الفاضل عبد الرحمن الجزولي المعروف في مراكش بابن التلمود ـــ وكان أبوه كاتبا للمولى عبد الرحمن ـــ أنه لما قدم مراكش وجد المولى سيدي محمد بن المولى عبد الرحمن الكن لا يبين كلاما فتفل في فمه فانطلق بالكلام". انتهى الاستشهاد.

وفيما يعني النقطة الثالثة من أسباب الظهور، وهي التسامي في مكارم الأخلاق، فأرى أن هذه كانت بيتَ القصيد وربعَ عزّةَ والعاملَ الحاسم في تألق شخصية الشيخ سيدي. فبالإضافة إلى مسلكه المعروف في التقي والعفة والورع، فإن شيم الكرم وروح النجدة والحلم والسماحة لا مناص من أن يكون لها مفعولها السحري في عقول أبناء الصحراء، خاصة إذا كانت قليلة المصادر يطبعها التسيب وتنتابها فترات القحط والمجاعات ويفتقر أهلها إلى الأمان الدائم على دمائهم وأموالهم وأعراضهم... وفجأة نزل بينهم هذا الغوث نزول الغيث فهابه أهل الشوكة وتَمَسْرَسَ به الضعفاء وأعطى لعادات الضيافة والبذل مفهوم الإنفاق العام. يقول محمدُّو بن محمدي شاهدا على ذلك: (كامل)

وردَتْ حِياضَ نَوَالِهِ وعُلومِهِ ... هيمُ الورى فشَفَى غليلَ الهيمِ
في كفّهِ رزقُ الأنامِ فكلُّهم ... ساعٍ لموضعِ رزقِهِ المقسومِ
فترى البيوتَ أمامَهُ مملوءةً ... ما بين ناوٍ رحلةٍ ومُقيمِ
كُلاًّ بنسبة ما يحاول خصَّه ... من قوتِ أفئدةٍ وقوتِ جُسومِ
لم يَكْفِهِ المِيْرُ الكثيرُ لدَى القِرَى ... كَلاَّ ورِسْلُ الكُومِ لَحْرَ الكُومِ
فترى بساحته الدماءَ وفرثها ... ولَقَى العظامِ جديدةً ورَميمِ
وترى القدور رَوَاسِيًا وتَرَى الجفَا ... نَ لَوَامِعًا بِحَوَاضِرِ المَطْعُومِ
مَنْ قاسَهُ بالأكرمين فإنه ... في الشأوِ قاسَ مُجَلِّيًا بِلَطيمِ
بل قاسَ مُلْتَطِمَ البحارِ بنطفةٍ ... والروضَ غَضًّا ناضِرًا بهشيمِ
حدِّثْ ولا حرجٌ عن الشيخ الرِّضا ... أو دَعْ إذا حَدَّثْتَ بالمعلومِ
يا حَبَّذا ذاك الكمالُ وحبَّذا ... جُلَّاؤُه من زائرٍ وخديمِ

ويقول سيدي عبد الله بن أحمد دامْ الحسني: (بسيط)

أشَدُّ عِندَ تَمَادِي أزْمَةٍ فَرَحًا ... بالمُعْتفينَ مِنَ العُفَاةِ بِمَا كَسَبَهْ
حَارَتْ أُناسٌ بِجَدْوَى حَاتِمٍ وَلقَدْ ... لَرَى سَخاءً كَمالَ الدِّينِ قَدْ غَلَبَهْ

وإذا تحفظنا على أحكام الشعر وأخيلته وتجاوزنا الروايات الشعبية ذات النفس الأسطوري، فقد يتبين لنا أن الشيخ سيدي قام في عام من أعوام القحط بتنظيم أول خطة إسعاف مستعجلة واسعة لصالح المهددين بالهلاك جراء المجاعة؛ حيث أرسل الكثير والكثير من الركبان المجهزين بالمؤن لاستقبال اللاجئين في أطراف

"آوْكارْ" مما يلي منطقة "الساحل". .وقد أشار الشاعر محمذن بن السالم إلى ذلك في قوله: (وافر)

لِمُعْتَـــرٍّ وَجَـــارٍ وَابْـــنِ عَـــمٍّ ... وَأَرْمَـــلَـــةٍ تَـــوَاكَـــلَـــهَا الْمَـــوَالِي
وَعَـرْجَـلَـــــةً مِنَ الغـرَبَاءِ شُـعْثٍ ... مِـــنَ الـــــلأْوَاءِ تَـــجْـــأَرُ كَالـــسَّعَالِي
جَمَعْتَ عَلى مُكَـــــلَّـــلَـــةٍ رَدَاحٍ ... كَجَابِيَةِ الْمُخَـــــــوَّلِ وَفْـــرَ مَـــالِ
وَمَلْـهُـــوفٍ أَغَـثْـــتَ وَذِي عِيَـــالٍ ... جَعَلْتَ عِـيَالَـــــهُ أَحْـظَـى عِيَـالِ
وَعَـــانٍ قَـــدْ فَكَكْـــتَ وَمُسْتَـــضِيفٍ ... حَـضَأْتَ لَـهُ الزَّخِـــيخَ عَلـى التِّـلَالِ
لَقَـــدْ أَرْخَـــصْتَ فِي طَـلَـــبِ الغَـــوَالِي ... وَفِي كَـــسْبِ الْمَثُـــوبَةِ كُـــلَّ غَـــالِ

والأمثلة على سماحة الشيخ سيدي وكرمه الفياض وسَعة آفاق تفكيره تطول وتطول والـشواهد عليهـا تضاهيها وتواكبها على امتدادها.

ولنختصر على نموذج التقاضي عليه حيث كان يسهل التراضي بين المتنازعين بأن يمنح أحد الخـصمين أو كليهما ما يضمن له جبر الضرر وحسم الدعوى. ومن ذلك قصة الزوجين الذين اشتد بهما الخصام عنـده فسأل الشيخ عما لديهما من الكسب، فقيل له إنه مقدار كذا وكذا من الغنم وغيرها من الأشـياء إلا أن ملكيتها عائدة إلى أحد الخصمين دون الآخر، فأمر الشيخ أن يُمنح المعدم منهما مقدار ما يملـك الآخـر. وتراضَـيَا بعد ما تم بينهما هذا التوازن.

وقدم له الشعراء التهاني والقصائد الرنانة عندما تحمل ديات مغلظة في حالات استعصى أمرها مقارنين إياه بهَرِم ابن سِنان لمّا أطفأ حرب الرهان بين بطون فزارة بكرمه. وفعلا كان الشيخ قد نجح في حقـن الـدماء ودرء الحروب بين بعض العشائر بتحمل تلك الديات المذكورة.

والحاصل أن مكارم الشيخ وأخلاقه وهمّته ظلت تثابر جاهدة لمحاولة سد الثغرات الغائرة في جسم مجتمـع سائب مفتقر إلى السلطة والرعاية الاجتماعية.

لقد تطرقنا إلى المفاصل الرئيسية في تكوين مسالك الشيخ الاستثنائية مع التغاضي عن جوانب أخرى هامة من سيرته وحياته. فقد كان مثلا ــ كما يعي الجميع ــ لا يُشق له غبـار في الأدب والبلاغـة والـشعر خاصة. وما بالكم بمن يشهد له سدنة الشعر، من أمثال محمدُّو بن محمدي، بأنه يتحـف ريـاض الـشعر: (كامل)

بِقَـــصَائِدٍ وَدَّ الْعَـــذَارَى جَـــعْـــلَهَا ... حَـلْـــيًا مَكَـــانَ اللُّؤْلُـــؤِ الـمَـنْـظُـــومِ

لقد أدركت في صغري مشايخ محضريين يروون بإسناد متصل عن الشيخ محمدّو بن حنبل مثل الشيخ أحمد عبد الكافي ولد يكبر، يقولون: *"إن أساتذتهم متفقون على أن الشيخ سيدي هو حائز قـصب الـسبق في الشعر العربي بين معاصريه بلا منازع ولكنه، لحسن حظه وسبوغ فضله، لم تقع سمعته ولا صـيته ضـحية*

لشعره كما جرى لشبله المدرب الشيخ سيدي محمد والكثيرين غيره مثل الشيخ بن حنبل".

الملاحظة الثالثة: حول واجباتنا تجاه أعلام تاريخنا ورموزه. يتعلق الأمر أولا بأحفاد الشيخ سيدي وأسباطه وجميع أهله بأن يعملوا على رفع المستوى المادي المنظور لزاوية الشيخ سيدي، أن يكون لها عنوان عمراني بارز ومعروف يليق بأبهة الشيخ ومكانته التاريخية وأن يجمعوا جميع آثاره لكي لا تبقى مشتتة بين فروع الأسرة الكريمة، ذلك ما يسهل مهمة البحث للباحثين ويقدم تراث الشيخ بحجمه الحقيقي. لقد شاء القدر أن لا يبقى معهد بوتلميت تابعا لزاوية آل الشيخ سيدي ولكن هذا لا يمنع إنشاء معهد أو معاهد أخرى بديلة.

ويعني الأمر ثانيا أساتذة التاريخ والمؤرخين المناط بهم تثمين التاريخ الوطني وأعلامه ورموزه. والمراد منهم أن يكتبوا عن الشيخ سيدي بما هو أهل له بدون زيد أو نقصان. فلا نريد إدراج التهويلات الشعبية في مادة التاريخ بل آراء وأحكاما علمية تنبذ الأحكام المسبقة وتجافي الأمزجة ذات اللوثة القبلية أو الجهوية والمذهبية.

ويتعلق الأمر ثالثا بوزارات الثقافة والتهذيب والوزارة المكلفة بالمحاضر لكي تضاعف – في نطاق برامجها وسياساتها القطاعية – كلما من شأنه الاحتفاء بأعلامنا السالفين وإعلاء ذكرهم بما يخدم إبراز هويتنا الثقافية المعرفية وإشعاعها الخارجي.

وبعدُ، فلا أحد ينفي أن المؤرخين متفقون على أن أشنع وأقسى آفة قاستها هذه الأرض: (بلاد الملثمين، الأنباط، شنقيط، الأرض السائبة...) هي التسيب وانعدام المرجعية العامة. ومن هنا يكون الفضل والريادة للشيخ سيدي في توجيه همّته القوية وجاذبيته الخلاّقة إلى إشاعة التعامل بالحسنى بين الناس. وتلك كانت همومه وتأثيراته الإيجابية في مناطق واسعة من البلاد حتى لا أقول جميعها وكدت أقول. وهي نفس الهموم والتوجهات التي عكستها روائع شبله النجيب الداعية إلى الجهاد وإلى ردع أطماع المستعمرين وإيقاف التسيب في آن واحد. وهي بالتسلسل نفس الهموم لدى الشيخ سيدي الحفيد (باب) الذي ناضل وجدَّ واجتهد ولم يكن ذلك بمعزل عن فتواه بقبول الحماية الاستعمارية..

ولا أريد هنا إعادة فتح المناظرات التي احتدت بين أصحاب الموقف المبدئي الجهادي ضد آراء الفقهاء الأصوليين المستندين إلى المقاصد الشرعية وعلاقتها بمنافع الناس.. وإنما لأقول إن دائرة الشيخ حملت أشعتها بواكير النور في مواجهة ظلمات التسيب. وحتى الدولة الموريتانية التي نعيش الآن في ظلها بأمان انطلقت فكرتها أول أمرها من المحيط الاجتماعي القريب من الشيخ سيدي.

الشيخ سيديّ.. الخلفية التاريخية

محمد ولد مولود ولد دادّاه

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على رسوله والسلام[1].

إن الرغبة الصادقة الداعية إلى التنويه بمآثر أبناء هذه البلاد، هي التي أتاحت لنا مناسبة الملتقى النوافر الحضور، المنعقد منذ أمس. وتلك مبادرة تستحق الإشادة وتقديم جزيل الشكر عليها إلى أولئك الذين سعوا وأفلحوا في إنجازها. وحبّذا لو أصبحت فاتحة سنة لإحياء ذكرى من رفعوا اسم بلاد شنكيطي[2] عاليا في ميدان المعارف الإسلامية والعربية وفي مجال التصوف والنشاط الروحي. وبلاد شنكيطي – وسيتكرّر ذكرها – هي، كما تدركون، ذلك القطر الذي كان مهد حركة المرابطين والذي انتشرت فيه اللهجة العربية الحسانية. ويشمل أراضي الجمهورية الإسلامية الموريتانية ونواحي أخرى تخضع لسيادة دول مجاورة. أنجب هذا الإقليم زمرة من العلماء والمتصوفة العارفين على مدى القرون الخمسة الأخيرة، مما أحله مكانة لها شأن في محيط المعرفة. وعن أحد هؤلاء النوابغ، ألا وهو الشيخ سِيدِيّ وأسرته، يجري حديث المنتدى الحالي. نعم لم يكن يُنتظر من أهالي قطر قَصِيّ، فرضت أوضاعه المناخية على قاطنيه حياة الظواعن والنظام العشائري البدائي: أجل لم يكن يُنتظر منهم إسهام ذو بال في إثراء المعارف. وجاءت المفاجأة بتغلب هذا الشعب على التحدي الذي رمته به الأقدار. فأصبح المجموعة الفريدة من بين الرُحَّلِ التي احتضنت تقاليد ثقافية مكتوبة أكسبته شخصية متميزة تضاهي النظائر التي عاصرتها في سائر أرجاء العالم الإسلامي.

قد تحدث مقدمو الأبحاث عن جوانب شخصية الشيخ سيديّ المتعددة وعن أسرته. وقد حصلت الإفادة فلا داعي لتكرار ما مرّ بمسامعكم. وإنما يحاول العرض التالي استكمال الصورة بإلقاء بعض الأضواء على المسار الاجتماعي الثقافي، خلالَ الخلفية التاريخية الطويلة الأمد، التي كان من ثمارها مجتمع أنجب رجالاً من أمثال الشيخ سيديّ. وبذلك يتّضح ارتباط أدوار ماضي هذه الديار بعضها ببعض.

تأسست بنية المجتمع الذي أقام لهذه البلاد مكوّنات شخصيتها على مراحل يتراءى لمتتبّعها حصر أبرز الأحداث التي شهدتها في الأدوار التالية: بدء التبشير بالإسلام، ثم حركة المرابطين، وتاليا انتشار اللسان العربي.

استهلّت البلاد طريقها تحت أنوار أضخم معالم التاريخ. فقد وصلت طلائع الفتح العربي الإسلامي إلى الطرف الشمالي مما سيدعى لاحقا باسم بلاد شنكيطي. حدث ذلك على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك

---

[1] ـ ملاحظة: لم يكن هذا البحث معدا في برنامج المنتدى. وعلاوة على ذلك فقد القطع إلقاؤه من جراء بعض المشاكل الفنية.

[2] ـ تكتب شنكيطي بياء في آخرها تفاديا لإسكان الطاء عند انعدام شكلها بالكسرة.

وولاية عبيد الله بن الحبحاب لإفريقية (116 – 123هـ/734 – 741م). كان أول من اتصل بـه الغزاة هنالك قبائل من صنهاجة "أولي الضفائر"، "الملتزمين للّثام" كما نعتتهم أقدم الروايات الـتي دوّنهـا الأخباريون ومؤلفو المسالك والممالك. وقد اخترقت إحدى الحملات ، تلك الأيام ، الصحراء حتى بلغت مصب "النيل" [نهر السينكال] في المحيط. وهكذا سجّلت صفحات التاريخ، لأول مرة، ظهور هذه البلاد، علماً بخلوّ الأدبيات اليونانية – اللطينية من ذكرها في الفترة السابقة. تسربت بواكير الدعوة الإسلامية من الأقطار التي أصبحت تَضُمُّها دار الإسلام إلى ما وراءها من الصحراء. وسيكون الفضل في بـث تعـاليم الرسالة المحمدية من نصيب التجار المسلمين المتردّدين، عَبْرَ مجالات صنهاجة، بين الشمال الإفريقي وبـلاد السودان الغربي.

يلي هذا الدور في الأهمية قيامُ حركة المـرابطين قبـل ألـف مـضت مـن الأعـوام، حـوالي سـنة 420هـ/1029م. وقد رافق نشأةَ المرابطين اعتناقُ مجاوريهم، أهالي سِلّى وتكرور، للإسلام فكانوا لهم عونا وظهيرا على مجابهة الأزمات التي عصفت بدعوتهم في مراحلها الأولى وأوشكت القضاء عليها. حفظ لنا هذا النبأ الهام نص من رسائل أبي محمد علي بن أحمد بن حزم (توفي سنة 456 هـ/1063م)[1]. خلّف المرابطون في مجتمعنا سمات لا تزال تميّزه عن مثيلاته. ولم تع الذاكرة من هذا الحدث الجسيم إلا ما حـاك الخيال الشعبي من مأثورات جاءت مخالفة للواقع التاريخي إذ أتت به مقلوبا رأسا على عقب، حيث جعلت المرابطين جماعة من الغزاة يهجمون على مهدهم. وإطناباً في الغرابة عزت إليهم تأسيس مجتمع مراتبي يتألّف من شرائح حملة السلاح والمنقطعين إلى العلم وشؤون الدين وأتباع أُسند إليهم تـأمين وسـائل العـيش للطائفتين! وغني عن البيان أن المجتمع المتمثّل في هذه الفئات كان وليد تأثيرات وصراعات تطلبت قرونـا لتبرز إلى حيز الوجود. وفيما يخص "الزوايا" ــ وهو جمع "مرابط" من غير لفظه في اللهجة ــ كظاهرة فقد كان إطلالهم على مسرح الواقع الاجتماعي نتيجة مسيرة بطيئة. فاسم المرابطين ظل طيلة عـصور يطلـق على أعقاب المنتسبين إلى الدعوة التي نادى بها عبد الله بن ياسين. وكانوا في جملتهم محاربين حملة سلاح ولا علاقة لهم بما أصبح سمة "للطلبة"، كالتخلي عن حمل السلاح والتخصص بشؤون الدين وبما يدعى "الهيمنة على المغيّبات". اتّجهت الحركة شطر الشمال وأقامت هناك الدولة التي تكفّلت مدوّنات التاريخ والأبحاث العصرية في شتى اللغات الإشادة بأعمالها. وجرّت في صفوفها حشودا مـن بـني جلـدة القـائمين بهـا ستستوعبهم الأقطار المفتوحة. ويبدو أنهم قد أهملوا جناحهم المتبقّي في مهدهم.

ختم هذا المسلسل طروق ذوي حسان أطراف البلاد. ففي السنوات التي اشتدّ فيهـا سـاعد المـرابطين وشرعوا في الاستيلاء على المغرب نجم من ناحية المشرق حدث سيكون له شأن في مصائر الـبلاد. كـان ذلك "تغريبة" هلال وسليم ترافقهم طوائف من الأعراب من بينها معقل الذين ينتمي إليهم ذوو حـسان. وبعدما يربو على قرنين وردت أقدم إشارة إلى اسمهم مقروناً باسم الساقية الحمراء (أواسط القرن الـسابع

[1] - ابن حزم، جوامع السيرة ورسائل أخرى، القاهرة، دار المعارف، د.ت. (1376هـ/1956م)، ص350.

الهجري/الثالث عشر الميلادي). وتقضي قاعدةٌ مطّردة على قبيل الظواعن الذي تطأ أقدامه منطقة الساقية متابعةً سيره نحو الجنوب – من جرّاء سوء الحظ في الحروب أو على أثر التغيّرات المناخية – حتى تنشب في أظفاره يوما ما أشواك "إينيتي"، ذلك العشب النامي في القطاع المداري اللاصق بجنوب الصحراء. انتشرت طوائف هؤلاء الأعراب على مراحل في أرجاء البلاد برمتها قبل نهاية القرن 9هـ/15م. وبذلك استكمل القطر عناصر سكانه. وحلت لهجتهم الحسانية محل اللهجات الصنهاجية (كلام ازناكة) في طول "تراب البيضان" وعرضها. فغدا اكتساب الدُّربة على إتقان الفصحى واستخدامها أيسر من ذي قبل. وتدرك أبعاد هذا التحول الثقافي إذا ما عارضنا أسلوب مؤلفات علماء السوس وأدبائه، وما كتب فقهاء التوارك، بالدرجة العالية من تملك أمثالهم لدينا ناصية اللغة ومرونة الأداء بها، مما يتجلى في إبداع أدب عربي صميم، احتلّ مكانة مرموقة بين آداب هذه اللغة.

هكذا تمّ خلال هذه القرون التلاحم بين السابقين في الاستيطان والطارئين عليهم كما نفذت تعاليم الإسلام إلى أعماق القلوب وصبغت تنظيمات المجتمع وقِيَمَهُ بمتطلّباتها. أتاح التطور الذي عاشته الجماعات نشأة المعارف المتداولة من علوم الدين والثقافة العربية ورسوخها. وقد سار هذا النشاط جنبا إلى جنب مع التيار الصوفي الذي أخذ شكل الطرق تجاوبا مع أذواق الجمهور. وذلك ما دعاه بعض الباحثين بظاهرة "التمربط". ومن أوضح الأمثلة على المنحى الذي اتجه إليه التصوف أثناء القرنين التاسع والعاشر للهجرة / الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، انتشار شهرة "مرابطي الساقية الحمراء" (وهو اسم أُطلق آنذاك على بلادنا ولم يكتب له البقاء). وتنتمي إلى هؤلاء "المرابطين" عدة عشائر في قطرنا، كما خلفوا أعقابا – أو من يدّعي ذلك – وصيتا على طول طريق الحج من السوس إلى طرابلس الغرب. كان دور هؤلاء "المرابطين الجدد" بمثابة إسهام بلادنا في الحركة الواسعة التي شملت بلدان المغرب الإسلامي ووجهت مصيرها الروحي والاجتماعي إلى أن تدخل الاستعمار الأوربي في القرن 13هـ/19م. وكذلك نستطيع اعتبار هذا الدور بمثابة إرهاصات لما سيقوم به علماء ومتصوفة بلدنا في حقبة تالية.

لا تتوفر معطيات يمكن على ضوئها تتبع مراحل سير الحياة الثقافية على طول الخطين: علوم الظاهر والتصوف. ونعثر بالصدفة على اسم مريد شنكيطي أخذ عن الشيخ أحمد زروق ، أحد أقطاب الشاذلية (846 – 899 هـ/1444 – 1493م). ولدينا إشارات إلى فقهاء عاشوا في ولاته ووادان تعود إلى القرن 10هـ/16م ونلمس، على ما يتراءى لنا، درجة من الاكتفاء بلغتها البلاد في مجال العلوم المتداولة. فاستغنى بذلك طلبة العلم عن الرحلة إلى شيوخ الأمصار الإسلامية – ومنها تنبكتو – إذ أصبحوا يجدون محلّيا من تتوفّر فيهم أهلية الأخذ عنهم. تدل الإجازات التي درج علماء بلدنا على منحها تلاميذَهم إلى ذلك النضوج، إذ تحتوي ابتداء على أسماءِ محليّين قبل أن تصعد الرواية إلى رجال السند من مغاربة ومصريين ومجاوري الحرمين الذين كانت الرحلة إليهم.

آلت التأثيرات التي ضمنت رحلاتُ الحج وطلبِ العلم استمرارَ ورودها، أكلها. فلم يُطلّ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، حتى أخذ نبوغ جلة من العلماء ورجال التصوف يتوالى في مختلف أنحاء البلاد. ومن بينهم مشاهير يعتبرون من مفاخر بلاد شنكيطي. وقد احتوى كتاب فتح الشكور على تراجم العديد منهم.

****

آلت المسيرة التي أفضنا إليها إلى نبوغ أجيال من رجال العلم والتصوف يُعدون رموز درجة النضوج الفكري التي وصل إليها قطر شنكيطي. وقد تركوا أثرا عميقا في محيط المعرفة والتصوف. ولا يسع المقام تعدادهم، وسنجتزأ بذكر بعض أعلامهم ممن عاشوا في القرنين 12و13هـ/18و19م، وذلك لصلتهم بالجو الثقافي الذي كان من نتاجه شخصية الشيخ سيديّ. فهذا المختار بن بونا الجكني، مؤسس مدرسة المعارف العربية والإسلامية التي لا زالت التقاليد المتبعة في "المحاضر" تتقيد بها. ومن أبرز تلاميذه حرمة بن عبد الجليل العلوي، وعليه درس الشيخ سيديّ. وهذا سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي. وقد حرص الشيخ سيديّ على لقائه. ثم الشيخ سيدي المختار الكنتي، زعيم الطائفة الصوفية المستندة إلى درجة عالية من علوم الظاهر، ويتلوه ابنه الشيخ سيدي محمد، شيخ الشيخ سيديّ. وإلى جيل معاصر ينتمي الشيخ محمد الحافظ العلوي الذي دخلت الطريقة التيجانية هذه الأقطار على يديه.

لعل تلاقي تيارات الينابيع الروحية والمعرفية التي مر بها خاطفا العرضُ السابق تساعد على فهم أبعاد العمق الثقافي الاجتماعي الذي نشأ فيه الشيخ سيديّ بن المختار بن الهيبة الأبيريُّ (حدود 1190 – سلخ ذي الحجة 1284هـ/1776 – 23ابريل 1868). ولا نعيد الحديث عن تفاصيل حياته فقد مر التنبيه إلى عدم الحاجة لذلك، لكن هناك جانب من جوانب هذه الشخصية الفذة من المفيد الإلمام به لما له من علاقة بالدور الذي لعبه في مجتمع عصره. فقد لمع الشيخ سيديّ كعالم واسع الباع وكصوفي عميق الإدراكات، تشهد على ذلك آثار قلمه الوافرة وشمولها. وقد استوعب تكوينه حصيلة التيارات التي سلف الحديث عنها، والتالت عليه جموع من طلبة العلم والمريدين الراغبين في سلوك "طريق القوم"، فحملوا عنه العلم الجم وتروّضوا بتربيته اليقظة التي أحيت قلوبا ووجهت خلائق.

وإلى جانب ما تحلّى به الشيخ سيديّ من المواهب العلمية والروحية برز منه رجل صلب المُنّة ماضي العزم وثّاب الهمة، بهر العديد من معاصريه ليس فقط بما جرى على يديه من خوارق وكرامات كان المجتمع مستعدّاً لتقبُّلها، بل بالرأي الصائب وحصافة العقل. أهّلته تلك الخلال احتلالَ درجة من الزعامة لم يُتح إلا لنفر قليل من رجال العلم والدين بلوغها في هذه الأقطار. وتبرهن نشاطات الشيخ التي يقوم شاهدا عليها وفرة رسائله وفتاويه في المجال الديني والسياسي على الهمة العالية والسعي فيما يراه صالحا على امتداد عمره ـــ ما وسعه الأمر – فقد تدخل في شؤون القبائل وتوسط بين هؤلاء وأولئك، ولم يجُرّه اتّساع نفوذه

إلى النداء بإحدى تلك الحركات التي طالما أغرت الكثير من رجال الدين، ومنهم من عاصروه، بالدعوة إلى محاولة الاستيلاء على الحكم باسم الإسلام. وما ذلك إلا إدراكا منه لانعدام الأوضاع الملائمة في مجتمع يسوده النظام العشائري، وهو العقبة المعترضة في طريق محاولة الإصلاح وجمع الكلمة. بل ظلت جهوده في غالب الأحيان تقف عند حدود الإقناع ببذل النصائح والأمر بالمعروف. وهي وإن لم تتكلّلْ دائما بالنجاح، فلم يثنه ذلك عن الصمود على السير في الطريق الذي رآه من واجب الأمانة التي حمّل الله العلماءَ مقاليدَها، وهو تعبير يتردّد في العديد من رسائله وتآليفه. فقام بإنجاز ما استطاع دون أن يحوز على أي ضرب من ضروب السلطة أو يكون في متناوله أدنى وسيلة محسوسة من وسائل الحكم. ويتراءى للناظر أن القوة الدافعة لهذه الشخصية تكمن في عمق إيمانه وإحساسه الحي بقيمة التعاليم الصوفية. فهذان الحافزان خالطا نياط قلبه، ووجها تفكيره وشعوره وسلوكه.

****

يتمثل التراث في أحد جوانبه في حياة وسيرة أحفاد الشيخ سيديّ، فقد برز منهم حاملوا الكَلّ الذي نهض به. أما ابنه الشيخ سيدي محمد (**1245** – ذي الحجة **1285**هـ/**1830** – مارس **1869**م) فلم يلبث بعد والده إلا سنة تنقصها أيام. وقد شوهد منه النهوض بأعباء رسالة والده في المجالات التي قام عليها. وجاء دور الحفدة، الشيخ سيديّ باب (**1277** – جمادى الثانية **1342**هـ /**1860** – يناير**1924**م) والشيخ سيدي المختار (**1278** – رجب **1370**هـ/**1861** – ابريل **1951**م). وقد قضى الشقيقان حياتهما في وئام تام وتوزعا بينهما المهامّ التي ألقاها على عواتقهما الواجب الذي خلّفه الشيخ سيديّ وقد ألّمت بتفاصيل مفيدة عن ذلك الأبحاثُ التي استمعتم إليها. اتخذت حياتهما، بل وحياة البلاد بأسرها، منعطفا جديدا لاستيلاء الفرنسيين على موريتانيا. وشاءت الأقدار أن تكون السنة التي ولد فيها الشيخ سيديّ باب هي نفس السنة التي اتفقت فيها فرنسا وإنكلترة على مصير هذه البلاد. فتخلت إنكلترة لفرنسا عما كان معترفا لها به في المعاهدات القديمة من حق ممارسة تجارة العلك (الصمغ العربي) على شواطئ المحيط الموريتانية، مقابل تسليم فرنسا لها المقر التجاري الذي كانت أقامته في كامبيا. وأصبح الباب مفتوحا لفرنسا حتى تستولي على هذه البلاد في الوقت المناسب لها دون اعتراض منافستها إنكلترة.

ودعا جهلُ هذه الملابسات في السياسة الدولية بعضَ حملة الأقلام والأقوال إلى اتهام الشيخ سيديّ باب في حدث جرت بوادره والتهيؤ له والعزم عليه قبل ميلاده وأدانه هؤلاء أن يكون له ضلع في الاحتلال الفرنسي، إغفالاً للواقع وهو أن الفرنسيين كانوا يعتبرون أن أصحاب الشوكة من القبائل المسلحة هم أصحاب السلطة على البلاد، وهم الذين كانوا يعقدون معهم اتفاقيات في القرون التي سبقت احتلالهم. لذلك عقدوا اتفاقا بمقتضاه سلّمت جماعة الترارزة مقاليد أمور بلادهم إلى ممثل السلطة الفرنسية. وكان دور الشيخ سيديّ باب وبصحبته الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل، دور الشاهد على العقد فقط.

هذا ما كان يجب إيضاحه لتقويم الأغلاط الشائعة. ويضاف إلى ذلك أن الشيخ سيديّ باب قد بين موقفه بكل وضوح في رسائله وفتاويه[1]. وقد ساانده العديد من علماء البلاد من أبرزهم ابنا مايابى الجكنيان بعد أن كانا اختلفا معه قبل هجرتهما إلى المغرب والمشرق. ورسائلهما إليه في القضية محفوظة في مكتبة أهل الشيخ سيديّ. وينبغي في هذا المجال الاطلاع على رسالة سيدي أحمد بن الأمين ومؤلّفه الوسيط. والرسالة كتبها إلى قريبه السالك بن باب بن أحمد بيبه العلوي.

استمر الشيخ سيديّ باب بقية حياته في ظل الاحتلال الفرنسي، إلى جانب شقيقه، ساعيا في بذل جهوده فيما يراه مصلحة للإسلام والمسلمين، ونزولا إلى ضرورات الوضع الراهن. وقد رفض تناول أي راتب من الإدارة الفرنسية أو حمل أي وسام عرضوه عليه حتى توفاه الله.

ويحلو لي في الختام أن أعبّر عن شعوري بالتفاؤل أمام مستقبل بلاد المجبت رجالا كالشيخ سيديّ وأمثاله. فإن مجتمعا تظهر في تضاعيف قطاعاته أمثال هذه الشخصية الفذة ليبعث على واسع الآمال في مستقبله ويُنهِض الهمم ويحمل على الاعتقاد بإمكانات مخبوءة تنتظر الفرص المواتية للبروز. ذلك هو التراث الذي خلفه للأجيال التالية الشيخ سيديّ والذين ساروا على شاكلته ونهجه.

وشكرا على انتباهكم.

---

[1] - راجع بحث الأستاذ: يحيى ولد البراء في:
Yahya Wuld al-Bara :Les théologiens mauritaniens face au colonialisme français, dans: D.Robinson et J.L.Triaud, (éds), Le Temps des Marabouts, Karthala , Paris, 1997, pp. 85-117.

منهج التأليف التوفيقي عند الشيخ سيديّ الكبير من خلال كتابه:

"الطي والنشرْ في الرد على المسائل العشرْ"

الدكتور/ محمدُّو ولد احظانا

ليس من السهل أن نعيد اكتشاف الأفق المعرفي السائد في القرن 13هـ داخل القطر الموريتاني دون استحضار بعض الملابسات التاريخية والأسس النظرية ومحددات المجال السياسي الاجتماعي، حتى نضع شخصياته في سياقها للتعرف على حقيقة سر تميزها في وسطها.

وأتصور في مبتدأ هذه المداخلة الموجزة أن على الدارس بناء قراءته لهذه المرحلة المحورية من تاريخ التشكل الثقافي والاجتماعي للبلاد على بعض الخلفيات حتى يحصل على مفاتيح ضرورية لفهم المجال التداولي حينها. وهذا ما أدعو إليه المؤرخين للثقافة والأدب والنظر في أمور الدين. ومن هذه الخلفيات المحددة:

1 – خلفية العلاقة الحذرة بين السلطة السياسية والسلطة المعرفية، إذ أنه رغم مرور أزيد من قرن على نهاية "شربَبَّه" حين رأى أغلب العلماء أن الاستجابة للسلطة الأميرية هو من باب الخضوع للغالب. وقد عكست تنظيرات وفتاوى كثيرة ذلك الإحساس العميق بالتقصير في تحمل المسؤولية الشرعية من جانب السلطة العالمة. لكن هذا "التمرد النظري" – إذا جاز التعبير – لم يتجاوز المقروء في الثقافة العالمة خوفا من تكرار تجربة الحرب وجرائرها، ودرء للمفاسد المترتبة عليها.

2 – خلفية العلاقة المتوترة بين صوفية إشراقية وبين مجال كان يسيطر عليه مرجعيا فقهاء مالكيون ومتكلمون أشاعرة منذ عهد المرابطين (ق5 و6هـ). وإذا كانت مظاهر هذا التوتر والاستقطاب قد نشبت قبل ق 13هـ بوقت، أي منذ القرن 11 هـ مثلا بين ناصر الدين والشاب الشاطر من جهة والحاج عبد الله ولد بو المختار والمختار ولد بلعمش من جهة أخرى، فإن مظاهر التوتر لم تُزل وإنما تطورت وتشعبت بعد تخليها عن الأجنحة السياسية التي طارت بها في البداية فكانت أزمة رسم الحدود بين ظاهر الشريعة وباطنها محور استقطاب كبير.

3 – خلفية إعادة التشكل الاجتماعي على أسس مشيخات وزوايا بعد اهتزاز البنيات القبلية خلال القرنين 11 و 12هـ وموجة الهجرات الداخلية نتيجة انعدام الأمن والاستقرار، فتمادت البلبلة وهجر الاطمئنان نفوس الجميع إضافة لكثرة الجوائح والكوارث وندرة الموارد الحيوية الأساسية.

4 – خلفية الضغط الاستهلاكي الجاني بعد ازدهار تجارة المقايضة في المناطق المائية المفتوحة على المحيط والنهر السنغالي، فقد غيرت البضاعة الأجنبية خارطة الأولويات الاجتماعية ووسعت حيز الاستهلاك والطمع في الثراء بما يترتب على ذلك التوسع من صراع بين المحافظة الإنتاجية الاستهلاكية والانفتاح على

المغريات التجارية السلعية القادمة من خلف البحار وبذخها الطارئ على لائحة الاهتمام.

الشيخ سيديّ في وسطه العام – حسب ما توحي به المعطيات المتداولة – ظهر خلال القرن 13هـ وقبيله بقليل عدد كبير من الرجال الذين اعتبروا من قبل الوسط الاجتماعي حلا مقبولا على نطاق واسع لكل أو لبعض الخلفيات التي ذكرناها آنفا. فجاء رجال يقدمون حلا عمليا لأزمة القطيعة أو الحساسية بين سلطة الأمراء وسلطة العلماء، فوقع انكسار تاريخي معتبر للتوازي الحاصل بين قبائل الشوكة والزوايا. وهذا الانكسار أدى لتنازل كل من الطرفين عن جزء مما يعتبره حقا. ولذا أزعم أنه نشأ مجال تشاركي سياسي اجتماعي أحدث قطيعة مع الوضع السابق الناجم عن مخلفات "شربه" أو تموقع المغافرة خاصة على رأس الهرم السياسي في أغلب أنحاء البلاد.

كذلك رأينا مظاهرا من التفاهم والتعاون الواضحين بين شيوخ الزوايا والأمراء، كما استطاعت هذه الطبقة من الرجال أن تقدم نفسها كحل مقنع فيما يعني العلاقة المتوترة بين الفقهاء والمتصوفة، حيث جسدوا بذواتهم انكسار التوازي المزمن بين المترع الفقهي والمترع الصوفي فكانوا، في نفس الوقت، فقهاء وأشياخ صوفية ومن هذا التواشج خفت حدة التوتر. وكما يقول المناطقة: "الشيء مع الشيء غيرهما".

وهكذا تبوأ هؤلاء الرجال قمة السلم المرجعي ظاهرا وباطنا وتعددت وتكررت حالة تصوف العالِم أو العلم المتصوف، ونظر المجتمع عموما لهذا الحل باعتباره كمالا وتكاملا لثلاثية الإسلام والإيمان والإحسان.

وبشأن خلفية التفكك وإعادة التشكل الاجتماعي رفع بعض الرجال راية "الحمى ـــ الأمن" في بلاد سائبة، فأدى ذلك إلى تجمع أحواز ومحميات بشرية حوله ينال فيها المنضوي تحت ظلها أمنا على نفسه، وتأمينا لحاجاته وتعليما واستقرارا، فمثّل هؤلاء الرجال إذا حلا لأزمة الأمن بمعناه الأوسع.

وحول هذا الحمى نشأ مفهوم "الكبر" و"لخيام لكبارات". وقد قام هذا المفهوم أصلا على مقوّم أمني وتأميني، ومقوّم بذل ومقوّم تعليم وتربية. وهو مفهوم نشأ لحل أو تلطيف الاضطراب الاجتماعي الناجم عن عصبية قبلية في وسط طبيعي شحيح الموارد، كثير النزاعات. وقد تطلب توفير هذه الضمانات علاقات واسعة مع قبائل الشوكة واستدعى حفر الآبار لتوفير الماء النادر وتجميع موارد الإنتاج وتنويعها.

أما فيما يعني خلفية الضغط السلعي الجانبي فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يتقوا ما أمكن من "شرور" مترتبة على تضخيم هامش الاستهلاك والحاجة، فذهبوا في ذلك مذهبين: مذهب تسيير القوافل والبحث عن مصادر للتموين ومذهب الحيلولة دون الاستهلاك السلعي الواسع ما أمكن، فأفتى بعضهم بالتحرج من التجارة مع الغربيين.

ولم يزل أثر هذا التحرج قائما لدرجة تحريم بعض البضاعة الغربية. ولوحظت شواهد تاريخية على ذلك مثل أزمات تجارة الصمغ وتحريم التدخين وشرب الشاي إلى آخر ذلك مما أدرك بعضنا أمثلة عليه أو اطلع عليه

في الأثر.

لقد كان هؤلاء الرجال هم رجال المرحلة (كما نقول اليوم) إذ تقاطعت في شخوصهم حلول عملية لمشاكل مزمنة في أوصال مجتمعهم فتلقفهم رجلا رجلا.

وكان من أبرز هؤلاء الشيخ سيديّ ابن المختار بن الهيبه، إذ قام بمزاوجة العلوم الفقهية ولواحقها مع معارف التصوف ومعارج الإشراق، ومد جسور التواصل مع أمراء عصره، وأنشأ الحمى الإستقطابي في حوزته وقدم حلولا بارزة بخصوص الضغوط الجانبية من طرف السلع الأوروبية ودخل في حلف ضد تجارة الصمغ مع محمد لحبيب وولد أحمدُّو أثناء حرب الصمغ العربي المشهورة ووسع من الدائرة الإنتاجية واعتمد البذل يمينا ويسارا والرفادة المتميزة. لهذا لم يكن التقدير الذي ناله الشيخ سيدي مجانيا، بل كانت له سياقاته ومبرراته الموضوعية.

كتاب "الطي والنشرْ في الرد على المسائل العشرْ":

إن كتاب الطي والنشر في الرد على المسائل العشر نموذج من نماذج الجهد التوفيقي الجاد بين البعد الشرعي الفقهي والبعد الصوفي العرفاني. فهو إذًا يمثل إسهام الشيخ سيدي ومن سار مساره من الرجال في حل أزمة التوتر والحساسية المفرطة بين فقهاء لا يُلْقون بالا للمقامات الصوفية وبين متصوفة لا يعبئون إلا بما تفيض به الحدوس الإشراقية من حقائق وذوقيات.

الكتاب من أوله إلى آخره جهد في سبيل تحقيق هدف واحد هو توارد الحقيقة الصوفية والأمر الشرعي على مورد واحد. وهذا ما يُدخله في صلب التوفيقات العربية الإسلامية (التوفيق بين العقل عند المتكلمين – التوفيق بين الشريعة والحكمة عند الفلاسفة). لقد جاء الكتاب ردا على أسئلة الشيخ أحمد ولد المختار ولد ازوين البابي التنواجيوي مريد الشيخ سيدي الذي صدره شعرا، وآزره في ذلك الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي بقصيدة، فكان ذلك استثناء يعكس أهمية أحمد عند شيخه. وتدل الأسئلة المطروحة على أصالةٍ واستطلاع واسعين من السائل على خفايا استشكالات القوم (المتصوفة) وما يطرح لهم من مشاكل نفسية وعملية أثناء رحلتهم في مجاهدة نفوسهم النَّزوعة وما يمرون به عبر الرياضات من محاولات التحرر من ثقافة الجسد وقدرة الأمارات في مسالكهم. وكانت نباهة المريد دافعا لشيخه كي يحلق به عاليا في علوم عصره، سواء كانت مما يندرج في علوم باطن الشرع أو بما يعلن في علوم ظاهر الشرع. وقد دلت خارطة المضمون الوارد في الكتاب على موسوعية إسلامية عربية لدى الشيخ سيدي وإحاطة تستحق الإعجاب بدقائق المعارف الشرعية والصوفية وما يصاحبها من علوم آلة كالمنطق والنحو وعلم المعاني.

وساحاول أن أركز على نماذج مما رأيناه طي هذا الكتاب لننشره بإيجاز أمامكم وذلك في شكل ملاحظات واستنتاجات.

الاستنتاج الأول من منظور المتكلم البرهاني: لأن الشيخ سيدي يتبنى منهجا توفيقيا في مؤازرة علم بعلم آخر. فهو عندما طرح له مريده مثلا إشكال "التمكين" عند المشايخ كان عليه أن يتجنب مطبا خطيرا في جانب الاعتقاد، حيث أن "التمكين" عند المتصوفة لا بد أن يستنقذ من مسألة أقدار الإنسان على فعله عند القدَرية القائلة بأن الله يخلقنا ولحن نخلق أفعالنا. فكيف لا يكون الشيخ خالقا لأفعاله؟ لأنه متى خلقها خرجنا من المذهب السني إلى المذهب القدَري. مسألة محرجة إذا.

لقد أوجد الشيخ سيدي سبيلا دقيقا للخروج بالتصوف من محيط القدرية ولم يكن بإمكانه أن يحقق هذا الهدف إلا بالخروج من الدائرة المفهومية الصوفية إلى الدائرة الكلامية المتمحضة، فجعل فعل الولي من جنس الكسب وقصره على الأشعري. والطرافة هنا تكمن في حل قضية عرفانية بأطروحة برهانية بيانية. ولذلك فإن كتاب "الطي والنشر" يستخدم الأدوات المنهجية في علم الكلام لحل مشاكل عرفانية، لأن التصوف الذوقي لا يسعفه بالبرهنة المنطوقة لسلوكياته، فكان في أغلب كتابه متكلما في برهنته على صحة الحقائق العرفانية. وهذا أمر ملفت للانتباه.

وقد استدرك في هذا الصدد على أشاعرة بارزين من بينهم الجويني إمام الحرمين والباقلاني والفخر الرازي، خاصة في مسألة فعل الإنسان وهم من متأخرة الأشاعرة. يقول الشيخ سيدي في المنحى الأول حول تأثير الأولياء: *"لكنه غير مطلَق بل هو مقيَّد بفعل المشيئة والقدرة من الله تعالى بإجرائه وإيقاعه على يدي من يقع على يديه منهم. ومن وقع على يديه ذلك جاز أن يضاف إليه بحسب كسبه مراعاةً لظاهر الشريعة وجب مع ذلك اعتقاد كونه من فعل الله عملا بنفس الحقيقة.*

يقول في تمييز أهل السنة عن الجبرية والقدَرية (المعتزلة): *"كل مذهب يخالف مذهب أهل السنة فهو باطل ومن ثم كان مذهب الجبرية وهو إنكار القدرة الحادثة باطلا لما فيه من جحد الضرورة وإبطال محل التكليف وأمارة الثواب والعقاب. وكذلك مذهب القدرية، مجوس هذه الأمة، وهو كون العبد يقترح أفعاله على وفق مشيئته بالقدرة التي خلق الله تعالى له."*

ويقول في الاستدراك على متأخرة الأشاعرة (إمام الحرمين الجويني والباقلاني والفخر الرازي...): *"وما نسب لإمام الحرمين والقاضي والأستاذ رضي الله عنهم من كون القدرة الحادثة تؤثر في وجود الفعل على أقدار قدرها الباري عند الأول ومن كونها تؤثر في الحال عند الآخرين يتعين على من سمعه من المسلمين أن يترههم عنه لكنهم أئمة الدين المهتدون الهادون. قلت: وإذا قال هذا في مقالة القاضي والأستاذ مع خفتهما بالنسبة إلى ما نقل عن الإمام مما لا يرضى أن يقولها من هو أدنى منه علما ودينا بمراتب كثيرة.. وقد ابتلينا بأقوال باطلة تنسب لأئمة السنة والله تعالى يعلم هل صدرت منهم أم لا "*

الاستنتاج الثاني من منظور عالم الأصول ردا على الفقهاء: وكما استخدم علم الكلام استخدم الأصول لتأسيس رؤيته في وجه الفقهاء يقول: *"واجيب عما ذكر من أن المتعدي كعلم الأحكام أفضل من*

القاصر كالمعرفة، بأن من قال ذلك جاهل بأحكام الله تعالى، بل يكون القاصر أفضل كالتوحيد والإسلام والدعائم الخمس إلا الزكاة والتسبيح بعد الصلاة لأنه – صلى الله عليه وسلم – قدمه على التصدق بفضول الأموال وهو متعد"

وكان الرد بهذا النص على فقهاءَ كبارٍ أتت حجتهم على النحو التالي: *"وقال جماعة من أهل العلم كمالك وابن عيينة وغيرهما إن العلماء أفضل، لأن العلم بالأحكام متعد والمعرفة علم قاصر والمتعدي أفضل من القاصر وعلوم الظاهر إنما يفسق صاحبها ويجانب الاستقامة إذا ضل عن العمل بها"*

ثم نراه يستخدم الفقه في تأسيس الكرامة الصوفية على غرار استخدامه لعلم الكلام والأصول.. يقول الشيخ سيدي بعد الرد على الفقهاء من خلال منهج الأصول: *"أكبر الكرامة الاستقامة"*. وهكذا يتفق مع استنتاجات علماء الأحكام في تحديد مفهوم الكرامة ومن فهم للإطلاع على الغيب. ومن الإطلاع بل من أعظمه وأفضله الكشف في المعرفة والفتح في معنى الكتاب والسنة.

الاستنتاج الثالث من منظور المنطقي: سيستخدم الشيخ سيدي المفاهيم المنطقية للاحتجاج برهانيا على خصوم الصوفية بنفس الدواعي التي استخدم بها علم الأصول وفقه الأحكام في تأكيد هدفه. يقول: *"وأما ما تفضل الله به على الأولياء من الكرامات والاطلاع على المغيبات إنما هو نتائج الأعمال. والنتائج من حيث هي نتائج هبات من الله تعالى معتبرة بمقدمتها وهي الأعمال، فإن استقامت الأعمال سلمت النتائج وإن حصل فيها خلل كانت النتائج بحسبه، فلا ينظر عند القوم إلا إلى الأعمال التي لزمت المكلف. وعلى هذا فالعالم إذا عمل بعلمه حصلت له على التمام والكمال، فكلما أثبت للولي من الكرامات والاطلاع على المغيبات يثبت للعالم، فلا فرق بين السلوك بالعلم وغيره من العبادات"*. وهذا حل قضية عرفانية بآلية منهجية منطقية.

الاستنتاج الرابع من منظور بياني لغوي: يقول في حل مسألة المصطلح الخاص بالولي: *"للولي معنيان أحدهما: فعيل بمعنى مفعول، كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح. فعلى هذا هو من يتولى الله سبحانه أمره (وهو يتولى الصالحين) والثاني: فعل مبالغة من الفاعل، فهو يتولى عبادته، فطاعته تجري من غير أن يتخللها عصيان"* وهكذا.

الاستنتاج الخامس من منظور عرفاني: يقول الشيخ سيدي اقتباسا من الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي في كتابه "جنة المريد": *"إذا اتخذ (الله وليا) علّمه هو العلم بأحكام الألوهية وآداب التعبد للإله الحق... ما اتخذ الله من ولي جاهل، أي جاهلٍ بعلوم الألوهية والأحوال الخفية والمعارف، لا جاهل بهذه العلوم الظاهرة مما يجب عليه تعلمه، فإنّ هذا يكون وليا، لأن علم الشرائع لا يدرك إلا بالتعليم الحسي"*

الاستنتاج السادس من منظور التوفيق بين الظاهر والباطن: *لاشك أن معرفة مجرد الأحكام لا يوجب شيئا من هذه الأحوال والأعمال والأقوال... ولا كذلك الصوفية.*

الاستنتاج السابع من منظور منهجي: أخذ أقوال العلماء المتصوفة واستقرأها ثم انتهى إلى الرأي الخاص بالمؤلف بالترجيح...

وخلاصة القول إن الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة مثّل إحدى القمم العلمية والعرفانية والسياسية خلال القرن الثالث عشر الهجري (18م). وكان هو وجيله مثالا للمجتمع لأنهم جعلوا من أنفسهم مَصَبًّا للروافد الأساسية المشكّلة لقيم المجتمع الموريتاني في زمانهم (المعرفة ظاهرةً وباطنية، الحماية والأمن، البذل والكفالة، التفاهم مع السلطة السياسية لتشكيل مرجعية وفاقية). وكان كتاب الطي النشر أحد الحلول المقدمة في هذا الشأن...

نماذج من شعر العلامة الشيخ مُحَمَّدُّو بن حنبل في الشيخ سيديّ

الأستاذ/ ددّاه بن بُدّنْ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه من نافلة القول ولا يخفي على من له أدنى إلمام بالتاريخ والأدب الموريتاني، أن الطود الشامخ والعلم الباذخ الشيخ سيدي الذي كان له الكمال اسما طابق المسمى والذي دل انتساب من انتسب إليه من الأماثل وصحبه من أجلاء العلماء والأفاضل على علو مكانته وسمو منزلته ونظم شتات الفضائل وجمع أطراف المحامد. وكان نادرة زمانه وبلا منازع قطب أوانه وأذعنت له غلب الرقاب صاغرة ودان له بالسبق والفضل جميع من عاصره ورفع مِنْ ذِكرِ مَنْ كان خاملا وحَلّى جيدَ الزمان وكان عاطلا... غنيٌّ عن التعريف فهو الأحق بقول القائل: (بسيط)

وقد ظهرتَ فلا تخفى على أحدٍ ... إلا على أحد لا يعرف القمرا

كما لا يخفى عليه أن عطاء الشيخ محمدو بن حنبل الشعري يشكل جزءا كبيرا من موروث الشيخ سيدي الثقافي مما اقتضي أن تكون هذه المداخلة على النسق التالي:

- لمحة ولو موجزة عن الشيخ محمدو بن حنبل الحَسَني.
- ثم تعاطي نماذج من شعره تبرز بجلاء مكانة الشيخ سيدي وموروثه الثقافي الذي هو موضوع الندوة.

أولا: من هو الشيخ محمدُّو بن حنبل؟: هو الشيخ محمدُّو بن حنبل الحسني المولود **1239**هـ **1825**م بشويك وهي بئر للأجداد بالعُقُل تردد اسمها كثيرا في شعره. كان ذا منزلة اجتماعية عالية في قومه وكان راسخ الكعب في المعرفة متمكنا من علوم عصره بلا منازع وتجلى ذلك في شعره ومؤلفاته التي تناولت التفسير والتوحيد واللغة والسيرة والأصوات وغير ذلك وله آثار عدة. لقبه بعض معاصريه بالإمام، يقول بَيّها بن العاقل: (طويل)

ومَنْ رامَها غيرُ الإمام بن حَنْبَلٍ ... وما كابْنِ إحداها الإمامُ بنُ حنبلِ

ويقول الشيخ محمدو بن محمد محمود ولد الرباني: (طويل)

ويا حنفيَ العصرِ مالكَ عصرِهِ ... وشافعَهُ في الكَرْب أنتَ إمامُ

ألمْ يكُ يدعوكَ الورَى بابنِ حَنْبلٍ ... وللفظِ معنًى يقتضيهِ مقامُ

نشأ في محيط قد تساعدنا في أخذ صورة عنه نبذة من قصيدة يقولها لأحد أبناء عمومته، وقد بشر بولادته، ينير له بها الطريق أمامه ويضع له الخطوط الحمراء في حياته المستقبلية ومطلعها: (خفيف)

المجرت وعدَهـــــــــــا بـك الأيـامُ واستنارتْ شهـــــــــورَها الأعـوامُ

إلى أن يقول:

أيهـــا ذا الغـــلامُ لا تـــرضَ يومًـــا أن يَـشُقَّ الغبـارَ منـــــــكَ غـلامُ
لـستَ بِـدْعًا في المجـد بـل هـو مجـدٌ أورثَتْـهُ الأخـــــــوالُ والأعمـامُ
أنتَ في دوحةٍ حـــــــرامٌ عليهـا أن يُـرَى العـــــارُ حولَهـا والـذّامُ
بوريـفِ الظـلال منهـــــــا قـديما يَستظِلُّ الضعـــــــافُ والأيتـامُ
وبأكنافهـــا ينابيـــــــعُ علـمٍ يَرتوي مـــــــنْ مَعينِهِنَّ الأنـامُ
إنَّ عـــــــارًا على كـريمِ المنـامي خفـــضه الطـــرف إذْ تعـد الكـرام
ولـــيكنْ همـــك العلـــوم فمـــا إن هـم يومـــــــا بمثلـهنَّ هُمـام
ولـــيكن خُلْقُـــكَ المـــدامَ إذا مـــا شـــيب في الكـــاس بـــالقَراح المـدام
ولـــيكن كَفُـــكَ الرِّهـــامَ إذا مـــا أرســـلت دمعهـــا الـــسَّجومُ الرِّهـــام
لا يكـــن بالخـــصام منـــك وَلـــوعٌ فـذميمٌ مِـنَ الكِـرامِ الخِـــــــصام
وإذا خـــيضَ في الكـــلام فـــصمتًا عـــن سِـــوى مـــا بـــه يَـــزينُ الكـــلامُ
وإذا كـــان بالميـــاه زحـــامٌ لا يُغَيِّـــرْ منـــكَ الخِـــلالَ الزِّحـــام
ولْتقمْ مِـنْ بَنِـي الزوايـــــا خِـلالاً لـــيس للـــدين دونهـــنَّ قِـــوَامُ
لا تَـرُمْ أن تكـون مـــــثل فُتِـــيٍّ مـــا لهـــم في الطُّـــلاَّب علـــمٌ مُـــرام

توفي رحمه الله تعالى في ذي الحجة **1302**هـ بشوبك ودفن بها.

ثانيا: نماذج من شعره في مديح الشيخ سيدي: يقول في مقصورته التي يعارض فيها مقصورة أبي صفوان والتي قال فيها الشيخ رحمهما الله تعالى إنها جرت ذيل النسيانْ على مقصورة أبي صفوانْ: (متقارب)

أشاقَتْـــكَ بعْـــدَ تَـــوَلِّي الـــصِّبا حُمُـــولٌ بَكَـــرْنَ بِـــأُدْمِ الظِّبَـــى
بـــدُعْجِ اللـــواحظِ بِـــيضِ الوُجُـــوهِ ثِقَـــالِ الْمُـــرُوطِ ثِقَـــالِ الْبـــرَى
فأوقـــدن في القلـــب نـــارَ الغَـــرامِ أنَ اذَنَ بـــــالبينِ داعٍ دَعَـــــا
فـــشُدَّ الْحُـــدُوجُ ومُـــدَّ الْخُـــدُورُ عليهـــا وتحـــتَ الْخُـــدُورِ الْمَهَـــى
وحَـــثَّ الحـــداةُ بهـــا أسْـــطُرًا ثمانيـــةً مِـــنْ نـــخيلٍ رِوَى

إلى أن يقول:

فباتـــتْ تَبَـــارَى فلـــما الْجَلَـــى تَبَـــيَّنَّ مـــاءً خِـــلالَ الأَشَـــى

وعندَ شمائلها نابلٌ ... خَفِيٌّ حرامٌ عليه الكَرَى
أبو دَرْدَقٍ سَبْعةٍ مَالَها ... منَ الكسْبِ إلاّ بناتِ المُلاَ
فجنَّ السَّريَ على هيلَةٍ ... فلما سلَكْنَ شُطورَ الشَّوَى
طَوَى شخصَه فرمى رَمْيَةً ... نَنتْهَا عنِ الخُفْبِ أيدي المَنَى
فنادى الثبورَ وأعْلَى العَوِيـ ... ـلَ وخالَ السَّماحيجَ بَرْقًا خَفَى
ألَمْ يَعْلَمَ انْ الفتى مَنْ إذا ... دَهَى الخَطْبُ وَلاَّهُ رُكْنَ العَزَا
فَهَلاَّ أراحَ يدًا أُفْنِيَتْ ... بحفْرِ القَرَامِيصِ بينَ الصَّوَى
يَؤُمُّ الكمالَ فيغْشَى الظِّلاَلَ ... ويَلْقَى النَّوالَ ويلقَى النَّدَى
هو البحرُ منه جَرَى الرَّافِدَانِ ... ومنهُ شفَى الخافقانِ الصَّدَى
فَوِرْدُهُ مُضَافًا تَجِدْ مَأْمَنًا ... ورِدْهُ مَجُودًا تَنَلْ مُرْتَوَى
ورِدْهُ جَهولاً تَنَلْ حكمةً ... ورِدْهُ عديما تَنَلْ مُقْتَنَى
فَمَا مُدْلِجٌ مِنْ هَوَامِي السَّمَاكِ ... عَرِيضِ الكَلاكِلِ جَوْنُ الرَّحَى
مُسِفٌّ على الأرض أهْدَالُهُ ... وَهَادِيهِ يَهْدِي حَوَادٍ بِطَا

إلى أن قال:

بأجودَ منهُ ولا زاخرٌ ... يَغُطُّ غَطِيطًا إذا ما طَمَى

إلى أن يقول:

بأوسعَ مما حَوَى صدرُه ... وأصقَعَ منه غليلَ الظَّمَا
ولا اخْدَرِيٌّ عُرَاضُ اللِّدِيـ ... ـدِ أغلبُ جَهْمٌ مِنَ اسْدِ الشَّرَى
يُرَبِّبُ أجْرِيَةً في غَيْضَةٍ ... مُدَاخَلَةٍ مثلَ لَسْجِ الرِّدَا

ثم يمضي في وصف الأسد:

بأهْيَبَ منه على أنه ... له خُلُقٌ كسُلافٍ بِمَا
وروجَةُ أتيحَ لشرحِ الصُّدور ... وجلبِ السرورِ ودفعِ الأسَى
ولا صَدَعٌ باتَ في رعْنَةٍ ... على مُشْمَخِرٍّ يسامي السما
بهِ يَستظلُّ رُكامُ السَّحابِ ... إذا الْتَمَّ في جَوِّهِ واعْتَلَى
....
بآمنَ ممَّنْ قدِ امْتُمَّ ... وأمنعَ ممنْ إليكَ الصَّوَى
فذاكَ ولا زلتَ مُعقِلاً ... منَ اللَّزَبَاتِ لكلِّ الوَرَى

وبـــورك فيمـــا قَـــــــدُ اوتيـــتمُ ونـــال المُـنى مَـنْ إليـــــــكَ انْتَهَـــى

وقصيدته الفضوضية: (كامل)

عُـــجْ بي علـــى دِمَـــنِ التّقَـــى فمغـــاني نِهِـــي الأَضَـــاةِ فَمَرْقَـــبِ الـــصِّيرَانِ
فأَضَـــا الرُّعـــودِ فمُلتقـــىَ أعراضِـــها فالدَّوْمَـــةِ البيـــضـــاءِ فـــالـــسَّنْدانِ

ويمضي في وصف آفطوطْ:

بُلـــدالُنا زُهيـــتْ بنـــضرة أهلـــها وزُهـــوا هُـــــــمُ بنـــضارةِ البُلـــدانِ
....

والـــدَّوْمُ قـــدْ بَلَـــغَ العنـــانَ فُروعُـــهُ ضـــافي الظـــلالِ يَميـــدُ كالنَّـــشْوَانِ
فظِلالُـــه لـــشبابنـــا مُتَنـــزَّهٌ وفروعُـــه للـــطيرِ والـــغلـــمانِ
تلـــك المنـــازلُ لا منـــازلَ مثلُهـــا إلاّ جَنـــابُ الـــشيخِ للجـــيرانِ
شـــيخٌ سَـــناهُ وصِـــيتُهُ ولَـــداهُ ملْـــ ءُ الْأَيْـــــدِ والأسمـــــاعِ والآذانِ
شـــيخٌ بـــه حَلِـــيَ الزمـــانُ وقُـــلِّـــدَتْ أجْيـــادُه بقـــــــلائدِ العِـــقْـــيانِ
....

فلأنـــتَ أكـــرمُ مـــا حـــوتْ أقطارُهـــا بـــلْ مـــا عليـــه تعاقـــبَ الْمَلَـــوانِ
أبْعِـــدْ بمَرْمَـــى مَـــنْ يَـــرومُ مَـــداكمُ أنّـــى يُـــرامُ ودولـــه القَمَـــرانِ
آلـــى الزمـــانُ أليَّـــةً مـــبرورةً ألا يكـــون مـــن الـــورى لـــكَ ثـــانِ
لله درُّكَ إذْ نـــشأتَ مُهـــذبا صَـــرَفَ العزيمـــةَ في عظـــيمِ الـــشّانِ
لا رأى أن المعالـــــيَ صـــعبةٌ لا تـــستقيدُ إلى الـــضعيفِ الْـــوانِي
يَـــسْـــلُ علـــى مَـــنْ لا يُجَـــشِّمُ نفـــسهُ جَـــمْرَ الغَـــضَى وعَوَالِـــيَ المُـــرّانِ
نَـــصَبَ الرِّحـــالَ علـــى رواحـــلِ هِمَّـــةٍ مـــا شـــيبَ دائـــبُ ســـيرِها بتـــوانِي

ومن قصائده:

أمَنزلـــةَ الْغَـــرّا سَـــقَـــتْكِ الرَّواعِـــدُ وجـــادَكِ مِـــنْ لَـــوْءِ الـــسِّمَاكَيْنِ جَائِـــدُ
....

فمـــا أبْـــصرتْـــكَ العـــينُ إلاّ تحقّقـــتْ بَمـــرْآكَ أنّ الـــشيخَ في القُطْـــرِ واحـــدُ
تَـــلقّـــيْـــتَ أعـــــلامَ العلـــومِ وأُلْقِيَـــتْ إليـــكَ مِـــنَ اســـرارِ الطريـــقِ الْمقالِـــدُ
فـــذُلّلَ مِـــنْ عَوْصَائِـــهَا كُـــلُّ غـــامضٍ وقُـــيِّدَ منـــها الآبِـــداتُ الـــشّوارِدُ
يَـــمِـــينًا لأنـــتَ الغَـــوْثُ غـــيرَ مُـــدافَعٍ وإنْ شـــكَّ مُرْتَـــــابٌ فوجهُـــكَ شـــاهِدُ

أيرتابُ في الصبح استقل عموده ... وأعناقُه أفقَ السماء صواعدُ

والقصيدة التي مطلعها: (وافر)

كمالَ الدين هَدْيَكَ قدْ رضينا ... ونحن على اجتهادك ما بَقِينَا
فعلتَ بنا جزاكَ اللهُ عنّا ... غُيوثَ الخيرِ فعْلَ الوالِدِينَا
فأنشدْنا- على أنا نراهُ ... قُصورًا - قولَ بعضِ المادحينَا
نميلُ على جوانبه كأنّا ... نميلُ إذا نميلُ على أخينَا

ومن قصائده: (خفيف)

حَيِّ بالبدْءِ فالْمُلَيْحِ ديارَا ... أصبحتْ مِنْ أليهِنَّ قفارَا
ومَغانٍ على الرُّبَى ومَغانٍ ... بالدُّوَيْمات قدْ عَفَتْ أعْصارَا
....
أيها الشيخُ إنَّ ذا الأمرَ إمْرٌ ... قدْ أذابَ الكُبودَ والأسْحارَا
أصبحَ المسلمون في دارِ ذُلٍّ ... لا يُطيقون بالبلاد قَرارَا
أيها الشيخُ لا بَرِحْتَ عِمادًا ... وشِعارًا لِدِيننا ودِثارَا
جرِّدِ العزْمَ وانصُرِ الدينَ نصرًا ... وذَوِيهِ وجاهِدِ الكُفّارَا
وانتخبْ مِنْ مَعاشرِ الدين زَحْفًا ... كدُجَى الليلِ جَحْفَلاً جَرّارَا
أيها الشيخُ قُمْ مَقامًا حَميدًا ... يورِثُ الدينَ عِزَّةً وفَخارَا
إنما الناسُ تابِعوكَ فَقُدْهُمْ ... مُسْتبيحًا دارَ العَدُوِّ جِهارَا

ومنها: (طويل)

أيَا مَنْ لِبرْق آخر الليلِ يَلْمَعُ ... تَنوءُ بِهِ غُرٌّ مِنَ الدَّلْوِ هُمَّعُ
بَدا لي كَوَمْيٍ بالحواجبِ نائِيًا ... ولَمّا دَنَا كادتْ بِه الأرضُ تُصْدَعُ
....
ألا أيها الغيثُ المُطَبِّقُ جَلَّ مَا ... نفعتَ ولكنْ شيخُنا منكَ ألْفَعُ
بَلَ انتَ بِيُمْنِ الشيخِ دَأْبًا مُسَخَّرٌ ... ويُمْناهُ تُولِي كُلَّ ما فيكَ يَرتَعُ
وقَبْلَ نوالِ الشيخِ أبْهَى طَلاقَةٍ ... وقَبْلَ نوالِ الغيثِ رعدٌ وزَعْزَعُ
فما ذا يُوازيه الحَيَا مِنْ مَواهبٍ ... تَغُصُّ بأدناها الرقيعُ ويُرْقَعُ
صوادرَ مِنْ كفِّ امْرِئٍ لا يَزُورُه ... غرارُ الكَرَى حتى يَجُودَ فيُوسِعُ

ومن هذه القصائد: (كامل)

هـــلْ عـــهْدُ أيـــامِ الوِصـــالِ يعـــودُ ... أمْ هـــلْ يُفيـــقُ الهـــائمُ المُعْمَـــودُ
هـــل تـــستريحُ وللجـــوانحِ لوعـــةٌ ... والنـــاسِ عَـــذْلٌ والحبيـــبِ صُـــدودُ
هيهاتَ تَـنْزاحُ الكُـــروبُ وتَـــنجلي ... دُهْـــمُ الخُطـــوبِ ويُنجَـــدُ المَـــنجُودُ
إلاَّ بـــشيخٍ قـــدْ أُتـــيحَ لِـــرأْبِ مـــا ... تَـــثْـعَـــى الـــدوائرُ والخطـــوبُ الـــسودُ
خـــيرِ امـــرئٍ وصـــلتْ إليـــه ذميلـــها ... فُتْـــلُ النجائـــبِ والعِتـــاقُ القُـــودُ
قَـــرْمٌ جميـــعُ الخلـــقِ تحـــتَ لوائـــهِ ... ســـيّان منـــهمْ ســـيِّدٌ ومَـــسُودُ
هـــذا وإنَّ لرهْطِـــهِ في قومـــهِ ... قَـــدَمَ العُلَـــى ومَقـــامُهمْ مَحْمـــودُ
حـــازوا تـــراثَ المجـــدِ عـــنْ أجـــدادهم ... وخـــيره مـــا أورثَتْـــهُ جُـــدُودُ
أرْسَـــوْا جبـــالَ العـــزِّ مـــنْ دونِ الـــوَرَى ... ولـــواءُ شامـــخـــه لهـــمْ مَـــعْـقُـــود
والخـــيرُ يوجَـــدُ حيـــثُ هـــمْ فـــإذا هُـــمُ ... لا كـــانَ ذاكَ فإنـــهُ مَفْقـــودُ
خـــذْ مـــا بـــه قـــدْ ساعَدَتْـــني لهجـــتي ... إذ لَمْ يـــساعِدْ طـــارفٌ وتَـــليدُ
مثـــلَ العَـــروسِ خَـــريـــدَةً مَـــجْـــلُـــوَّةً ... زُفَّـــتْ إلى بـــابِ الكمالِ تَـــميـــدُ
يبـــدو برَوْنَـــقِـــهـــا الجُمَـــانُ مُفَـــصَّلاً ... في سِلْكِـــــــــه واللؤلؤُ المَـــنْرُودُ
خـــذْها ألاَ لازالَ كعبُـــكَ عاليًـــا ... ورِواقُ ظِلِّـــكَ كامـــلٌ ومَديـــدُ

وقصيدته التي مطلعها: (وافر)

ألاَ مـــاذا أقـــولُ لـــسانُ حـــالي ... قـــضتْ بـــالعجز صـــادقةَ المقـــالِ
أحـــاول ان أُعَـــدِّدَ كـــلَّ نَعْـــتٍ ... يَـــدلُّ علـــى الكمـــالِ مِـــنَ الكمـــالِ
فـــلا يـــسعُ البليـــغَ سِـــوى ســـكوتٍ ... ســـكوتَ الحـــوتِ في اللُّجَـــجِ الغَـــوالي
ولكـــنْ كيـــف لا يُهـــدي مُريـــدٌ ... جزيـــلَ الـــشكر للقطـــبِ الجَـــلالِ
أأتـــركُ والـــلآلـــي بـــارزاتٌ ... وسِـــلكي فـــارغٌ لَـــظْـــمَ اللآلي
وكيـــف يـــصون عنـــه دُرَّ لفـــظٍ ... مَنَ امسى عاجـــــزا عن بذل مـــالِ
....
فمثلُ الشيخ ما حَـــلـــــتْ جيادٌ ... ومـــا حَمَـــلَ العِتـــاقُ علـــى الرِّحـــالِ
ولا وطـــئَ البـــسيطةَ وهْـــو حـــافٍ ... ولا وطـــئَ البـــسيطةَ في نعـــالِ
حوالَيْـــه مِـــنَ اسْـــرَتِه جبـــالٌ ... أنافـــتْ فـــوق أعـــرافِ الجبـــالِ
همُ المثَـــلُ الـــشَّرودُ لكـــل فخـــرٍ ... ومكرُمـــةٍ وحلـــمٍ واحتمـــالِ

وكذلك قصيدته المسماة بالزرقاء وهي قصيدة نظمها في مدح الشيخ سيدي على بحر الكامل، مع أن

القارئ لو نظم صدور أبياتها عموديا حصل على مقطوعة من بحر المديد في مدح الشيخ. وإذا نظم الكلمات الأول من أعجاز الأبيات عموديا كذلك حصل على قطعة من بحر البسيط في مدح الشيخ ومطلعها: (كامل)

برزتْ عواتقُ ديـن أحمدَ ترفلُ ... وافى بها الغوثُ الأغرُّ الأكملُ
غُرُّ العُلى قدْ أطْلَعَتْ في أُفْقِه ... قمرا سَنَا أنوارِه مُتَهَلِّلُ
وبدا بطلعةِ وجهه وجهُ الهُدَى ... يا حبّذا شمسٌ به لا تأفلُ

فمن المديدية: (مديد)

برزتْ غُرُّ العلى وبدا ... بكمال الدين بدرُ هُدَى
وطمتْ باخافقَيْنِ به ... لُجَجٌ مِنْ حكمةٍ وَجَدَا
وسِعَتْ كلَّ الورى سُحُبٌ ... وَكَفَتْ مِنْ كفه رغَدَا

ومن البسيطة: (بسيط)

وافَى بها قمرٌ يا حبّذا قمرَا ... حَفَّتْ به زُمَرٌ يا حبّذا زُمَرَا
أضحى يُجدّدُ مِنْ علْم الحقيقة ما ... قد كان أزمنةً مِنْ قبله دثرَا
فالدين في صدفٍ والغيُّ في تلفٍ ... والعدلُ في شرفٍ والبغيُ قد قُهِرَا
إن تاتِ ذا وجلٍ تُدركْ به وَزَرًا ... أو تاتِ ذا أملٍ تُدرك به وَطَرَا

ومن قصائده: (طويل)

إلى جانبِ الغَرّاء مِنْ أُمِّ عاصمٍ ... ديارٌ كباقي وشْمِها في المعاصمِ

إلى أن قال بعد محاجاة أوردها فيها:

فأعرضتُ عنْ ألغازهم لوُضوحِها ... وأنشدتُ مدحَ الشيخ قطبِ العوالمِ
بيُمن كمالِ الدين شقّتْ جيوبَها ... على الأرض بعدَ المحلِ غُرُّ الغمائمِ
بيُمن كمالِ الدين أُفرِجَ كربُنا ... بأنفاسِ أرواحِ السرورِ التّواسمِ

ومن هذه القصائد: (طويل)

أيا صاحِ أبشرْ بالمُنى والمآربِ ... ودفعِ الذي تخشى وجلبِ الرّغائبِ
تصفحتُ مِنْ ذي التّيلميتِ حروفَه ... إذا كلُّ حرفٍ جزءُ لفظٍ مناسبِ
إلى البحرِ ذي التيارِ أوْمَأَ باؤُهُ ... وواوٌ إلى وَبْلٍ مِنَ الدَّلْوِ ساكبُ
جَلَى أحدَ التاءَينِ تقْصارُ فضلكم ... وآخَرُ للتّجْفَافِ دونَ المصائبِ

فقد أظهرَ الياءانِ يُمْنَ ظهورِ كم ... ويا قوتَ ما أبْدَيْتُمُ مِنْ عجائبِ
قضتْ لامهُ حقا بلينِ جَنابكُم ... وذا الميمُ جزءٌ مِنْ مُنَى كلِّ راغبِ

والشيخ محمدو كان مَدْحُ الشيخ سيدي هِجّيراهُ، حتى أنه لا يهتم بحوك قصيدة في غرض ما من أغراض الشعر إلا واستطرد مدحه أو ذكر اسمه. فمثلا قصيدته التي يحض فيها على طلب العلم والتي مطلعها: (رمل)

أضْرمَ الهمّ سُحيْرا فالتهبْ ... لمعُ برقٍ بِرُبيَاتِ الذهَبْ

يقول فيها:

وعلى ذي التيلميتِ استوسقتْ ... لِمزارِ الشيخِ تُهدَى بالهضَبْ

ولما توفي الشيخ سيدي، رحمهما الله تعالى، رثاه بقصائد عدة، اخترت نماذج من واحدة منها وهي التي مطلعها: (طويل)

أرى الملةَ البيضاءَ جلّ مُصابُها ... ففاضتْ مآقيها وطالَ انتحابُهَا
وقاستْ بفَقدِ الشيخِ وَجْدَ مُصابَةٍ ... بواحدها لَمّا تَولّى شبابُهَا
وضاق بها عرض البسيطةِ والتقى ... على أهلها ظُفرُ الخطوب ونابُهَا
وأظلمَ وجهُ الأرض حتى كأنما ... تردّتْ مِدادًا غوطُها وحِذابُهَا
فبعدَ كمالِ الدينِ ما لقَعَ الصَّدَى ... رِواءٌ ولا سرَّ الصِّحابَ صحابُهَا
ولا طاب مشمومٌ ولا راق مَنظرٌ ... ولا لَذّ مِنْ غُرِّ الثّنايا عذابُهَا
ألا رُبَّ مَنْ يَبكي الكمالَ بعبرةٍ ... حرامٍ على غيرِ الكمالِ انصبابُهَا
وخَوْدٍ تلقّتْ بالبنان دموعَها ... تشابهَ لَوْنًا دمعُها وخِضابُها
ويَسْبِقُها طورا مِنَ الدمع سابقٌ ... قد ابتلّ منه عِقدُها ولقابُهَا
تخاطبُني وَهْنًا وفي الصدْر غُصَّةٌ ... فلأيًا بلأْيٍ ما يبينُ خطابُهَا
تقولُ أبعدَ الشيخِ تَنعمُ عيشةٌ ... ويهنأُ أرضًا أن يُثَجَّ سَحابُهَا
أليس الذي أحيى به اللهُ خلقَه ... ولولاهُ لم تَحْمِلْ رؤوسًا رِقابُهَا
فقلتُ لها والنفسُ تَغْلي ومُقلتي ... شبيه بمَنثورِ الجُمان انسكابُهَا
بُقي يالَه لا يموت ورحمةٍ ... مِنَ اللهِ مَقصورٍ علينا حِجابُهَا
وأن سيولَ المُكْفَهِرّاتِ تَروي ... فتعقبُها أخرى يَعُبُّ عُبابُهَا
فنحن بني الإسلام أبناء ملّة ... قدَ اصبح محروسَ الجنابِ جنابُهَا
فهذا بحمد الله منْهُ خليفةٌ ... به الزاح عنها بثُّها واكْترابُهَا
وماستْ به أغصانُها ورياضُها ... فرَجّع لَحْنًا طيرُها وذُبابُهَا

ووافَـــى بـــأجوازِ المُؤمَّـــلِ رَكبُهـــا ... وجـــاءت بألـــوان النجـــاحِ رِكابُهَـــا

فأرســـتْ أواخيهـــا وأرخـــت ســـتورها ... وألقـــتْ عـــصاها واســـتقرَّ غُرابُهَـــا

وردَّ ألـــوفَ الـــشامتينَ رواغمًـــا ... عليهـــا جميعـــا ذُلُّهـــا واكتئـــابُهَا

ليهنـــاكِ أنْ قـــدْ قـــام بـــالأمر بعـــده ... فتًـــى هـــو بيـــتُ المكرمـــاتِ وبابُهَـــا

تـــضَلَّع مـــن علـــم الـــشريعة والتـــهى ... إليـــه مـــنَ اســـرار الطريـــق لُبابُهَـــا

الشيخ سيديّ.. البعد الرُّوحي

الأستاذ/ عبد الله السالم بن محمد بن المصطفى

الحمد لله رب العالمين

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد

تمهيد: القانون السائد في المجتمعات الموجودة في البلاد التي نشأ بها الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة وتعلم وتربى وعلم وساس وربى هو قانون القوة لذلك فالحروب مستمرة ومن لم يحارب اعتدي عليه وأصبح تابعا لمن هو أقوى منه والمجتمع منقسم إلى طبقات لا تعرف من الحكومة إلا القبيلة.

ورغم ذلك كانت هذه البلاد من القرن العاشر الهجري وحتى عهد قريب مركزا هائلا لتدارس العلوم من منطق وبيان ولغة ونحو وتفسير وحديث وفقه، فمن هذه البلاد تخرج علماء أفذاذ في كل المجالات ومن الغريب أن هذه البلاد ضمت إلى جانب الفوضى والحروب ترفا علميا ونهضة ثقافية كبيرة!

وفي هذا الجو ولد الشيخ كمال الدين أبو الأنوار الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة. فماذا عن مكانته الروحية التي جعلت منه معلما وموجها ومرشدا وداعيا إلى الله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينفق في سبيل الله ويحي الأرض الموات ويغيث الملهوف وينصر المظلوم؟

مكانته الروحية قبل رحلته إلى الشيخ سيدي المختار الكنتي: العناية الإلهية والسبق الأزلي هو سر السعادة ولكن إذا أراد الله شيئا هيأ له أسبابه. فمن الأسباب التي هيأت لهذا الشيخ ما ذكر هارون بن الشيخ سيدي من أن المختار بن الهيبة والد الشيخ كان صالحا خفيا، بقرُه لا ينطح وغنمه لا تحك على الخيام في السحاب وعبيده لا يصخبون على أحد عند المنهل ولا عند الخيام. وأشار إلى ذلك باب بن الشيخ سيدي في زيارته المشهورة والتي سجلها بأبيات منها: بحاجته نزيلُ بُغابَ آبا.. الخ.

كما ذكر هارون أن الشيخ سيديّ كان غاية قصوى في العلم والإتباع وفي العمل بما علم، حتى قيل إنه لم يفعل مكروها ولا خِلافَ الأَوْلَى منذ عقل إلى أن توفي رحمه الله تعالى رحمة واسعة وحتى قيل إنه في صغره وطفولته لم يقع منه ما يقع من الصغار ولم يُنتقد عليه شيء كأنما فطره الله على فعل الخير. وقد أشار الشاعر الكبير سيدي عبد الله بن أحمد دامْ البوحسني في قصيدته المشهورة إلى العناية الإلهية التي هيأت لهذا الشيخ أسباب السيادة وذلك بقوله في قصيدة طويلة: (بسيط)

فـــاللهُ بـــارك في نفـــس الكمـــال وفي ... مـــا الله موليـــه مـــن قُـــصوى ومقْتربَـــهْ
إن تـــستبق حلبـــات المجـــدِ راكـــضةً ... خيلُ المعالي تراه سـابقَ الحَـــــــلَبَهْ
رآه ذو العـــرش عـــلاَّمُ الغيـــوب لـــذا ... أهـــلا فـــساق لـــه مـــن قبْـــله سَـــبهْ
علْمًـــا وفهمًـــا يـــصيد المـــشكلات بـــه ... درْكَ الطِّمـــرَّة مـــن ســـرب المهـــى عَطِبَـــهْ
ومـــصَّ كـــلَّ دَرُورٍ مِـــن مسلـــسلة ... دَرًّا تخيَّـــره للملـــك مـــن لَـــقبهْ

ويلاحظ أن هذه المكانة الروحية بدأت مؤشراتها تظهر حين كان الشيخ يتعلم على العلامة حرمة بن عبد الجليل العلوي. فقد ذكر أحمد بن الأمين الشنقيطي أن الشيخ كان يخدم حرمة خدمة العبد لمولاه وأنه انتدب يوما لسقي البقر وحلبه وتقديم القرى للأضياف ولم ينتدب أحد من التلاميذ لذلك غيره.وفي هذه الفترة قال قصيدته المشهورة مخاطبا إخوانه من طلاب العلم وحاثا على مكارم الأخلاق واستجلاب المحبة بين الإخوان وحاضا على تقوى الله وطلب العلم. وتظهر في القصيدة نزعته الإصلاحية قبل أن يصل إلى أشياخ الصوفية ومنها قوله: (طويل)

أيـــا معـــشرَ الإخـــوانِ دعـــوةَ نـــادب ... إلى الحـــق والمعـــروفِ لـــيْس بكـــاذبِ
أعـــيروني الأســـماعَ أُهْـــدِ إليكُـــمُ ... وصـــيَّةَ مُـــصْفِي النُّـــصْحِ غـــيرِ مُخالـــبِ
فـــلا تنتجـــوا البغـــضاء بـــالمزحِ بيـــنكُمْ ... بـــل استـــنتجوا بالـــدين ودَّ الأقـــاربِ
فكَـــسْرُ الأواني بالـــدِّفـــاعِ مُـــرُوءَةٌ ... يُـــباينُ فـــضْلاً كَـــسْرَهَا بالتَّـــجَاذُبِ

مكانته الروحية أثناء إقامته في حضرة أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي: إن الشيخ سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي ثم الوافي قد بلغ الغاية في التصوف وفي غيره من المعارف الإسلامية. ولذلك وصفه صاحب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور بقوله: *"قطب رباني وغوث صمداني وولي صالح وشيخ للأشياخ والسادات، ظهرت بركاته شرقا وغربا ومناقبه في الناس عجما وعربا، ساقي المريد وعمدة أهل التوحيد وله تآليف كثيرة، فلا غرو إذا تعلق أصحاب الهمم العالية بمن كانت هذه الأوصاف بعض صفاته الحميدة"*.

ومن أبرز الذين استفادوا من هذا البحر الزاخر الشيخ سيدي بن المختار بن الهيبة وإن كنا لم نطلع على حقائق ما حصله من معارف ربانية وتصورات صوفية عميقة فإننا سنحاول اعتمادا على بعض النصوص التي قالها الشيخ سيدي في هذه الفترة، وعلى النصوص التي خوطب بها من طرف أشياخه هؤلاء. فمن المعروف أنه لم يرحل إليهم إلا بعد أن تضلع من العلم وتصدر للتأليف والتدريس لكنه غامر حتى وصل إليهم بأزواد رغم بعد المسافة وهول الطريق. وإلى ذلك الإشارة بقول سيدي عبد الله ولد أحمد دامْ: (بسيط)

لمـــا تَغلْغَـــلَ في علـــم الـــشريعة مِـــنْ ... صـــافيه أعْمَـــلَ في نيْـــل العُلَـــى لُجُبَـــهْ
شـــدَّ الرحـــال علـــى عُتُـــق الركـــاب إلى ... تـــاجِ الأجـــلـــةِ مـــنْ ساداتِـــنا النُّخَبَـــهْ
فنـــال مـــا نـــال إذ حـــط الرحـــال ومـــا ... أدراكَ مـــا نـــال يـــا وَاهًـــا لهـــا رُتَـــبَهْ
فأصـــبح الـــشيخ مـــأوى كـــل ذي ظَمَـــإٍ ... كمـــا يُـــصبِّح مُـــسقى دجلـــة القـــرَبَـــهْ
تـــرى الوقـــار عليـــه والـــسَّكينـــةَ في ... حـــال الحفيظـــة ممَّـــا أن تـــنى غـــضبَهْ

وذكر هارون بن الشيخ سيدي رحمه الله أن الشيخ سيدي استشار رجلين من أمثل الناس من أهل تيشيت فأشار بعضهم إليه بالرجوع إلى أهله وقال له: *"لا أرى انك تزداد من شيء من العلوم"* بينما أشار إليه الآخر ألا يرجع حتى يغرف غرفته من هذا البحر الذي يذكر، يعني الشيخ سيدي المختار، فاستخار الله فقوى عزمه على الرأي الأخير.

ولما وصل إلى شيخه سأله عن اسمه فقال له: اسمي سيديَّ فقال له الشيخ سيدي المختار: هُدِي كررها ثلاثا، فتفاءل بذلك الكلام الطيب كما استبشر بمصادفتة لكبار التلاميذ وهم يقرؤون تفسير القرآن الكريم على الشيخ سيدي المختار وقد وصلوا إلى سورة "قد أفلح المؤمنون"، فتفاءل بذلك الفلاح. وحظي بمكانة روحية مرموقة في أوساط هذه الحضرة، فلقب بأبي الفضائل وأبي الأنوار.وتدل الأشعار التي قال الشيخ في هذه الفترة على عمق مكانته الروحية وتمكنه من التربية الصوفية الصادقة. فمن ذلك قوله في رثائه لشيخه الشيخ سيدي المختار: (بسيط)

ما اختار فاعلُـــمْ المُختـــارُ مُخْـــتـــارِي ... إن الرضَـــى واجـــبٌ بمَـــا قَـــضَى البـــارِي
لا تجْـزَعِـــي جَزَعَ المَنْـــقـــوفِ هامتُـــهُ ... وأظهِـــرِي الصبرَ نـــفْـــسِي أيَّ إظهَـــارِ

ومنها:

ومِـــنْ هنـــا يَعلـــمُ الـــدَّارِي برُتْبتـــه ... تـــنزيهَ وارِثِهِ عنْ هـــذِهِ الـــدَّارِ
شـــيخُ المـــشايخ نِـــبْراسُ النـــبَّارِسِ في ... ليـــلِ الجهالـــةِ للمستبـــصر الـــسَّـــارِي
منْ صـــارَ مـــنْ فقْـــدِهِ بَحـــرُ العُـــلا عَطِـــلاً ... مـــنْ بعـــد زهوتـــه بفـــرد تقـــصـــارِ
فـــيمَ البكـــاءُ علـــى مـــن لا يُـــغَيِّـــبُهُ ... عنك احتجابٌ ولا توديعُ أفْـــكَـــارِ من نـــصٍّ
إذ جـــاء معتـــضدا للـــدين آلَـــتَـــهُ ... خـــالصِ قـــرآنٍ وأخـــبـــارِ
مِـــنْ بَعْـــدِ ما دَثَـــرَتْ بُـــنَاهُ وانعكـــستْ ... بـــهِ مُـــرِبَّاتُ أرْوَاحٍ وأمْطَـــارِ

فالنص السابق يظهر أن مكانة هؤلاء الأشياخ بعيدة عن البدع لأنه قال "من نص خالص قرآن وأخبار" فالقرآن والأحاديث هما مصدر الإصلاح الديني الذي ذكر الشيخ أن البدع عصفت به رياحها وأمطارها. وفي هذه الفترة يظهر الشيخ سيدي رغم ما يعرف عنه من الورع نفسه وكأنها ملطخة من الذنوب كما يتضح في قوله:

هـــذا وإني بمـــا أهْـــدَيْتُ مُحْـــترسٌ ... مـــن خيبـــةِ الـــسَّعْيِ والكـــسارِ أظْفَـــارِي
ومـــستعينٌ بـــه فيـــمَا أُأمِّلُـــهُ ... من نـــيل أمنيـــتي مـــن محـــوِ أوزاري
مُنُّـــوا بِملْـــتَـــفَتٍ مـــنكم علـــى غـــرَقٍ ... في كـــل غـــيٍّ بـــه مـــوجُ الهَـــوَى جَـــارِ

وكذلك قوله: (طويل)

أتاكُمْ علـــى شَـــطِّ المَـــسَارِفِ زَائِـــرًا ... تَهَـــادَاهُ فِـــيحُ البِيـــدِ أغْـــبرَ أشْعَـــثَا
به انْـــشَبَتْ حُجْنَ المَخَـــالِبِ نَـــفْسُـــه ... فأبْـــقَـــتهُ في أخْـــبَائِه مُـــتَـــلَـــوِّثَـــا
وزجَّـــتْ بِه في لُـــجَّـــةِ الغـــيِّ والهَـــوَى ... إذا رامَ سَـــيرًا كَـــلَّـــفَـــاهُ تَـــمَـــكُّثَا
وفيمـــا يُلاقِـــي مِـــنْ جُـــشُـــوٍّ لَـــدَيْكُـــمُ ... دُلُـــوٌّ بِه يسْـــتَـــوْجِـــبُ النصرَ مَنْ جَـــشَـــا

وقد ذكر هارون رحمه الله أن الشيخ عبد الله بن داداه حدثه فقال: "كثيرا ما أسمع الوالـد يعـني الـشيخ سيدي محمد بن الداه بن داداه إذا أنشد آخر النونية: "جادت سحائب رأفة الرحمن" من قولـه: "إني وإن كنت المقصر أرتجي" يقول: لما أنشد الشيخ هذه القصيدة للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار قال له: ستنال ما رجوت كله أو أنا أضمن لك أن ترى ما رجوت كله ويقول الوالد وما أخذ عليه الكذب في ذلك فلنقرأ ذلك المقطع الذي يشير إليه "الراجل" رحمه الله وهو قول الشيخ سيدي: (كامل)

إني وإن كُـــنـــتُ المقـــصِّـــرَ أرْتَجِـــي ... بِهِمُ بلـــوغَ مَـــنَـــارِبـــي وأمَـــالـــي
وتَـــسَنُّمِي مِـــنْ كُـــلِّ فَـــضْـــلٍ قُنَّـــةً ... طالـــتْ صُـــعُودَ الـــشَّـــيبِ والـــشُّبانِ
وتَـــضَلُّعِي مِـــنْ كُـــلِّ عِلْـــمٍ نـــافِعٍ ... وتَـــفَـــجُّـــرِي بِيَـــنَـــابِعِ الفَـــيَضَـــانِ
وتَـــشَـــرُّبِـــي كأسَ المعـــارِفِ مُـــتْـــرَعًا ... في هَـــيْبَةٍ وتَـــأَلُّسٍ وتَـــفَانِ
وتَـــدَرُّعِـــي دِرْعَ الـــقَـــبُـــولِ مُـــجَـــرَّرًا ... بُـــرْدَ الـــتَّـــصَـــدُّرِ طَيِّـــبَ الأرْدَانِ
وحِـــيـــازَتِي خَـــصْـــلَ السِّـــباقِ مُجَـــلِّيًا ... في حلبَـــةِ النُّـــظَـــرَاءِ والأقْـــرَانِ
فَـــهُـــمُ الجَديرُ جَـــلِـــيسُـــهُـــمْ بِـــسِيادةٍ ... وســـعادةٍ وزِيـــادةٍ وتَـــهَـــانِ

وذكر الشيخ سيدي في كتاب مجمع الطي والنشر في أجوبة المسائل العشر في جواب المسألة السادسة عند ذكره للمقامات والمنازل التي يمر بها السالكون ما لفظه: *"وإلى هذا المعنى يشير قولنا في النونية التي أنشأناها في مدح مشايخنا رضي الله عنهم من: "ثم استمر لحجبه عن نفسه" إلى قوله: "وتحيل شدة صلب الصفوان" وهذا كله في "السالك من المريدين"*. وإليك تلك الأبيات:

ثم استَمَرَّ لِحَجْبِـــهِ عنْ نـــفسِـــه ... حتَّى يحالَ مَخَـــايِـــلَ الخُـــسْرانِ
بَـــيْـــنَا يُحَـــدِّثُ نـــفسَـــهُ بِمَخِـــيبِـــها ... فإذا به مِنْ كُـــمَّـــلِ الإنْـــسَـــانِ
مُـــتَحَـــلِّـــيًا ابْـــهَى الحُـــلَى مُتَعَـــطِّـــرًا ... بدَلاً منَ التَّعطيلِ والإلْـــتَـــانِ
برياضةٍ لا يُـــهْـــتَدَى لِـــسَـــبِـــيلِـــهَا ... إلاَّ بتوفيـــقٍ مِـــنَ المَـــنَّـــانِ

يَـتَـمَاسَكُ الْمُـنْـهَـــالُ من تسْخيرها وتُـحيلُ شدَّة صُـلْـبِ الـصَّـفْـوَانِ

وقد قال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار يخاطب الشيخ سيدي بقطعة شعرية فيها مدح ودعاء ورجاء صادق وتوجيه. وهي إشارة من الشيخ إلى تلميذه بأنه بلغ درجة الوصول والتصدر إلى غير ذلك من المصطلحات الصوفية التي لا يفهمها حق الفهم إلا من دخل في ميدان القوم وسلك مسالكهم وتلك القصيدة هي قوله: (طويل)

ألاَ لاَ دَجَى فكْرٌ بـه أنْـتَ تُـفْـكُرُ ولا عَـمِـيَـتْ عَـيْـنٌ بها أنـتَ تُـبْـصرُ
ولا غـاض فـيضٌ مِـنْ معـينِ عنايـةٍ بتيَّـارِهِ الغمْـرِ الغـطَمْطـمِ تعْبُـرُ
ولا زال مـن جـو الـسعادة جائِـدٌ بكلك لا يَنْـفَكُّ يـهمي ويَمْطُـرُ
وكنـتَ كمـا كـان الموفـقُ كُلَّـما بـدا عَلَـمٌ أشـفى لآخـر ينظـرُ
وعانقـتَ أبكـارَ المعـارفِ خـردًا وسـاعَدَك الـسَّعْدُ البـهيُّ المُنَـوَّرُ
وواجهـكَ الـرَّبُّ الكـريمُ بعطفـه وولـّى لـك النَّـوْلَ الـنَّـهِـيُّ الـمُوَفَّرُ
ولا عـصفتْ ريـحٌ بوجهـك دونـما لمنهاجـه حـتـا تـجـد وتخْطُـرُ
وأصـبحتَ مـأهولَ الـسَّـرائرِ رافـلاً بحـلَّـةِ عـرْفـانٍ تـزيـنُ وتـسْـتُرُ
ولا قطعتـكَ القاطعـاتُ ولا ثـنتْ عـنانَـكَ أغْـيـارٌ تَـلُوحُ فتحجُـرُ
لـكَ الخـيرُ سـدد مـا بقيـتَ مُـصمِّما وقاربْ فـمـن شـقَّ الـحجابَ يـنـورُ
وكُـنْ صادقـًا فـيـما أتيـتَ فإنـهُ لَيَكـثرُ بالـصِّدْق الـقلـيل ويَكْـبُـرُ
وتطـوى مَـسافات الرجـال بـطيِّهَـا بمـشـور مـا تطـوى الـدعاة وتـنـشرُ
وإن الفـتى مـن كـان في الله هِمَّـةُ وتـشميرةُ فيمـا بـه يَـتـصَـدَّرُ
يـرى الـصعبَ سـهلاً دونَ أصـغر همـه ويـنجـد في درك الوِصـالِ ويُـغْـوِرُ
وفي عينه حق العلى مـكـبـرٌ وما كان مـن حـظٍّ لديـه مـحقـرُ
وإني لا آلـوكَ جهـدي تطـفـلاً على تحف الحق الـتي لا تُـحَـجَّـرُ
وأرجـو لـكَ الـسَّعْدَ الـذي ظفـرتْ بـه أكـفُّ الأُلَـى مـنْ رِقِّ الاشْـيا تحـرَّرُوا

ولقد شارك الشيخ سيدي زمن إقامته في حضرة آل الشيخ سيدي المختار في جميع الأنشطة التي يقومون بها وخاصة الجوانب العلمية والتربوية مشاركة فعالة. فبالإضافة إلى ما ذكر، نجدُه يرد على ثورة محمد الجيلاني أو الجبلاوي البركوري التي ألف الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار في الرد عليها كتابه المسمى "الصوارم الهندية في حسم دعاوي المهدية". وبين الشيخ سيديّ في قصيدته التي أولها: "إلى متى هذا التواني مدام" والموجودة في الصفحة 188 من ج1 من الأخبار لهارون. وهذه القصيدة بيَّـن الشيخ فيها خطـر البدع وضلال هذا الثائر كما بين فيها صفات المهدي المنتظر.

ونجد هارون يذكر في كتابه هذا عدة نصوص شعرية على شكل معارضات أدبية صوفية رفيعة كالنص الذي أوله: "يا من يثيب لفائس الأعمال" الموجود في الصفحة **195** فهو تعليق على قول شيخه "حالي إليك شكوها يا سيدي" وتتميم له وكذلك قوله: "رفعت إلى مولاي جَلَّ شيكتي" الموجودة في ص: **207** فقد ضمنها قول شيخه: "مراقي العلى ذلل لموطئ أخمصي" وكتوجيهه للتلاميذ المريدين بعدة نصوص منها النص الذي أوله "يا من طوى طويتم" وهي على شكل أناشيد توجد في ص **172**. مما عمق هذه المكانة الروحية أن الشيخ حرص على جمع الكتب وخطها بيده أو بخط تلامذته وزملائه وعاد بها إلى أهله ومن تلك الرسائل والكتب الرسالة القلاوية ورسائلهم إلى آل محمد فودي وإلى الشيخ الأمين أحمد بن محمد لب.

المكانة الروحية للشيخ سيدي بعد رجوعه من أزواد: الشعراء والخطباء والمؤرخون عاجزون عن وصف تلك المكانة السامية التي حصل عليها الشيخ سيدي بعد أن كمل دراسته العلمية والصوفية على أجلاء دهره ثم رجع إلى أهله ووطنه. فلقد قال صاحب الوسيط إنه: *"رجل اتفق على أنه لم يظهر مثله في تلك البلاد، برع في معرفة الطريق وعلم الأسرار"*.

وقال: *"أذعنت له الزوايا وحَسَّان وصار مثل الملك بينهم، فلا يُعقِّبُ أمره وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما.. ولم تزل الدنيا تنهال عليه ويفرقها بين الناس. وكان إذا انقطع الطريق لعدم العمارة حفر فيها الآبار ويبعث المؤن الطائلة لقِرَى المارين"*.

ولما تكلم صاحب الوسيط عن الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل قدم عليه الشيخ سيدي بقوله: *"وما جاء بعد الشيخ سيدي مثله في إقبال الناس عليه..* وربط فضل الشيخ سيدي المختار الكنتي به فقال: *"ويكفيه أن الشيخ سيدي المتقدم حسنة من حسناته...* تلك المكانة التي، كما يقول أحمد ولد الأمين، *جعلت العرب في أرض شنقيط يتخذونه حرما آمنا فلذلك لجأ إليه الناس في هذه البلاد، ولم يمض عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس.. ولا يسأله أحد حاجة إلا أعطاه إياها بالغة ما بلغت..."* وذكر في معرض حديثه عن العلامة حرمة بن عبد الجليل قال: *"ولم يبلغ أحد من تلامذته مبلغ الشيخ سيدي ومحنض بن سيدي عبد الله الشقروي"*.

وقد عبر الشعراء والعلماء عن هذه المكانة، فنجد محمذن بن السالم البوحسني يضمن بيتين قيل إنهما من الحماسة وقد بالغا في المدح في قطعة شعرية يمدح بها الشيخ سيدي فيقول: (بسيط)

وقد أرى الناس فيكم ينشدون وما ... منهم محيطٌ بأدنى من أدانيكا
ما أحسنَ الناسُ مِنْ أكْرُومةٍ سلفتْ ... إلا رأوها على استحسانها فيكا
ولا تَحَلَّوْا بمعنًى يُسْتَحَبُّ لهم ... إلاَّ وكانَ مُعَارًا مِنْ مَعَانيكا
تُدْلِي القَصِيَّ مَتَى أقْصاهُ أقْرَبُهُ ... حتى يرى أنهُ أدْنى مَوَاليكا
نَيْلُ الأماني قليل مِنْ تَفَضُّلِكُمْ ... على جميع الورى من حَقٌّ عَافيكا

ومما يمثل إعجاب الشعراء بمكانة الشيخ سيدي وانبهارهم لها قول ابن أحمد دامّ البوحسني: (بسيط)

فنال ما نال إذ حَطَّ الرحالَ وما ... أدراكَ ما نال يا وَاهًا لها رُتَبَهْ
فأصبح الشيخ مأوى كل ذي ظَمَإٍ ... كما يُصبِّح مُسقى دجلة القربَهْ

وذلك الإعجاب نفسه بفضائل هذا الشيخ عبر عنه محمدن بن السالم بقوله: (وافر)

وقافيَة بَدلتُ الوُسْعَ فيها ... لتَصْلُحَ أنْ تُزَفَّ إلى الكَمال
أحاولُ أنْ أضَمِّنَهَا خِلالا ... تَضَمَّنَهَا فَمَنْ لِي بالمُحَالِ
إمامٌ في مصالحِ ذي البَرَايَا ... وفي كَسْبِ المَحامِدِ غيرُ آلِ
يداهُ غمامَتَانِ على البَرايَا ... على التَّذْءَابِ دَائِمَتَا انْهِمَالِ
فذي عَمَّتْ بِصَيِّبِهَا وهَذي ... تَخُصُّ بها ذوي الهِمَمِ العَوَالِي
تَجَرَّدَ لِلْعُلاَ شَيْحَانَ يَبغي ... مقاماتٍ عَصَيْنَ على الرِّجَالِ
لِمُعْتَرٍّ وَجَارٍ وَابْنِ عَمٍّ ... وَأَرْمَلَةٍ تَوَاكَلَهَا المَوَالِي
وعَرْجَلَةٍ مِنَ الغُرَبَاءِ شُعْثٍ ... مِنَ اللأْوَاءِ تَجْأَرُ كَالسَّعَالِي
جَمَعْتَ عَلَى مُكَلَّلَةٍ رَدَاحٍ ... كَجَابِيَةِ الْمُخَوَّلِ وَفْرَ مَالِ
وَمَلْهُوفٍ أَغَثْتَ وَذِي عِيَالٍ ... جَعَلْتَ عِيَالَهُ أَحْظَى عِيَالِ
وَعَانٍ قَدْ فَكَكْتَ وَمُسْتَضِيفٍ ... حَصَأْتَ لَهُ الرَّخِيخَ عَلَى السِّلاَلِ
لَقَدْ أَرْخَصْتَ في طَلَبِ المَعَالِي ... وَفِي كَسْبِ المَثُوبَةِ كُلَّ غَالِ
كِلا الغَوْثَيْنِ عَلَّكَ قَهْوَتَيْهِ ... ولَمْ تَتْرُكْ لِغَيْرِكَ مِنْ فُضَالِ
فَرُحْتَ وَلاَ يُعَابُ عليكَ فعلٌ ... ولا أُلْفِيتَ مَغْلُوبًا بِحَالِ
تُخَالِقُ بالجميلِ الخَلْقَ طُرًّا ... وأنتَ مع الجليلِ الفردِ خَالِ

فنرى من خلال هذه الأبيات وغيرها أن هذا الشيخ كان كثير العبادة والتفرد مع الله سبحانه وتعالى (وأنت مع الجليل الفرد خال). وهذا المعنى يظهر كثيرا في استسقائياته مع أن نفع الناس بسائر أنواع المنافع عبادة لا تقل شأنا لأنها متعدية.

وقد ذكر الباحثون أنه لم يظهر في القرن الثالث عشر الهجري مثل الشيخ سيدي، كما اتفقت حضرة أهل الشيخ سيدي المختار على أنها لم يخرج منها مثله.. بل قال أحد أحفاد الشيخ سيدي المختار إنهم لم ينتفع منهم أحد بعد ذهاب الشيخ سيدي عنهم. وبما أنه بلغ الدرجة العليا في علم التصوف وأنواع مراحل السلوك ومعرفة أمراض القلوب ومعرفة علاجها فقد سلك على يديه من خلق الله تعالى من لا يحصيه إلا خالقه وألف في ذلك التآليف النافعة.

وهذه المكانة تتجلى في إصلاح ذات البين ومحاولة التأليف بين قلوب الناس وتحكيم العدل وفق شرع الله

فيما شجر بينهم، باذلا في سبيل ذلك كلما أوتي من جاه وعلم ومال، باعثا الوسائل الطويلة المشحونة بالحكم والمواعظ المستنبطة من القرءان الكريم والحديث الشريف ترغيبا وترهيبا. وساعده على ذلك كون جميع الأمراء ورؤساء العرب وأهل الشوكة مابين تلميذ ومسالم ومهادن ومن لم يمكنه الوصول إليه بنفسه وصل إليه برسائله التي كانت تؤثر مثل تأثيره هو بنفسه.

ويبدو أن هذه المكانة التي حصّل تجاوزت الإطار المكاني لبلده حتى بلغت بلادا بعيدة. فلما قدم مراكش بالمغرب نال حظوة عظيمة من السلطان الذي وجد ابنه المسمى سيدي محمد بن عبد الرحمن ألكن لا يبين الكلام فتفل في فمه فانطلق بالكلام. وذكر أنه كان على صلة ـــ عن طريق المراسلة ـــ برجال في مكّة وبمركز سين لويس ومع السلاطين في مراكش ومع اثنين وربما أربعة من قادة الجهاد في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر للميلاد. وكلما تعززت السمعة والهيبة في الخارج فإنها ستتعزز أكثر في الداخل.

كما ذكر هارون اعتمادا على بعض الباحثين أن الشيخ سيديّ أصبح صانع القرار في الشؤون الدينية بلا منازع في بلاد شنقيط ولعله من أجل ذلك حاول توحيد الإمارات في مؤتمر تِنْدَرْجَ سنة **1856**م. وأسس بمنطقة الكبلة تنيظما روحيا يقوم على أساس ديني واجتماعي ذي طابع إصلاحي سد الفراغ السياسي والسلطوي الذي ساد في المنطقة بسبب غياب الأمن والتشار الفوضى والسلب والنهب. فوقف في وجه هذا الفساد وأحل محله الإصلاح والوئام فتتلمذ عليه السادة وتدرع به المسودون. ويمكن أن نفهم قوة الإحساس والشعور بالمسؤولية الإسلامية التي تستوجب الوقوف في وجه الظلم ومحاربة أهل الفساد في الداخل والخارج، نفهم ذلك من القصة التي قدم بها مؤلف الوسيط لقصيدة الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي التي أولها: (وافر)

رُوَيْدَكَ إنني شَبَّهْتُ دَارًا ... على أمْثالها تقفُ المَهارَى

قال المؤلف: *"وكان يبعث بشعره إلى أبيه وكلما رأى شيئا من شعره مزقه، حتى قال هذه القصيدة يحرض الناس فيها على الاستعداد للنصارى ويأمرهم بمحاربة أهل البغي من قبائل حسان فلما عرضت على والده قال: "صاحبكم الآن قال الشعر"*. فنقده بهذه الطريقة حسب معيار ديني وسياسي واضح. ويبدو أن هذه هي عادته في توجيه الشعراء. لذلك قال صاحب الوسيط: *"ذكروا أن مريم بنت بلا بن مكبد البوحسني نبغت في الشعر وكانت تمدح العلماء ويمدحونها حتى كتبت قصيدة للشيخ سيدي تمدحه فكتب إليها: "المرأة كلها عورة"*. وقال أيضا ابن السالم البوحسني، وهو مقيم عند الشيخ سيدي، مما يبرهن على مكانة هذا الشيخ الروحية التي جعلت شعراء الغزل يكيفون أقوالهم وعواطفهم احتراما له وتأدبا: (بسيط)

أهلا وسهلا بطَيفِ الخودِ فاطمة ... لكن ربقةَ آلِ الشيخِ في عُنُقي

لا تحسبي لفَشاتِ الشيخ مُبْقِيَةً ... مَرمى لنبلٍ لحاظ الجؤذر الحرقِ

لا ينبغي لامرئ أمسى تَعَلُّقُهُ ... بالشيخ يصبو إلى الجيدانة الفنقِ

ما حـضـرةُ الشيخ مَـلْـهى عاشقٍ كَلِـفٍ ولا الكـلى والـعـجى يُجْـمَعْـن في شدْقِ

ولا يمكن استقصاء الأشعار والأقوال الدالة على هذه المكانة الروحية المرموقة.. ولكننا نشير إلى نموذج من الاشعار التي قالها في الاستسقاء لانها تمثل تعلقه بالله وتضرعه إليه ومنها قوله: (طويل)

ألا عِـمْ صَـبـاحًا يا أبـا تِـلِـمِـيتـا وحُـزْ مِنْ نَـجاحٍ مـا أردْتَ وشِـيـتـا
وساقَ إليـكَ اللهُ كُـلَّ فـضـيـلـةٍ وجادَ بأرضـيكَ الجَـدَى فـحَظِـيتـا
وحَـفَّتْ بـكَ الخـيراتُ مـن كـل وجهـةٍ ونادَى مُـنادي الفـضلِ لحْـوَكَ هـيتـا
ونِـلـتَ مِـنَ الـرَّبِّ العظـيم عِـنايةً دَفُوعًـا تَـدُعُّ الأزْمَ والمَـرْمَرِيتَا
ومَـنْ رَهَـبُـوتَـى فيه خيرٌ بـما بَغَـى وافْـرَطَ في الطُّغيانِ مِـنْ رحَـمُوتَى
ولا برحـت أرجـاكَ مَـأْوَى ذوي التقـى يُقيمون فيها قُـرْبَةً وقُـنُـوتَـا

وله أيضا في هذا السياق الذي يكثر فيه من الدعاء وذكر أسماء الله الحسنى: (بسيط)

مـاءُ المراجيـعِ بَعْـد المَـدِّ قـدْ نَفِـدَا وليسَ يَـنْـفَدُ ما عندَ الـغَـنِي أبَـدَا
يا ربِّ إنـا لِـمَـا أنزلـتَ مِـنْ مَطَـرٍ وكُـلِّ خيرٍ إلـيـنـا عـائِلُـونَ صِـدَا
أنـتَ الإلـهُ إلهًـا واحِـدًا أحَـدًا بَـرًّا رَؤوفـًا قريـبًا ماجِـدًا صَـمَـدَا
نحـن العبيـدُ وإنْ كُنَّـا الجُفـاةَ فـلاَ نَـرَى سـواكَ إلـهًا يَـرْزُقُ العُبَـدَا
يا ربِّ هَـيِّئْ لنـا مِـنْ أمرنـا رَشَـدًا واهْـدِ الجميـعَ الـصراطَ المـستقيمَ هُـدَى

وهذه الاستسقائيات تستحق بحثا خاصا، كما أن ديوان ابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد خير شاهد على ما تحلى به الشيخ سيدي وأهل حضرته جميعا من استقامة على الدين الحنيـف. ومن ذلك قوله مخاطبا والده: (رجز)

ألـفـيـتُـمُ الـديـنَ بِقُطْرِ الـمَـغْرِبِ طارتْ بـه في الجوِّ عَـنْـقـًا مُـغْـرِبِ
ورسْـمُـهُ عَـفَـتْـهُ هُوجُ الـنُّـكَبِ ولَـمْ تُـعَـجْ لـهُ صُـدورُ الرُّكُـبِ
فَـشِـدْتُـمْ دعـمَ كـلِّ خَـرِبِ منه فـلـم يـهْـدَمْ ولَمْ يَـضْـطَـرِبِ
وعنـه ذدتم بـشَـبَا ذي شَـطَـبِ يُـجَـرِّعُ البغاةَ كـأسَ العَـطَـبِ
فـبَزَغـتْ شمسُ الهـدى في الغيهَـبِ فـابيضَّ كـلُّ أسـودٍ وأكْـهَـبِ
مُـشْـرِقـةً في نورهـا المُـحْـتَـجِـبِ تبارك اللهُ كـأنْ لَـمْ تَـجِـبِ
مِـنْ نورها اسْـتَـمَـدَّ نورُ الـشُّهُبِ فلاحت أسْـعُـدُ الـسنين الـشُّـهُـبِ
وآضَ صـابُ الـدهر بـتَ العِـنَـبِ وعاضَ نـابَـهُ بـبَـرْدِ الـشَّـنَـبِ
بـورِكَ فـيكمُ وفي مُطَيِّـبِ ما حُزْتُمُ بـاديـه والمُـغَـيِّـبِ
واللهُ يُبْقـيكُمْ لِـنَـفْـعِ الرِّيَـبِ ولَـفْـعِـنَـا مِنْ حاضرٍ وغَـيَبِ

وعَنْ سبيلِ الأبْطَحِيِّ اليَثْرِبِي جزاكُمُ خيرَ الجَزا خيرُ رَبِ
ادعوه في كمالِه المُسْتَوْجِبِ أنَّا متى ما ندْعُهُ يَسْتَجِبِ

ونلاحظ أن جميع الشعراء الذين مدحوا الشيخ سيديَّ، ركزوا على أن الخلق جميعا في تلك الفترة كان متعلقا بالشيخ سيدي رغبة في الخير أو رهبة من الشر، سواء في ذلك المريد المتصوف أو الخائف من اللصوص أو المتعلم للعلم أو المستفتي عن الأحكام الشرعية. كما تلاحظ في نصوص ابن محمدي وأخيه وفي نصوص محمدُّو بن حنبل أو في نصوص الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي التي منها قوله:

ادعوه في كمالِه المُسْتَوْجِبِ أنَّا متى ما ندْعُهُ يَسْتَجِبِ
لا زلتمْ في الحَرَمِ المُحَجَّبِ والناسُ مِنْ حُرْمَتِه في عَجَبِ
وانتمْ مِنْ قُطْرِهِ المُرَجَّبِ وعَصْرِهِ في مكَّةٍ ورَجَبِ
يا ياتِيهِ فَلٌّ أرَبٍ وهَرَبِ لكُ أخي مَخافَةٍ ولَرَبِ
فَآمِلٌ سَيحَ جِمامِ القُلُبِ ومُشْتَكٍ هَضْمَ اللُّصوص الغُلُبِ
ومُسْتَرِقٌ رامَ فكَّ الرِّقَبِ وسالكٌ رامَ جَوازَ العَقَبِ
وسائلٌ عنْ مُشْكِلٍ مُسْتَصْعَبِ وجاهلٌ يَمشي كَمَشْيِ المُصْعَبِ
فيُلْتَقَي جميعُهُم بمَرْحَبِ ولُبْسَطُ البُسْطُ لهمْ بالرَّحَبِ
وآدبٌ بالسَّقَرَى لمْ يَدْرَبِ والجَفَلَى مَهْمَا دعاهَا يَطْرَبِ
تَراهمُ لدى الجَنابِ المُخْصِبِ على القِرَى كالعَكَرِ المُعْصَوْصِبِ
فَمَنْ يُقِمْ يُزَدْ على المُظَلَّبِ ومَنْ يَؤُبْ فَحامِدُ المُنْقَلَبِ

وخلاصة القول، أن الشيخ سيدي بلغ من العلم والعمل به مبلغا جعله يعد في هذا القطر ــ إذا عد الكرام والعلماء والمربون وزعماء القبائل والمصلحون وأصحاب الأسرار ــ بالخنصر. والراجح أن تقوى الله تعالى هو أساس تفوقه، لأن القيم التي رسخ هي قيم إسلامية صافية إذ من المعروف أن الكرم والعدل ونصرة المظلوم والوفاء والصدق والإيثار والشجاعة والصبر والتواضع من أمهات الأخلاق الإسلامية التي حثت عليها نصوص الشرع ودل عليها هدي السلف الصالح. ونحن نعلم أن الإنسان مهما بلغ من الكمال والعبادة لا يمكن أن يضر ولا يمكن أن ينفع إلا بإذن الله تعالى وتوفيقه.. وأن العلماء هم ورثة الأنبياء وأن مقام الإحسان ــ وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ــ مقام معلوم بنص كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وإن الناظر بعين الإنصاف في أثر الشيخ سيدي وأعماله التي ذكرنا انطلاقا من أقوال الشعراء والعلماء في هذه العجالة التي لم نذكر فيها إلا قليلا مما كتب لعدم اطلاعنا على الآخر ولضيق الوقت، فنقول: إن الناظر إلى أعمال الشيخ سيدي وهديه بعين الإنصاف يراها جارية وفق الصراط المستقيم موافقة لدين الله القويم.

ويتضح أن أبناء الشيخ سيديّ واصلوا درب الإصلاح المستقيم بل لقد أضافوا بسبب النهضة الحديثة التي شهدها العالم الإسلامي من مصلحين مسلمين كمحمد عبده وابن باديس وغيرهما... أقول: إنهم أضـــافوا على منهج والدهم الإصلاحي إصلاحات جديدة كيفته مع أوضاع العصر تجاوبا مع عطاءات النهضة التي تمثلت في طباعة الكتب التي كان وجودها نادرا جدا.

وما جمعنا في هذه العجالة من صواب فمن الله سبحانه وتعالى وما كان من خطإ فمن نفسي ومن الشيطان. وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه. صلى الله وسلم على نبيه الكريم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين.

كلمة الدكتور/ محمّد المختار ولد آبّاهْ

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان لزاما علي أن أشارك في هذا الملتقى لأكثر من سبب. وقد كان أسفي كثيرا إذ لم أتمكن من أداء واجب هذه المشاركة.. وإني ألتمس العذر لنفسي أن لم أعرف تاريخ انعقاده إلا قبل يومين من بدئه ولم استطع أن أحضر افتتاحه لظروف ملزمة، لكني اليوم سعيد بحضور اختتامه.

لقد تعددت الدواعي التي تحتم علي أن أكون معكم في هذه المناسبة المباركة. فمنها ما هو موضوعي وهو الاعتراف بحق الفضل وبأحقية الاحتفاء بمقام شخصية فذة في مالَها من مواهب وأفضال ومكانة أسرة فريدة فيما لها من مكارم وأمجاد. إنها أسرة الشيخ سيديّ الكبير، مفخرة ومضرب الأمثال. وأسرة ابنه الشيخ سيدي محمد رمز الفتوة والعلوم والآداب. وأسرة نجله الإنسان الكامل والعالم العامل الشيخ سيدي باب الذي في كنانته أكثر من سهم وإبرة. وأسرة صنوه الأمجد أبي محمد الجواد وأبي يحيى الأستاذ، أعني الشيخ سيدي المختار صاحب المكارم. ومن هذه الدواعي ما يمليه علي واجب الوفاء لعلاقة عائلية حميمة توارثها الأسلاف وخلدوها في تراث علمي مشترك نظمت فصوله في عقود من التعاطي والتعاون في مختلف مجالات الحياة. ومنها أيضا ما يعنيني شخصيا، إذ كان من حسن حظي أن عملت عدة سنين في معهد بوتلميت مع الشيخ عبد الله بن الشيخ سيدي، ذلك الزعيم العالم العابد الذي لم يفتأ لسانه رطبا بتلاوة الذكر الحكيم.. ولم يزل حالاً مرتحلا بين سوره وآياته، فهو الرجل الذي عقد رباط الرشاء السانية عند دلوه. ويصدق فيه قول العلامة محمد عبد الرحمن بن السالك:

كَتَبَ الذي كتبتْ يدَا آبائه ... من كل مَكْرُمةٍ وزادَ بأسْطُرِ

وكم قد لمست من راحتيه عواطف الأبوة الحانية.

كما أتيح لي أن أعاصر الأئمة الأجلاء من إخوته وكان لكل منهم فضائله المتميزة في الأخلاق والعلوم والصلاح.. ولا يسعني إلا أن أذكر وأتذكر اثنين منهم وهما: الشيخ هارون الذي امتاز بسعة علمه ومثابرته على البحث وأمانته في النقل والأخ الصديق الشيخ سيلمان الذي تحمّل بكثير العزم والشجاعة أعباء تقاليد أسرته الكريمة ورعاها حق رعايتها.

ومنها أخيرا تقديري البالغ للمبادرة الطيبة التي قام بها الابن البار الدكتور إبراهيم ولد إسماعيل، التي أرى فيها ضرورة ثقافية ملحة لما لها من أهمية في توثيق تاريخ البلاد العلمي، فله مني أجزل الشكر والامتنان.

كما أعرب عن تثميني وإعجابي المسبق بكل البحوث التي قدمتها مجموعة من علية الأساتذة في موضوع الموروث الثقافي والأدبي للشيخ سيدي، مع العلم أن الموضوع قد يتطلب أكثر من ندوة وأكثر من ملتقى، فليكن هذا الملتقى براعة استهلالها.وعلى الله قصد السبيل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شهادة تيكمّاطين حول الشيخ سيديّ الـكبير

الدكتور/ أحمدُّو بَنْبَ ولد صَيَارْ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلماتي يعتامها العياء عن أن تعبر عن مكنون نفسي في ظلال هذه الندوة التي تثلج الصدر وتيسر الأمـر وتستوحي الشعر وتُقوِّم الفكر وتُـنير المسار. فهذه الدوحة في جنباتها عبر ومن نسماتها نغم وتحت ظلالها يسرح العارفون. ولا أقل إذن من أن يتعاون ويتكامل أهل الله من أرباب الحقيقة والفكر مستلهمين مـن شمولية عـلـَـمٍ كعَـلـَـمنا اليوم لتدارك أمة نسيت ما لديها ومضت مع هواها تتلمس ثغرات الغيورين الذين حرموها الدمعة وحرمونا البسمة، ذبحونا وليتهم أحسنوا الذبح! وصدق القائل: (وافر)

حَـوَتْ مَـا دونَ مَرْتَبَـةِ النَّـبِـيِّ يَدالكَ مِنَ المَكَـارِمِ والمَعَـالِي

أشراف تيكماطين، من خلال ألف سنة من التاريخ، يقولون بأنه منذ أفول دولة المرابطين إلى تشكل الدولة الحديثة، لم يتفق ساكنة هذه الأراضي بمختلف أطيافهم وأعراقهم وإثنياتهم على شيء قدر اتفـاقهم علـى فضل وسخاء وشمولية الشيخ سيدي الكبير.

وإذا كان التصوف قد طبع الموروث الثقافي لحوض نهر السنغال، وفَعَّل التواصـل العلمـي والتجـاري والاجتماعي بين شعبين مختلفين ولونين مختلفين وثقافتين مختلفتين، فإن الشيخ سيدي الكبير كان أحد أكـبر رواده، إذ أصبح التصوف على عهده مؤسسة اجتماعية كبرى تعيد توزيع الدخل وتبرم معاهدات الـسلم وتتبنى المناظرة والسجال والحوار وتصدر المشايخ القادرية وتمحو العصبية العمياء وترعـى حمـى الـوطن (تندوجه الرَّكبه). أما في الجانب التاريخي، فإن الموسوعية والحياد والمكتبة الزاخرة والتعاطي المعرفي الحر في حرم الشيخ قد دفعت لا شك حينها إلى بزوغ النواة الأولى لما يمكن أن يسمى بإعـادة كتابـة التـاريخ الموريتاني وغربلته ورفع مقص الرقيب عنه والتبشير في القرون الصامتة..

وأنا اقترح على المؤتمرين إدراج بند على جدول الأعمل يوصي بتشكيل: "مركزالشيخ سيدي للدراسات التاريخية"

وأشكركم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ الصحفي/ دَدّ محمد الأمين السالك

بسم الله الرحمن الرحيم

الذي يحاول أن يتكلم عن الشيخ سيدي رحمه الله يجد نفسه أمام دوّامة من الخيارات لا أول لها ولا آخر.. حيث سيجد نفسه موزعا بين عشرات العناوين هو حائر بأيها يبدأ.

أيبدأ بالعلم والفقه وجميع صنوف المعرفة التي لا تحدها الحدود، حيث يرفع الله عباده الذين أوتوا العلم درجات هو أعلم بمكانتها؟

أم يبدأ بالورع الذي يميز العارفين بالله، «إنما يخشى الله من عباده العلماء»؟ أم يبدأ بالكرم حيث إيواء الضعيف وإكرام الضيف وصلة الرحم ومواساة المريض وإغاثة المكروب وغيرها من شيم الكرم والمروءة التي يميز الله بها من اختارهم من عباده «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»؟

أم يبدأ بطيب السلوك والثقة بالنفس والعمل على منافع المسلمين وإصلاح ذات بينهم تقربا إلى الله وابتغاء ثوابه دون البحث عن جزاء من مخلوق ولا شكر، وإنما خوفا من ربه يوما عبوسا قمطريرا؟ وقانا الله وإياه والمؤمنين شر ذلك اليوم ولقانا نضرة وسرورا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. أم يبدأ بحسن الخلق الذي يختزل هذه الخصال كلها ويشملها كلها ويهيمن عليها. فبه ثنى الله جل جلاله على خير خلقه وأكرم خلقه سيدنا وحبيبنا ونبينا محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقال: «وإنك لعلى خلق عظيم»..؟ وأثنى صلى الله عليه وسلم على أصحاب هذه السمة فقال: "إن أقرب أمتي إليّ يوم القيامة أحسنهم أخلاقا". وما أعظمها من تكرمة! القرب من الحبيب صلى الله عليه وسلم. بأي هذه العناوين وغيرها يمكن أن يبدأ الحديث عن الشيخ سيدي رحمه الله؟

أعتقد أنه من الإنصاف للنفس أن يعترف الإنسان بعجزه عن إيفاء هذا الشيخ الجليل حقه مهما كانت قدرته التعبيرية. ولذلك أختصر ما أريد قوله في هذا المجال وما أكثره في: "أن الشيخ سيدي، رحمه الله، خلقه الله ليكون ظاهرة استثنائية بكل المعايير.. فهو ظاهرة استثنائية في العلم والمعرفة والورع والكرم والمروءة وحسن الأخلاق".

والمتتبع لحياته العلمية وحدها رحمه الله يجد نفسه أمام ما يقارب خمسين سنة من الترحال والسعي وراء العلم، بدأت من منطقة بوتلميت لتمر على "لعكل"، حيث محظرة حُرمة ولد عبد الجليل، ثم محظرة أهل حبيب الله في لبراكنة ثم تيشيت فولاته، ليحط الرحال في محظرة الشيخ سيدي المختار في أزواد، حيث قضى حوالي سبع عشرة سنة عاد بعدها الشيخ سيدي عالما بحرا مربيا عارفا بالله، ليبدأ مرحلة عطاء لا حدود لها في شتى مجالات الحياة انطلاقا من قناعته الراسخة بضرورة إصلاح مجتمعه، فباشر برعاية مصالح الناس ودفع الضرر عنهم ونشر ثقافة السلم وإصلاح ذات البين.. ونشر العلوم بكل أنواعها، فأجاز

عشرات الرجال علماء ولغويين وغيرهم.

وإضافة إلى ذلك كان رحمه الله قدوة لغيره عالما ورعا متبعا سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فكان مَحطّ الرحال ومأوى الضعاف والفقراء.. وكان مهابا لا يُخشى على حرمه من عدوان.

وهذا الإرث الأخلاقي والعلمي العظيم تركه رحمه الله كلمة باقية في عقبه، أمانة في أعناق أبنائه الذين ائتمنهم عليه بدءا بالشيخ سيدي محمد رحمه الله وإلى اليوم فحفظوه وصانوه وتحملوا أعباء الحفاظ على مكانته الرفيعة. فمنهم من قضى نحبه سائرا على هذا الطريق ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. جزاه الله خيرا عن الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مظاهر التطور والتجديد في شعر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديّ

الشاعر والناقد الأدبي/ محمّد الحافظ بن أحمدُو

بسم الله الرحمن الرحيم

إن مظاهر التطور والطبع والانسياب والانثيال تستعلن في أول شعر تطالعه لهذا العبقري الملهم الذي تتفصّى شخصيته الأدبية والعلمية والأخلاقية مِنْ أن تُحَدَّ بحدود تعريفية جامعة مانعة. وما ذاك إلا لخصوبة هذه الشخصية وسخاء مواهبها وانديا ح رقعة معارفها الموسوعية المذهلة.

وما ظنك بشخصية تتواشج فيها مظاهر المعرفة العلمية المتخصصة في العلوم الشرعية من أصول دين وفقه ومعرفة باختلاف المذاهب وائتلافها مع مظاهر شخصية الفنان المبدع الملهم الذي لا تكاد رصانة الوقار العلمي تحجب تدفق شاعريته المُطَوَّحَة الأخيلة؟ هذا إلى مظاهَر شخصية أخرى ذات بعد صوفي عميق تعرج بصاحبها إلى أرقى معارج التَّزَكّي والطُّهر والتألق الروحي...

ولكن هذه المظاهر المتعددة للنشاط الروحي والثقافي لهذه الشخصية تأتلف ولا تختلف إذ أن شعر الشاعر كله ينم عن أصالة هذه الشخصية وانسجامها واستعلائها من خلال آثارها الإبداعية المتعددة. إننا نكاد نتقرّى هذه الشخصية بلمس إذا استعرنا عبارة البحتري.

إنها شخصية ذلك الشاعر الملهم المُتَدَلِّه بالجمال الصادق اليقين المتين الدين الأبيِّ الأشَمِّ الأريحيِّ الكريم النبيل الجليل الذي لا يخلو مزاجه الوقور من مسحة نكتة غير جافية مدّته بلون من السخرية غير اللاذعة كان وجودها نسيجَ وحدِه في الشعر الموريتاني، إذ قَلَّ أن نجد هذه المسحة في غير الهجاء. وذلك ما تجلى في أبياته: (بسيط)

ما هَزَّ عِطْفَيْ كَمِيٍّ يومَ هَيْجاءِ ... بينَ الأوَانِي كَدِي النُّونيْنِ والَاءِ

الأبيات.

وإني لموقن بالقصة التي رافقتها من تطييبه لخاطر مَن ذكره فيها تنكيتا بأنْ نحله جملا نجيبا. إن هذا لمنسجم تماما مع ما تشي به معاني شعر الشاعر من الجمع بين الوقار الديني الصارم والظرف الأدبي السامي. ومن ذلك الأبياتُ التي يقول فيها: (طويل)

فَلَوْ أنَّ أرْضِي ذاتُ مُعْزٍ رَجَمْتُني ... ولكنَّهَا ليستْ بذاتِ أمَاعِزِ

وقوله في رائيته الشهيرة: (وافر)

رعاءُ الشَّاء حقًّا مَنْ رآهمْ ... يقول:هُمُ الرِّعَاءُ وما تَمارى

وقوله في القصيدة المتدافعة عند الناس بين التبغ والشاي، وإن كان السياق الشعري يرجح أنها في الشاي: (وافر)

وإنَّ لَـهَا فـوائدَ وَاضِـحَـاتٍ يَـرَاهَـا كُـلُّ ذِي نَـظرٍ أَصِـيلِ
إزَالَـةَ حِـقْدِ ذِي الحِقْـدِ المُنَاوِى وتَحْـبِـيـبَ الـخَـلِـيلِ إلى الخَلِـيلِ
وجَـبْـرَ خَـوَاطِـرٍ وَقـضاءَ حَاجٍ ومَعْرفةَ السَّخِـيِّ مِنَ الـبَخِـيـلْ
وفـوزا إن تعاطاهـا النـدامَى بتمييز الظريـف مـن الثَّـقِـيـلْ

أما مظاهر الروعة الفنية التي تنبئ عن أصالة شاعرية الشاعر، فهي مظاهر متعددة، منها ما هو إبداع من خلال استيعاب التراث وإعادة صياغته بعد تَمَثُّلٍ ذكي تظهر فيه أصالة الشاعر واستعلان شخصيته ومنها ما هو إبداع وابتكار. ويظهر لك ذلك من خلال إحساس الشاعر بأزمة الإبداع: (كامل)

يا مَعْشَرَ البُلَغَاءِ هلْ مِن لَوْذَعِي يُهْدِى حِجَاهُ لِمَقْصِدٍ لَمْ يُبْدَعِ
إني هَمَمْتُ بأنْ أقُول قَصِيدةً بِكْرًا فأعْيَانِي وُجُودُ المَطْلِعِ

لا يقلل من أهمية هذا الطرح لأزمة الابداع أن طائفة من الشعراء القدماء قد تطرقت إلى التبرم باجترار الشاعر لإبداعات سابقة. فقد قال عنترة: (كامل)

هلْ غادرِ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ؟ أم هل عرفت الدار بعدَ تَوَهُّمِ؟

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه: (خفيف)

ما أرانا نقول إلاَّ رَجِيعًا ومُعَادًا مِنْ قَولِنَا مَكْرُورَا

وهذا وإن ساقه كعب في محاجَّة زوجه التي ضجرت من تبذيره وإسرافه، إلا أنه كثر استخدام النقاد له في مجال الضيق بالمقدمات الشعرية المعادة المكرورة.

أقول: لا يقلل من أهمية الدعوة إلى التجديد عند الشاعر أنها تحيل إلى بعض مآخذ النقاد القدماء كالجرجاني وابن طَباطبا والآمدي وغيرهم إلى هذه المحاسبات العسيرة للشعراء خاصة وأن الشاعر أدرج السرقات الأدبية في مجال نعي التقليد و الاجترار: (كامل)

واليومَ إمـا سارقٌ مُسْتَوْجِبٌ قَطْعَ اليمينِ وحَسْمَهَا فَلْيُقْطَعِ
أو غاصبٌ مُتَجَاسِرٌ لَمْ يَثْنِهِ عن هَمِّهِ حدُّ العَوَالِي الشُّرَّعِ
مهْمَا رأى يومًا سَوَامًا رُتَّعًا شنَّ المَغَارَ على السَّوام الرُّتَّعِ

إلا أن الشاعر في هذا البيت الأخير قد ابتكر هذه الصورة الجميلة، وذلك كعادته في تمثل شعر القدماء واستيحائه واستلهامه. و هو ما اضطرنا إلى أن نصطلح لهذا اللون بـ: "الإبداع من خلال التقليد".

فالشاعر – و إن لم يخرج عن المألوف المتواضع عليه من التعبير العربي – قد استثمر هذا التراث بحذق وأصالة بحيث بقيت أبصامُ[1] شخصيته الأدبية واضحة متميزة. إننا لا نكاد نجد لهذا الشاعر نظيرا من الشعراء الموريتانيين في سعة الإحاطة بالموروث الشعري العربي، أو كما يحدث عن نفسه في نونيته الشهيرة: (وافر)

أدَمْعًا تُبْقِيَانِ بِغَرْب عَيْنٍ وقَدْ عايَنْتُما دَارَ الكُنَيْنِ

فقد ذكّر الشاعر فيها بأبي العلاء المعري من حيث إحالة القصيدة الواحدة إلى معارف شعرية تتسع لدواوين متفرقة.. ولنقرأ مثلا قوله:

وإنْ لَمْ يبقَ منها غيرُ رسْمٍ كوشمٍ في نَواشِر مِعْصَمَيْنِ

فإنه يحيل إلى زهير. و قوله:

فقُلتُ لَهُنَّ إنْ يَكُ وَخْطُ فَوْدِي يَسُوءُ الفَالِيات إذا فَلَيْنِي

فإنه يحيل إلى قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي رضي الله عنه:

تراهُ كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسكًا يسوء الفالِيَاتِ إذا فَلَيْنِي

ويذهب بنا في قوله:

وَكَمْ يَوْمٍ وَتَرْتُ بِهِ الْعَذارَى كَيَوْمِ مُهَلْهِلٍ بالشَّعْثَمَيْنِ

إلى المهلهل التغلبي و هو يخوض حرب البسوس الملتهبة: (وافر)

فلو لُبِس المقابرُ عن كُلَيْبٍ فيُخْبَرَ بالذَّنائب أيُّ زيرِ؟
بِيَومِ الشَّعْثَمَيْنِ لَقَرَّ عَيْنًا وكيف لقاءُ مَنْ تحتَ القُبُورِ؟

وقد تكون الإحالة إحالة رمزية، فكما رمز حُمَيْد بن ثور رضي الله عنه للمرأة بالشجرة في قوله: (طويل)

أبى اللهُ إلاّ أنّ سَرحةَ مالِكٍ على كل أفنانِ العِضاهِ تَرُوق

وكما رمزت هند بنت عصم السدوسية بالمطايا عن الأناسيِّ تعمية وكناية في قولها: (طويل)

ألاَ لاَ أرَى ماءَ المُصَبَّح شَافِيًا لُفُوسًا إلى أمواهِ بَقْعَاءَ نُزَّعَا
فَمَنْ جاءَ من ماءِ السَّيَال بشُرْبَةٍ وقد زادنا فإنّ له من ماءِ لِينَةَ أرْبَعَا
وَجَدْنَا بِبَقْعَاءَ أنَّا وَجَدْنَا مَطايَانَا بِلِينَةَ ظُلَّعَا

---

[1]- اتخذنا حلا وسطا في إيراد هذه الكلمة، فكلمة البصمات التي يُعبّر بها عن اثر الأصابع و يُكنّى بها عن طابع الشخصية او الخاصية المميزة للشيء، لم نجد لها أثلا و لا نجرا في معاجمنا اللغوية القديمة إلا ما كان من البَصْم بضم الباء و هو ما بين الخنصر و البنصر والفوت الفرجة ما بين إصبعين ولا يبعد أن يتوسّع المعني الشائع من هذا الأصل على سبيل المجاز، و من أجل ذلك فقد اتخذنا قياس جمع فَعْل على أفعال كقفل و أقفال ومُدْ وأمداد فجمعنا البَصْم على أبصام.

فكذلك رمز الشاعر إلى النساء اللائي جاذبَتْه الصَّبْوة إليهن فظَلَف نفسَه الورعُ وزجره الرقيبُ الديني والأخلاقي، نراه يرمز إلى هؤلاء النسوة بالنجوم في مقطع شعري يدل على تبحره في علم الفلك البدوي، فاستمع إليه يقول:

تُلاحِظُنِي الْعَبُورُ مَعَ الْغُمَيْصَا ... فَآلَفُ عَنْهُمَا لِلْمِرْزَمَيْنِ
وإنْ أبدتْ لِي الجَوْزَا وِشَاحًا ... سَلَكْتُ بِهَا سَبِيلَ الشِّعْرَيَيْنِ
وإنْ تُشِرِ الثريَّا لِي بِكَفٍّ ... خَضِيبٍ قُلْتُ عَنِّي لِلْبُطَيْنِ

وتكاد تطالع جردا للمعارف الحظرية من عقيدة وفقه وتصوف ونحو وجدل ومنطق ومعارف شعرية وتاريخية في هذه اللقطة الشعرية الرائعة:

وكَمْ سامرتُ سُمَّارًا فُتُوًّا ... إلى المجْدِ التَمَوْا مِنْ مَحْتِدَيْنِ
حَوَوْا أدَبًا عَلَى حَسَبٍ فَدَاسُوا ... أديمَ الفَرْقَدَيْنِ بأَخْمَصَيْنِ
أُذَاكِرُ جَمْعَهُمْ وَيُذَاكِرُونِي ... بِكُلِّ تَخَالُفٍ فِي مَذْهَبَيْنِ
كَخُلْفِ اللَّيْثِ والنُّعْمَانِ طَوْرًا ... وخُلْفِ الأشْعَرِيِّ مَعَ الْجُوَيْنِي
وأورادِ الجُنَيْدِ وفِرْقَتَيْهِ ... إذا وَرَدُوا شَرَابَ المُشْرَبَيْنِ
وأقوالِ الْخليلِ وسِيبَوَيْهِ ... وَأهْلِي كُوفَةٍ وَالأَخْفَشَيْنِ
لُوَضِّحُ حيث تَلتبسُ المَعَانِي ... دَقِيقَ الفَرْقِ بَيْنَ المُعْتَنَيْنِ
وأطْوَارًا نَميلُ لِذكْرِ دَارَا ... وَكِسْرَى الفارسِيِّ وَذِي رُعَيْنِ
ونحوَ السِّتَّةِ الشُّعراءِ نَنْحُو ... ونَحْوَ مُهَلْهِلٍ وَمُرَقِّشَيْنِ
وشِعْرَ الأَعْمَيَيْنِ إذا أرَدْنَا ... وإن شِئْنَا فَشِعْرَ الأَعْشَيَيْنِ

ويكاد يطول بنا الاستطراد إذا تتبعنا كل إحالة إلى بيت أو حادثة تاريخية أو مثل عربي سائر. من ذلك مثلا قوله:

فحَاوَلَ أنْ يُبَارِيَ فِي البَرَارِي ... هِجَفَّيْ سَابِقٍ بالدَّوْكَكَيْنِ

فإن هذا البيت مستوحى من الصورة الشعرية في بيت شعر قديم للشاعر المخضرم تميم بن مقبل العجلاني، غير أن القارئ يلاحظ أبدا صدور الشاعر عن أصالته الشعرية. وبيت ابن مقبل المذكور هو قوله: (طويل)

يكادان بينَ الدَّوْكَكَيْنِ وأَلْوَةٍ ... وذاتِ القَتَادِ السُّمْرِ يَنْسَلِخَانِ

وحسبك باتساع دائرة المعارف الأدبية أن يكون قد ألمّ بشعر ابن مقبل ومن في طبقته من الشعراء الذين لم يكن الدارس الأدبي ليصل إليهم بسهولة، خاصة في بئة أدبية درجت على العناية بشعر أصحاب المعلقات وغيلان وكبار شعراء العصرين الأموي والعباسي. أما قوله في نفس القصيدة:

تَقـــاذَفُ بينَهَـــا الظِّـــرَّانُ شَـــتّى تَقَـــاذُفَ أيْمَنِيْـــنٍ وَأعْـــسَرَيْنِ

فتتضح قرابته الفنية بقول امرئ القيس: (طويل)

كـــأنَّ الحَـــصَى مِـــنْ خَلْفِهَـــا وأمامِهـــا إذا نَجَلَتْـــهُ رِجلـــُها حـــذْفُ أعْـــسَرا

وقوله، أي امرئ القيس، في نفس القصيدة:

تُطايِـــرُ ظِرَّانَ الحـــصا بمَناسِـــمٍ صِلابِ العُجَـــى مَلْثومُهـــا غـــيرُ أمْعَـــرَا

وفي قوله:

رعَـــى روضَ الحِمَـــى غَـــضًّا نَـــضيرًا فلـــم يحـــتجْ لمـــاءِ الدُّحْـــرُضَيْنِ

إشارة إلي قول عنترة في معلقته: (كامل)

شـــربَتْ بمـــاءِ الدُّحْرُضَـــيْنِ فَأصْـــبَحَتْ زوراءَ تَـــنْـــفِرُ عـــن حيـــاضِ الـــدَّيْلَمِ

أما قوله:

فـــعِشْ حُـــرًّا فـــإنْ لَمْ تَسْـــتَطِـــعْـــهُ فَـــضَرْبـــًا في عُـــــراضِ الْجَحْفَلَـــيْنِ

فإن إحالته إلي بيت الأعرابي أجْلى. ولا نستبعد ــ بل نجزم ــ أن شاعرنا قد قرأ القصة كاملة في الأمـــالي (النوادر) فأورد البيت تضمينا وهو: (وافر)

فعِـــشْ عَـــزَبًا فـــإنْ لَمْ تـــستطعه فَـــضربًا في عُـــــراض الجَحْفَلَـــيْن

وهذه القصيدة من أروع قصائده ومن أجمعها لشتات المعارف العربية الإسلامية التي أوردهـــا الـــشاعر في أصالة طبع وبعد عن التقليد والإسفاف ولا نستبعد أن يكون قد عارض بها قـــصيدة أبي تمـــام في مـــدح إسحاق بن إبراهيم: (وافر)

خَشُـــنْتِ عـــليه أختَ بـــني خُـــشَـــيْنٍ وأنْجَـــعَ فيـــكِ قَـــولُ العاذليْـــــنِ

ورغم أن قصيدة شاعرنا أطول وأكثر تفننا في الأغراض وأوسع استعراضا لأفانين المعرفة، فإن بينهما مـــن الوشائج ما لا نستبعد معه أن يكون نظمها معارضا. ومع ذلك فستظل قصيدة شاعرنا أصيلة بديعة محتفظة بطلاوتها ومائها الصحراوي ونبعها الفياض.

وحسْبُ شاعرنا أن يجاذب هذا الطود الطائي الأشمَّ ملاءةَ الفخر بهذه الآبدة! فإذا زاحم شاعرنا المبـــدع حبيبَ بنَ أوس الطائي كتفا بكتف ومنـــكبا بمنكب، فمـــا باليسير ذا اللقـــب إذا استعرنا هذه العبـــارة من "أمير الشعراء أحمد شوقي".. نعود إلى موازنة سريعة بين هذين العِلْقيْنِ النَّفيسَيْن، يقول أبو تمام:

أنـــأيًا واجْتـــنابًا أيُّ صَـــبْرِ على البلـــوَى يُقَـــسُ بـــيْن ذيْـــن؟
ألم يُـقْـنِعْـــكِ فيـــه الهَجـــرُ حَـــتى بَكَلـــتْ لِقَـــلْبِهِ هَجْـــرًا بِبَـــيْنِ
بِـــمَا تَـتَرَشَّـــفِينَ نِطَـــافَ وُدِّي وتبتهجـــين عنـــد حُـــلولِ دَيْـــنِي
لَيَالِـــيَ لا تَـــرَيْنَ الـــدمعَ تُـنْـــسِي شُؤُولُـــكِ غَـــرْبَهُ حـــتى تَـــرَيْنِي
لإســـحاقَ بـــنِ إبـــراهيمَ كَـــفٌّ كفَـــتْ عافِيـــهِ نـــوْءَ الْمُـــرْزَمَيْنِ
ولُـــورَا سُـــودَدٍ وحِجًـــا إذا مـــا رأيْتهمـــا رأيـــتَ الـــشِّعْرَيَيْنِ
ومجـــدٌ لَمْ يدَعْـــهُ الجُـــودُ حـــتى أقـــامَ مُنَاوِئًـــا لِلْفَـــرْقَدَيْنِ
حليـــفُ نَـــدًى وتِـــرْبُ عُـــلاً إذا مـــا هتفـــتَ بـــه وســـيفُ خَليفتَـــيْنِ
سَـــلِ الجبـــلَ الْمُمَنَّـــعَ كيـــف أحْنَـــى عليـــه زُخْـــرُفا نَـكَـــدٍ وحَـــيْنِ

إلى أن يقول:

محـــوْتَ بِهـــا وقـــائعَ مـــن مُلُـــوكٍ وكُـــنَّ وقـــدْ مَـــلَأْنَ الخـــافـــقينِ
صـــبيحةَ خـــازِرٍ أنـــسَتْ ومَـــهْوَى عُـــبَيْـــدِ اللّه فيهـــا والحُـــصَيْـــنِ
وَفيـــفَ الـــريحِ إذْ دَلَفَـــتْ مَـــعَدٌّ بـــأجـــمعها وأســـرةُ ذي رُعَيْـــنِ
وأيـــامَ الـــذَّنائبِ زَعْـــزَعَتْهَا ويـــومَ مُهَلْهِـــلٍ بـــالـــشَّعْثَمَيْنِ
وأيـــامَ الكُـــلابِ غـــدَاةَ هَـــزَّت مُـــرَارِيَّيْنِ فيهـــا مُتْرَفَيْـــنِ

أما ما يقابل ثقافة النجوم والأنواء فقد مر بنا ذكره في قصيدة شاعرنا. أما هذا المشهد الذي يستعرض مشاهد القتال ويستظهر المعارف التاريخية فيقابله من حيث الاستنطاق والاستلهام هذا المقطع الشعري عند شاعرنا:

وَكَـــمْ يَـــوْمٍ وَتَـــرْتُ بِـــهِ الْعَـــذارَى كَيَـــوْمِ مُهَلْهِـــلٍ بِـــالـــشَّعْـــثَمَيْنِ
وأطْـــوَارًا نَميـــلُ لِـــذكْرِ دَارًا وَكِـــسْرَى الفارســـيِّ وَذِي رُعَـــيْنِ

إلى قوله:

فَمـــالُ الـــمنـــذريْـــن يُـعدُّ فَـــقْـــرًا بِـــلاَ عِـــزٍّ ومـــالُ الـــحَارثيْنِ
وعِـــزُّ الحـــارثَيْنِ يُعَـــدُّ ذُلاًّ بـــلا مـــالٍ وعـــزُّ الْمُنْـــذِرَيْنِ

ولعل الشاعرين يَمْتاحان معًا رَكايا التجارب الإنسانية والعبر التاريخية ذات الصلة بالحياة الاجتماعية في المجتمع البدوي العربي ذي الأخلاق التي تجمع بين إباء الجاهلية وعفة الإسلام.

وبالجملة فهذه القصيدة من أوابد الشاعر. ولا نغالي إذا قلنا إنه لا نظير لها في الشعر الموريتاني!.

ومن خلال تمرس صاحبها بالثقافة العربية الإسلامية تاريخا ومعارف، نستدل على صدق عبارة صاحب

الوسيط إذ قال: *"وبالجملة فقد كان سيدي محمد هذا حسنة من حسنات الدهر.. وقد ترك قصائد تدل على طول باعه في الآداب"*. انتهى الاستشهاد بتصرف يسير.

ومن مظاهر أصالة الشاعر الفنان عنده، حسنُ وصف الطبيعة والارتباط بها. من ذلك قصيدته المعروفة التي يخاطب فيها أحد المناهل الرعوية وهي بئر عرّبها الشاعر باسم "ميمونة السُّعْدَى". ويشيع في القصيدة ذلك الروح الرومانسي الوفي للطبيعة والمُحاور لها والممتزج معها إحساسا ووجدانا على نحو يمكن اعتباره معه أول رائد للأدب الرومانسي ذي الطابع البدوي، إن ساغت لنا هذه التسمية: (طويل)

لَعَمْرُكَ مَا تَرْتَابُ مَيْمُونَةُ السُّعْدَى ... بِأَنَّا تَرَكْنَا السعيَ في أمْرِهَا عَمْدَا
سِوَى أننا كنا عبيدَ مَشِيئَةٍ ... ولا عارَ في أنْ يُعْجِزَ السَّيِّدُ العَبْدَا
فلَيْسَ عَلينا أنْ يُساعدَنا القَضَا ... ولكنْ علينا أننا نبذلُ الجُهْدَا
ألَمْ تَرَ أنا قد رعينَا عُهُودَهَا ... عَلى حينَ لا يرْعى سوانا لها عَهْدا
ويَظْعَنُ عنها الناسُ حالَ انتجاعهمْ ... ولَمْ نَنتجِعْ بَرْقًا يَلوحُ ولا رَعْدا
حَبَسْنا عليها وهْي جِدْبٌ سَوَامَنا ... فما صَدَّنا السَّعْدَانُ عنها ولا صَدَّا
وإذْ غَدَرَتْ فانْفَضَّ مَن كان حوْلها ... وفَيْنَا فلَمْ نغْدِرْ ولَمْ نُخْلِفِ الوَعْدَا
فجئنا لها حتى ضَرَبنَ قِبابَنا ... على نَجْدِها المَيْمُونِ أكْرِمْ بِهِ نَجْدَا
ومَرْجِعَ سَانيها جَعَلْنا مُخَيَّمًا ... لَيالٍ نصون الشَّيبَ عنها ولا المُرْدَا
نظَلُّ وُقُوفًا صائمينَ على الظَّما ... نَخَالُ سَمُومَ القَيْظ في جَنْبِهَا بَرْدَا
وتُذْرِي عَلَيْنا الرَّامِسَاتُ غُبارَها ... فَنَنْشِقُهُ مِنْ حُبِّ إصْلاحِها وَرْدَا
ويَشْرَبُ كلُّ الناسِ صَفْوَ مِياهِهِم ... ونشربُ منها الطِّينَ نَحْسِبُهُ شُهْدا

وإذا كانت النظرة الرومانسية في الآداب الغربية تبدو متشائمة كثيرا يلفُّها غشاء من الحزن والألم، فلنا أن نقول أن شيئا من ذلك لم يغب عن القصيدة رغم قوة اليقين وروح التصوف عند الشاعر التي غطت على ذلك بحسن الرجاء والثقة بالله:

على أنَّنا والأمرُ عَنَّا مُغَيَّبٌ ... ولله مَا أخْفَى ولله ما أبْدَى
مِنَ اللهِ نَرجو أن يُيَسِّرَ أمْرَها ... ويَجْعَلَ بعدَ النَّحسِ طَالِعَهَا سَعْدَا
فَيَرْأَبَ مَنْآهَا وَيَجْبُرَ كَسْرَهَا ... ويُبْقِيَهَا مَيْمُونَةً كَاسْمِهَا سُعْدَى

وقد يتداخل حب الطبيعة و الانجذاب إلي الوطن مع الغيرة الدينية فيكوّن جميعُ تلك الأصباغ نسيجا متلاحما في عاطفة متأججة تجمع إلى التوقد والتوهج نضارةَ الندى واخضلالَ المروج النافحة بخزامى آوكارْ وأرطاه وحيث مناسك حب الشاعر وملاعب صباه: (وافر)

رُوَيْدَكَ إِنَّنِي شَبَّهْتُ دَارًا ... عَلَى أَمْثَالِهَا تَقِفُ الْمَهَارَى
تَأَمَّلْ صَاحِ هَاتِيكَ الرَّوَابِي ... فَذَاكَ التَّلُّ أَحْسِبُهُ أَثَارَا

إلى أن يقول:

تَرَاكَا عَاكِفِينَ عَلَى الْمَغَانِي ... لِفَرْطِ الشَّوْقِ لَنْدُبُهَا حَيَارَى
أُسَارَى لَوْعَةٍ وَأَسًى لُنَادِي ... وَمَا يُغْنِي النِّدَاءُ عَنِ الأُسَارَى
وَلَوْ فِي الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ حُرٌّ ... يَفُكُّ الأَسْرَ أَوْ يَحْمِي الذِّمَارَا
لَفَكُّوا دِينَهُم وَحَمَوْهُ لَمَّا ... أَرَادَ الكَافِرُونَ بِهِ الصَّغَارَا أَسِيرًا
حُمَاةَ الدِّينِ إِنَّ الدِّينَ صَارَا ... لِلُّصُوصِ وَلِلنَّصَارَى
فَإِنْ بَادَرْتُمُوهُ تُدَارِكُوهُ ... وَإِلَّا يَسْبِقِ السَّيْفُ الْبِدَارَا
بِأَنْ تَسْتَنْصِرُوا مَوْلَى نَصِيرًا ... لِمَنْ وَالَى وَمَنْ طَلَبَ النِّصَارَا
مُجِيبًا دَعْوَةَ الدَّاعِي مُجِيرًا ... مِنَ الأَسْوَاءِ كُلَّ مَنِ اسْتَجَارَا

ولا أدل على تأصل هذه النزعة الوطنية عند الشاعر من احتذائه شاعرين عرفا بفرط تعلقهما بالوطن وهما يحيى بن طالب الحنفي وغيلان ذو الرمة: (رمل)

يا نسيمَ الرِّيحِ إنْ تَمْرُرْ بِحَيْ ... خَيِّمُهُ فوقَ الذُّرَى سَلِّمْ وحَيِّ
وَلِذاتِ اليَمْنِ بَلِّغْ أنني ... إنْ تَكُنْ سَلْمَى فإني بعضُ طَيِّ
أو تكنْ حَجْرًا أكُنْ يَحيى لها ... أوتكنْ حُزْوَى أكُنْ غَيْلانَ مَيِّ

فقد رشح إناؤه المفعم بحب الوطن بابتعاث هذه الربوع العربية التي هي وطن ثقافي له أيضا، فإذا كانت ميمونةُ السُّعدى سلمى أو أجأ، فالشاعر إذن أحد طيئ وهم من عرفوا بتعلقهم بجبليهم هذين. ولا يضاهيه في حبها إلا يحيى بن طالب الحنفي في حبه لحَجَر وقرقرى وبلاد اليمامة. وذكرُ يحيى هنا – والشاعر ينظم القصيدة في غربته – نوع من انعكاس التجربة وإسقاطها. فيحيَى هذا هو القائل في ديار حَجْرٍ: (طويل)

فَوَاحَزَنِي مما أجِنُّ مِنَ الأَسَى ... ومِنْ مُضْمَرِ الشوقِ الدخيلِ إلى حَجْرِ
تغرَّبْتُ عنها كارهًا وهَجرتُها ... وكان فِراقِيها أمرَّ مِنَ الصَّبْرِ

وتقع الطيور على أشكالها كما يقال في المثل العربي. فها نحن نرى شاعرنا يعتذر عن اغترابه عن معاهد صباه وديار أنسه و يؤكد أن ذلك لم يكن على اختيار منه وإنما اضطر إليه اضطرارا: (خفيف)

طَالَ فِي أَرْبَعِ القَرَارِ قَرَارِي ... لَيْتَ شِعْرِي مَالِي وَمَا لِلْقَرَارِ
طَالَ مُكْثِي وإنَّما طَالَ فِيهَا ... باختيارِ المليكِ لا باخْتِيَارِي
لَمْ أَكُنْ مُزْمِعَ القُدومِ إليها ... بَلْ رمتني لها يَدُ الأَقْدَارِ

ليت شعري والعَبْدُ ذو إجْبَارِ وهْوَ يبدو في قَالَبِ المُخْتَارِ
هلْ يُسَنّي لنَا سَجِيسَ اللّيالِي عَوْضٌ مِن عَوْدَةٍ إلى أوْكَارِ
تِلْك أرضِي التِي أحِبُّ وأهْوَى وهْيَ حقّا منازِلُ الأحْرارِ

أما حُزْوَى التي ذكرها الشاعر والتي ولع بها غيلان حتى لا تكاد تخلو قصيدة له من ذكرها، فهي أيضا من تلك الهِدَملاتِ الرملية التي تتشابه مع آوكار من حيث المظهر الطبيعي إلي حد بعيد. يقول غيلان: (طويل)

أما استحلبت عيناك إلاّ محلةٌ بجمهور حُزْوَى أو بجرْعاءِ مَالِكِ
أناخت روايا كل دلوية بها وكل سِماكِيٍّ مُلِثٍّ المَبَارِكِ
منازلُ ألاّفٍ أتى الدهْرُ دونَها وما الدهْرُ والألاّفُ إلاّ كَذلِكِ

وإذا كان غيلان مسحورا بأرضه العذاة المباركة الطيبة المناخ ويتضجّرُ من اضطرار الأيام له إلى الإقامة بالأراضي الحضرية المتاخمة للأنهار والبحار الوبيئة ذات الرطوبة الوخمة: (طويل)

بأرضٍ هجانِ التُّرْب وسْمِيَة الحَيَا عَذاةٍ نَأتْ عنها المُلُوحَةُ والبَحْرُ

فإن شاعرنا بدوره يضيق بأربُع القرار، وخلاها البليل بندى البحر وأحزّهَا الحجرية الحادّة فيقول: (خفيف)

سئم القلبُ بَرْدَها ونداها وخَلاَها البَلِيلَ بالأسحارِ

وإذا كان بعض النقاد يرى أنه ليس بالشاعر الحسّاس الملهم ذلك الذي تَسْنَحُ له المناظر المُونقة الجذابة فلا تستدرُّ شاعريته، وأنه غير جدير بالإمامة الشعرية مَنْ آنسَ مباهجَ الطبيعة فلم تتلقّفْهَا عدَسَتُهُ ولم تستحْلِبْ أفاويقَ إبداعه الغَرَّةَ. ولو سلّمْنا هذه المقولة الناقدة لَأكْبَرْنا على ضوئها شاعرَنا، الذي لا يكاد يمر بسانحة أو بارحة من جديد مستطرفٍ إلا تجلى أثرها واضحا في شعره. وهل ينم ذلك إلا عن أصالة نَحِيزَتِهِ الشعرية وخصوبة عطائه العاطفي وسرعة استجابته لشتى البواعث والدواعي...؟

ها نحن نصحب الشاعر وقد حلّ غريبا بشاطئ البحر من نحو هضاب (مَتَيْ) فنسجل إثارة هذه المناظر لخواطره وإيقاظَها لنائم شعره، فينطلق لسانه صيْدَحا بأعذب النغمات. غير أن الشاعر وإن أفاض وأجاد في وصف هذه المناظر، فإن قلبه ظل مشدودا إلى أرض (فاي) و(آوكار) الذين أخذا عليه أقطار نفسه فقلبه أينما حل رهنٌ عندهما وبين ربوعهما، حيث الكناوين وميمونة السعدى.. استمع إليه يقول: (رمل)

عَينُ رُودِي لتَرَيْ ما لَمْ تَرَيْ ذلك البحرُ وَذِي أكْمُ (مَتَيْ)
كنتِ مِنْ قَبلُ تُخالينَ البرى قَبلَ الغرْبِ انتهتْ عند فُوَيْ
ولكِ اليومَ مَنادِيحُ بها فاسْرَحي فيها تَرَيْ مَا لَمْ تَرَيْ

يُرْسِلُ البحرُ علينا ريحَهُ ... ولَدَاهُ كلَّ صُبْحٍ وعَشِيْ
ولَرَى الطيرَ بهِ لَحْسِبُهَا ... إبِلاً تَرْعَى بِحَمْضٍ وَنَصِيْ
لستُ أبْغِي بَدَلاً في بَلَدٍ ... بِكِ يَا مَيْمُونَةُ مادُمْتُ حَيْ
سوف يُدْنِي الأهْلَ مِنَّا عَاجِلاً ... فَضلُ ذي العرش بإعْمَالِ المَطِيْ
إنَّ للّهِ تعالى فَرَجًا ... لا يراهُ غيرُ ذي الكَرْبِ الشَّجِيْ

إنها مراداتٌ ذاتُ منظر أنيق للمُجْتلي المتوسِّم ومناديحُ فسيحةٌ يحسُر الطرف دون الإحاطة بأكنافها. وهي مسارِحُ الجمال ومُنتجَعُ المباهج لا تكاد العين تبصر مثلها من جَلال أمواج البحر المصطخبة المتلاطمة وخلابة مرأى هذه الآكام المشرفة من فوق أديم هذا البحر المحورِّ الأمْواه.. وإنها مُستروَحٌ لألسام البحر المنعشة بكرةً وعشيًا. وهي إلى ذلك مستَرادٌ ومَذهبٌ لهذا النوع الهائل من الطير العجيب كأنه سَوام الإبل المُمَلِ المؤبَّلَةِ التي أطاع لها الخصبُ وطيبُ المرعى.. ولكن ذلك لا يزيد شاعرنا إلا كلفا بوطنه وشوقا إليه وهياما به. وكأني به قد راض نفسه على التسلي بهذه المناظر فأبت إلا أن تْهتاجَ تذكرا "لأول منزل" فطار كما قال الشاعر: (طويل)

تَسَلَّى بأخْرَى غيرِها فإذا التقي ... تَسَلَّى بها تُغْرِي بليلى ولا تُسْلِي

ومما هو "بسبيلٍ مقيمٍ" من موهبة الشاعر التصويرية وشهيته لاستجلاء الطرافة في كل منظر جديد، قوله في وصف العدّة والسلاح من رائيته الشهيرة: (وافر)

بأيديهم مُدَرَّبَةٌ طِوالٌ ... تُرِي الأقْرَانَ أعْمارًا قِصارَا
وبِيضٌ مُرْهَفاتٌ جَرَّدُوها ... وَرَدَّوْهَا مِنَ العَلَقِ احْمِرَارَا
تَفَرَّى الأهْبُ قبلَ الضَّرْبِ عنها ... ولا عَظْمٌ يَفُلُّ لها غِرَارَا
وكلُّ أخي فَمِيْنٍ أبَى اعْتِدالاً ... وتقويما عن الغَرَضِ ازْوِرَارَا
مَسَلُّ شُطَيْبَةٍ في المَتْنِ منه ... إلي تسديدِ شَارَتِه أشَارَا
حَذاهُ بِكَأْلهِلالِ مُوَشِّحُوهُ ... بِكَالجَوْزاءِ صَوْغًا وازْدِهَارَا
بِوَشْيٍ حَبَّرُوهُ وَأوْدَعُوهُ ... تصاويرًا تَرَى فِيها اعْتِبَارا
منَ العُدَدِ الأُلَى آلَى سِمَاكٌ ... بِرُوحِ اللهِ عِيسَى لَنْ تُبَارَي
تَلَظَّى النارُ في الكانونِ منه ... إذا ما صافحَ الزَّنْدُ الشَّقَارَا
وليس لناره شَرَرٌ تَرَامَى ... به إلا المُوَقَّعَةَ الحِرارا
فَمَنْ يَمْرُرْ قُبالَةَ مُنْخَرَيْهِ ... يكن كهشيمِ مَنْ رامَ احْتِظارا

وهل علينا من حرج إذا أدرجنا الغزل في الوصف عند الشاعر؟ وهل الغزل إلا وصف جمال المرأة أو وصف ما كابده العاشق من لواعج الهوى وعقابيل الوجد؟ إن الغزل عند الشاعر يجمع بين الوصف

التقليدي الرائع للمرأة وبين وصف الصبوة إليها، ولكن من خلال صراع عنيف بين دواعي الهوى وزواجر الدين والأخلاق. هذا التأرجح بين لقائق التزكّي في طريق معارج الطُّهر وبين مهاوي الشهوة غير المسفة التي لا تخلو من طرف وأنس عذري مرتّل بغيثارة التصوف والوجد الروحي. إن خير ما يمثل هذا المنحي الخصب من تجربة الشاعر قصيدته التي يبدأها بقوله:

ما حلَّ عُقدَةَ عَزمي سحرُ حَوْراءِ ... ولا ازْدَهَى طَوْدَ حِلْمي بَرْقُ زَهْراءِ
عصرَ الصِّبا آنَقَتني فاقْتَدَيْتُ بها ... سُبْلُ الهُدَاةِ وأخلاقُ الأعِفَّاءِ
حبستُ نفسي بسجنِ الصَّبرِ مُنتَضِيا ... عزمي وقَيَّدْتُ ألْحَاظي بإغْضَاءِ
حِذارَ إلْمَامِهَا في وجه غانِيَةٍ ... بروضةٍ من رياضِ الحُسْنِ غَنَّاءِ
ماءُ المَلاحَةِ جارٍ في مَسَائِلِهَا ... إلى مُنيرِ أقَاحٍ وَسْطَ حَوَّاءِ
فتَنْتني بفُؤَادي وهْي رائدةٌ ... له فتخبرهُ بالرِّعْي والماء
حتَّى إذا القَيْهَلُ الْتَاثَتْ حديقتُهُ ... به وهَمَّتْ بإزْهَارٍ فإزْهَاء
وكاد يصبح لَيْلي بعدَ دُهْمَتِهِ ... وآنَ وقتُ التباهي بعدَ إغْفائي
سَرَّحْتُها من وَثاقي إذ وَثِقْتُ بها ... والعُجْبُ أصْلٌ لِما في النفسِ مِنْ داء
فآنسَتْ في صُوَارِ الْعِينِ آنسَةً ... وفي السحائب منها برقُ غَرَّاء
فاهْدَّ إذ ذاكَ طَوْدُ الحلمِ وانتكَثَتْ ... مِني عُرَى العَزْمِ لَمْحَ الطَّرْفِ من راءِ
حتى هممْتُ بشيءٍ ما همِمتُ به ... أزمانَ لاقَ بأشكالي وأكْفائي
حسناءُ هامَ بها قلبي و لا عَجَبٌ ... كمْ هامَ قلبُ فَتًى قَبْلي بِحَسْنَاءِ

ويصل الخصبُ الروحيُّ إلي غايته حينما نصل إلي المديح النبوي والتصوف ومديح الأشياخ عند الشاعر. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا ما كان عليه الشاعر من محبة للرسول صلى الله عليه وسلم وكَلَفٍ بسيرته وأرضه، فقد ذُكر أنه سافر يقصد الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم في حياة أبيه ثم رجع من الساقية الحمراء. ولا غرابة كذلك إذا عرفنا ما كان عليه الشاعر من رسوخ في مقامات التصوف، كما يقول ابن الأمين الشنقيطي: *"ومن تأمل قصائده الغزليات وجد في أواخرها ما يدل على أنه كان على جانب عظيم من التصوف"*. هذا الربط بين الغزل والحياة الروحية عند الشاعر الذي فطن له ابن الأمين وارد تماما لأي دارس متذوق لشعر الشاعر. ويراوح الشاعر في مديحه النبوي بين الشوق إلى الحرمين وما حولهما من معاهد ومرابع، شهدت بزوغ الوحي وإطلالة الهدى ومتنزّل الرسالة وطلعة أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم وبين الاستفاضة في ذكر معجزاته وغزواته ومعالم تشريع رسالته المنيفة ومواقف أصحابه الكرام الشجاعة، استمع إليه يقول: (وافر)

سِوَى أنّي اسْتَباحَ حَريمَ صَبري ... هَوَى الحَرمينِ أشرفُ مَوْطِنِين

وسوف تفي العزائمُ والمُهارَى بوعدٍ مُنْجَزٍ مِنْ وافِيَيْنِ
فقد منَّيْتَني قَبْلَ المَنايَا مُرُورَ رَكائبي بالدَّهْنَوَيْنِ
يُنازِعْنَ الأعِنَّةَ سالِكاتٍ مَمَرَّ الجَيْشِ بينَ العُدْوَتَيْنِ
تُبادِرُ بالحَجيج وُرُودَ بَدْرٍ ويَحْدُوها الحَنينُ إلي حُنَيْنِ
قَواصِدَ رابِغٍ تبغي اغتسالا وإحْرامًا لديه وركْعَتَيْنِ
تَمُرَّ بدي طَوًى مُتَناسِيَاتٍ لِفَرْطِ الشوق كلَّ طَوًى وأيْنِ
من التَّنْعيمِ يَدْعُوها كَداءٌ إلى البطحاء بَيْنَ الأخْشَبَيْنِ
على بابِ السَّلامِ مُسَلِّمَاتٍ بتَطْوافٍ وسَعْيٍ عاجِلَيْنِ
تُناخُ لِحاجَتَيْ دُنيا وأخْرَى هناك فتنثني بالحاجتيْن
ببيتِ اللهِ مَلْمَسِ كُلِّ حَاجٍ تعالى اللهُ عنْ كَيْفٍ وأيْنِ
حِمًى إنْ أمَّهُ لاجٍ وراجٍ يكونا آمِنَيْنِ وغانِمَيْن
فمنْ يجهلْ حمايتهُ يُسائلْ أميرَ الجيشِ عنه وذا اليدين

وعلى غرار ما درج عليه المنصفون من علماء الأمة من الابتهاج بمولد الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم أعظم نعمة امتنَّ الله بها على الأمة وسوَّغوا ذلك بأدلة عديدة ترجع في جملتها إلى وجوب تعظيمه وإكباره وتَجِلّته، يقطع الشاعر الشك باليقين ويسلك في ذلك سبيلَ المحبين المتقين فيري أن ليلة المولد النبوي الشريف هي الأصل لجميع هواطل الرحمة التي تدفقت على الأمة بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته، إذ لولاها ما كان وحي ولا كتاب ولا سنة. ويرجع تعلقي بهذه القصيدة إلي أيام الطفولة، إذ كانت مزمارا من مزامير الصوفية كنا نستطارُ طربًا لسماعه. وقد حاولت في أيام اليُفُوعة أن أعارضها بقصيدة بلغت المائة والعشرين لا يحضرني منها إلا أبيات قلة منها: (بسيط)

منْ غَرْبِ جَلْهةِ ذاتِ الشمس بالغُدُوِّ عرفتَ ربْعَ عُليٍّ ذلك اللّوَوِي
أيامُ عُلْوُ كعابٌ كالمهاةِ ترى في عينها حَوَرًا يَشْفي سَقَمَ دَوِ

إلى أن أقول:

إني إذا أُلْفِمَ النوقُ الرواحلُ في ركبي لَيُطْرِبُني خَطْمِيُّها الرَّغَوي
خُوصٌ تَشَمُّ على الإعيا مُجَرجرةً ظِرَّانَ أمْعَزَ في دَوِيِّها الخَلَوِ
تؤم أرحلُنا مأوى الضَّريك إذا تجمَّعَ الخلقُ لليأسيِّ والرَّجَوِي
غداةَ بَانَ لهُم أنْ لا نجاةَ لهُم إلا بفُلْكِ نجاةِ المُصطفى القُصَوِي
وفي امتحانِ مَجازِ العمرِ مَلجؤُنا عند العبور بشاطي الموقف الشفوي

وهي من شعر الطفولة الذي لا أعول كثيرا على مستواه الشعري وإنما أوردتها لأدلل للمثاثر المبكر بهذه

القصيدة.. استمع إلى الشاعر في مديحيته هذه: (بسيط)

أهـــلا بـــصاحب هـــذا المَوْلـــدِ النَّبَـــوي ... مُقَابـــلِ الطَّـــرَفِ الأُمِّـــيِّ والأبَـــوِي
أهـــلا بمـــيلاد مولـــودٍ بـــه كَمُلَـــتْ ... بُـــشْرَى البَـــشَائِرِ للبـــادي وللقَـــرَوِي
أهـــلا بمـــيلاد مـــن لَمْ يَحْـــكِ مَوْلِـــدَهُ ... مِنَ الظُّـــرُوفِ مَـــكَّانِـــيٌّ وَلاَ مَلَـــوِي
أكـــرِمْ بـــهَا لَيْلَـــةً غَـــرَّاءَ مُـــسْرَةً ... عَنْ غُرَّةٍ في مُحَيَّا الضَّـــنْضِيِ القُـــصَوِي
أكْـــرِمْ بهـــا ليلـــةً غَـــرَّاءَ ضَـــاحِـــيَةً ... فيهـــا يَتيمَـــةُ سِـــمْطِ اللُّؤْلُـــؤِ اللـــؤَوِي
أكْـــــرِمْ بهـــا ليلـــةً غَـــرَّاءَ مُظْهِـــرَةً ... سِرَّ الوُجُودِ الذي فيـــه الوجـــودُ حُـــوِي

إلى أن يقول:

لوْلاَكِ ما أُنْزِلَ الذكْرُ الحكـــيمُ ولاَ الـــ ... ـــدِّينُ الـــقَوِيمُ وَلاَ ما في الـــصِّحَاحِ رُوِي
وَلاَ وَعَـــاهُ ابْـــنُ مَـــسْـــعُـــودٍ ولاَ أنَـــسٌ ... ولا رَوَاهُ أَبُـــــو دَاوُدَ وَالنَّـــــسَوِي
لـــولاكِ مـــا جَمَـــعَ القُـــرْآنَ جامعُـــهُ ... ولا دَرَى الخَـــازِنُ التفـــسيرَ والبَغَـــوِي
ولا رَوَى قَـــارِئٌ صَحَّـــتْ قِـــرَاءَتُهُ ... حَرْفـــاً مـــنَ المَقْـــرَإِ الزَّيْـــدِي والأُبَـــوِي
لولاكِ ما اســـتَنْبَطَ الأحْكَـــامَ مُجْـــتَهِدٌ ... ولا اسْـــتَبَانَ حَلاَلُ البَـــيْعِ مِنْ رِبَـــوِي
ولا أُقِيمَـــتْ مِـــنَ الإســـلاَمِ قَاعِـــدَةٌ ... ولا بَدَا فَضْـــلُ سُـــنِّيٍ عَـــلى حَـــشَـــوِي
لولاكِ لَمْ يَغْلِـــبِ الرُّومَ الغِـــلاَبَ ولا ... مُلُوكَ سَـــاسَانَ تَيْـــمِيٌّ وَلاَ عَـــدَوِي
لولاكِ ما جَمَعَـــتْ جَمْـــعُ الحـــجيجَ ولا ... أمّنوْا لِرَمْـــيِ جِـــمَارِ المَوْقِـــفِ المْنـــوِي

وفيها يعبر عن تعلقه الشديد بالجناب النبوي:

يـــالَيْتَ أنِّـــي إليـــه جُبْـــتُ فِـــيحَ فـــلاً ... للْجِنِّ باللَّيْـــلِ في حَـــافَـــاتِهِـــنَّ دَوِي
حتّـــى أحـــطَّ لـــدَى مَغْنَـــاهُ أرْحُلَهَـــا ... فأَسْـــتَطِيبَ ثَـــوَاءً حيثُ طَـــابَ ثُوِي
أَلْقِي عَصَا السَّـــيْرِ لاَ أنْـــوِي الإيَـــابَ إذا ... كان الإيابُ مِـــنَ الـــزَّوْرِ الرَّقَـــاقِ نُـــوِي

أما تطويحات الشاعر في حُبِّكِ سماء التصوف، فهي مضمار لطير شاعريته المحلّقة في جو السماء. وأسمى آيات تألقه الإبداعي في هذا المجال آبِدَتُـــه الدالية في وصف مشائخ التربية: (كامل)

طُبِعُـــوا عَلَـــى كَـــرَمِ النُّفُـــوسِ جِبِلَّـــةً ... مَوْرُوثَـــــةً فِـــيهِمْ تَـــــوَارَثَا مُتْلَـــدَا
قَـــوْمٌ هُـــمُ دُعمُ الْهُـــدَى لا تَـــعْدُوَنْ ... عَيْنَاكَ عنهُمْ إنْ تُـــرِدْ دُعُـــمَ الهُـــدَى
الرَّاشِـــدُونَ المُـــرْشِـــدُونَ إلى الهُـــدَى ... والـــواردون المـــصدرونَ الـــوُرَّدا

وما أخالُـــهُ إلا قد اطلع على القصيدة (الهمدية) في نفس البحر والروي التي نظمها أبو علي الحسن بـــن مسعود اليوسي (ت1102هـــ) في مدح شيخه أبي عبد الله محمد بن ناصـــر الـــدَّرْعي (1082هـــ)

ومطلعها: (كامل)

عَـرِّجْ لِمُنْعَـرجِ الهِـضابِ الـوُرَّدِ ... بـيـنَ اللِّـصَابِ وبـيـنَ ذاتِ الأَرْمَـدِ
وأجِـزْ مِـنَ الجَزَعِ الـذي بحضيـضِهِ ... أجْـدَاثُ أصْـدَاءِ العَشِيرِ الهُـمَّـدِ

يقول فيها:

فلذاك كـان علـى مريـد سـالكٍ ... فيهـا مـصاحبةُ الـدليلِ المـرشِدِ
يَهْدِيكَ متنَ الـنهْجِ في ظُلَـمِ الـدُّجَى ... بِسَنًا وإنْ تَشكُ الـنَّـفـاضَ يُـزَوِّدِ
ويُـزاولُ الأدواءَ عنـك فإنـهُ ... مَـنْ يَـدْوَ يُـسْعَطْ بالـدَّوَاءِ ويُـلْدَدِ

ومنها في مدح شيخه:

شمـسُ الزمـان وسـعدُه ومَـلاذُهُ ... وجَـدَى المحيلِ وغُنْـيَةُ الـمُسْـتَرْفِـدِ
فإذا عقدتَ لـهُ جوارَكَ لم يَـخـف ... مِـنْ مُـبْـرقٍ أبَـدًا ولاَ مِـنْ مُرْعِـدِ
وإذا جـلـدتَ بـضـبعِـه فأقمتَـهُ ... لم يَهْتَـبِل بمُـصَفِّـدٍ ومُـشَرِّدِ
سَعِدَتْ بغُـرَّتِـكَ الليـالي واسْـتمتْ ... ومنِ التَمَى لِـذَوِي الـسَّـعادةِ يَـسْـعَدِ

ومن قصيدة الشيخ سيدي محمد التي نظن أنه عارضه بها:

ولنا اسْـتِـنَادٌ بعـدُ للْـعُـمَـدِ الأُلَـى ... رُفِـعُـوا فكانوا يَـرْفَعُونَ المُسْـنَدَا
لهمُ التصَدُّرُ في قَـضـيَّـاتِ العُـلَـى ... كُـلٌّ لإسْـنادٍ إلَيْـهِ تَجَـرَّدَا
لا تَـخْـشَ إنْ رَفَعُـوكَ سَـخًا كَائِنًـا ... مِنْ فِعْـلِ أمْـسَى في الزَّمـانِ ولاَ غَـدَا
وإذا تَصَرَّفَ فِـعْـلُـهُـمْ في جَـامِدٍ ... ما خَـافَ بَـعْدَ تَـصَرُّفٍ أنْ يَجْمُـدَا

وفيها يقول:

لَحَظَـاتُهُمْ تُـحْيِـي الـرَّمِيمَ وعِنـدَهُمْ ... هِـمَـمٌ قَوِيَّـاتٌ يُـبْنَ الجُلْمُـدَا
لو حـاولوا نيلَ الـسِّمَاكِ بـعزْمِهِمْ ... نَـالُوا الثُّرَيَّـا بعـدَهُ والفَـرْقَـدَا
ولهُـمْ بـصائرُ نَيِّـرَاتٌ تَنْجَلِـي ... حُجُبُ الغُـيُـوبِ بِهَا إلى أنْ تَـشْهَدَا
والكِـيـمِـيَاءُ مِـنَ السَّعادةِ عِـنْدَهُـمْ ... إكْسِيرُهَـا يَـدَعُ الحِجَـارَةَ عَـسْجَدَا
فـإذاهُمُ لَظَـرُوا البُـقَاتَ اسْتَنْـسَرَتْ ... وَإذاهُمُ لَحَظُـوا أُوَيْـسَ اسْتَـأْسَدَا
ولَدَيْهِمُ جَعلُ السُّكَـيْـتِ مُـجَـلِّـيًا ... ولَـدَيْهِمُ جعْـلُ الـشَّـفَالِ خَفِيْـدَدَا
طُـرُقُ الإرادةِ إنْ أرَادُوا طَيَّهَـا ... تَرَكُـوا أقَـلَّ مِـنَ الـذِّرَاعِ الْفَدْفَـدَا
ومتى يَحـرْ فـي تِيهِهَـا ذو حَـيْرَةٍ ... أبْدَوْا لَهُ بـالـدَّوِّ مِـنْـهَا أنْـجُـدَا
وَإذا ادْلَهَـمَّ ظَـلامُ لَيْـلِ جَهَالَـةٍ ... لاَحُـوا فَـفَـاقُوا النَّيِّـرَاتِ تَـوَقُّدَا

وإذا اشتكى لفْحَ السَّمُومِ أخُو صَدًى ... أجْرَوْا مِنَ السَّلْسَالِ بَحْرًا مُزْبِدَا
وتقَدَّمُوا يَهْدُولَهُ في سَيْرِهِ ... لِوُرُودِهِ حَتى يُرُوهُ الْمَوْرِدَا
راحُ المعارفِ إنْ تَعَاطَوْا كَأسَهَا ... لَمْ يَدْفَعُوا عنها لَدِيمًا عَرْبَدَا
وكذاكَ إنْ دَهِمَ العِدَا لَمْ يَخْذُلُوا ... مِمَّنْ يُوَالِيهِمْ جَبَانًا عَرَّدَا

وقد دعاه إلى الاستفاضة في وصف هؤلاء المرشدين فيما نرى رغبتُه في إرشاد المسترشدين إلى أن الخير كله في صحبة الأخيار. فالله تعالى يقول: "واركعوا مع الراكعين" ويقول: "واتبع سبيل من أناب إلي" ويكفي في صحبة أهل الفضل قوله تعالى عن أهل الكهف: "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد" وكذا حديث الصحيحين عن ذلك الرجل الذي قتل مائة نفس فجعل الله نجاته من النار بسبب الهجرة إلي قوم صالحين، إلى غير ذلك من الأدلة المرغبة في صحبة أهل الخير والزاجرة عن صحبة أهل الشر كقوله تعالى: "فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظلمين".

وخلاصة القول أن شعر الشيخ سيدي محمد مرآة صادقة لذاته ومزاجه الديني والثقافي وبيئته الاجتماعية والجغرافية، نلمس من خلاله حُسن التربية والأدب اللذين تلقاهما الرجل وسعة روافده العلمية والثقافية والأدبية.

ولختم حديثنا عنه بهذه الأبيات التي نظن أنه يجب أن يختتم الحديث عنه بها من وصية له جامعة: (خفيف)

اتَّقِ اللهَ مَا استطعتَ تُقَاهُ ... في الذي أنتَ مُظْهِرٌ ومُسِرُّ
تائبًا توبَةَ اعْتِرَافٍ نَصُوحًا ... لا تقُلْ تَائِبٌ وأنتَ مُصِرُّ
واعْصِ أمْرَ الهَوَى وَلا تَتَعَلَّقْ ... منك نفسٌ بكُلِّ ظَبْيٍ يَمُرُّ
فاصْطِيَادُ الظباء قَدْ لا يُسَنَّى ... واتباعُ الفتى الهَوَى قَدْ يَضُرُّ
فلَكَمْ مَنْ سَعَى لِيَصْطَادَ فاصْطِيـ ... ـدَ فلَمْ يَحْمِهِ الصَّيُودَ المَفَرُّ
ومُطِيعُ الهوى إذا كان حُرًّا ... فهْوَ عبدٌ والعبدُ يَعْصِيهِ حُرُّ

إلى أن يقول:

وهَبِ الدُّنيا مِثْلَ زائِلِ ظِلٍّ ... لَيسَ فيها لِحَادِثٍ مُسْتَقَرُّ
كُلُّ ذِي جِدَّةٍ بِها سوف يَبْلَى ... وهِلالٌ بَدَا بِهَا يَسْتَسِرُّ
فمقِيمٌ بِهَا سَيَرْحَلُ عَنْهَا ... وقَوِيمٌ عِمَادُهُ سَيَخِرُّ
لا يَلَذَّنْ مَطْعَمٌ لكَ فِيهَا ... كُلُّ حُلْوٍ مِنْ بَعْدِهِ المَوْتُ مُرُّ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلاة الله وسلامه على نبينا وحبيبنا وآله وأصحابه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

قراءة في شعر الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديّ

الدكتور/ أحمد محمود ولد الدَّبْجَه

بسم الله الرحمن الرحيم

إن قراءة في شعر الشيخ سيدي محمد تتطلب قراءة في عصر الشيخ سيدي الكبير وما كان مطروحا آنذاك من وقائع وأحداث في أيام السيبة الفوضى والخلافات الأميرية والقبلية واستشراء غلبة اللصوص وعمليات السلب والنهب وما يستتبع ذلك من إيواء الطريد وفداء العاني والصلح والمداراة. إذ كان بيت الشيخ سيدي مأوى للطريد وكعبة القاصدين من هؤلاء وأولئك. ولكن قبل ذلك ينبغي أن نعرف بشاعرنا المدروس شعره:

هو الشيخ سيدِي محمَّدْ بن الشيخ سيديّ الكبير، ابن سيد دهره وبدر قطره. ولد سنة **1246**هـ وعاش نحو أربعين سنة وتوفي **1286**هـ. من أبزر إنتاجه ديوانه الشعري الذي هو بمثابة "دائرة معارف إسلامية".

وقد ترجم له المختار بن حامدٌ في "حياة موريتانيا" فقال عنه: *"كان عالما بكل معنى الكلمة"*. ومما قاله صاحب الوسيط عنه إثر ترجمة والده الشيخ سيدي: *"هو العلامة الأديب اللغوي الأريب.. وكان الناس يظنون أن الشيخ سيدي إذا مات لا يسد أحد مسده فلما مات وخلفه ابنه لم يتغير شيء مما كان يجريه"*.

خلَف الشيخ سيدِي محمد أباه بسنتين لم تكتملا فكان على منهاج أبيه سياسة وسيادة، إذ كانت سياسته امتدادا لسياسة أبيه في سلوكه الوسَطي بين الإمارات وانتهاجه سياسة العلاقات الودّية مع أمراء الترارزة والبراكنة وغيرهما من الأمراء على حد سواء.

فلذلك كانت دراسة شعره وحياته الأدبية وموضوعات شعره تعكس واقع الحياة أيام الشيخ سيدي. ومن الصعب أن نعزل حياته عن حياة أبيه، وبمعنى آخر أن نقرأ شعره معزولا عن ذلك الواقع المعيش، بل إن قراءة في شعر الشيخ سيدي محمد تضع أيدينا على ملامح تلك الحياة السياسية والاجتماعية أيام الشيخ سيدي الكبير. فهذا الشعر بحق هو المجلة الرسمية لتلك الحقبة التاريخية، لذلك نرى القضايا المطروحة هي نقطة الارتكاز في الموضوعات الشعرية لدى الشيخ سيدي محمد مثل اللصوص وقضايا السيبة ونزع السلاح لدى الزوايا المرفوض من طرف الشاعر وما يمكن أن ينجرّ على الإسلام من احتلال النصارى أرض موريتانيا. لذلك هب الشاعر لعلاج كل هذه القضايا فبادر بالدعوة لمقاومة الاحتلال فجاءت قصيدته الرائية إرهاصا لشعر المقاومة الإسلامي في الشعر الموريتاني بل نواة للشعر الملتزم بقضايا الأمة في الشعر العربي الحديث، بل صورت هذه القصيدة الرافضة للاحتلال الداعية إلى الجهاد الحالة التي كان عليها المجتمع الموريتاني من تشرذم وخلافات بين الأمراء، مما جعل البلاد عرضة للاحتلال بحكم ضعفها

وتخاذل أهلها،كما تنبئ عن يقظة الشيخ سيدي محمد وتمثله وحدة هذه البلاد من خلال أمره بتوحيد صف المسلمين. فهي بحق دعوة تستحق أن تُدرج ضمن الشعر الملتزم بقضايا الأمة الكبرى وتُقام عليها دراسات كالتي قامت على الشعر الحديث، إذ أن هذه الدعوة الملتزمة كانت أسبق من نظيراتها في المشرق العربي. (انظر آراء الدكتور/ أحمدُّ بن الحسن). وهي كذلك تمثل أصداء لمؤتمر تندوجه وإن كنا نرجِّح أنها لاحقة عليه وهي تُجلي لنا اهتمام الشيخ سيدي محمد بواقع مجتمعه وقضاياه الكبرى.

وهذا ينسجم مع واقع الشيخ سيدي الكبير الذي أرسل في تلك الحقبة رسالة إلى المولى محمد عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب يطلب فيها إمداده بالسلاح لمقاومة النصارى الذين بلغوا السنغال واحتلوا الجزائر. وقد اعترف له بذلك الفرنسيون أنفسهم.

ولاشك أن للشيخ سيدي محمد فهما ثاقبا استطاع أن يستبق به الأحداث وعقلا بعيد الغور استشعر من خلاله ما يمكن أن ينْجرَّ عن احتلال المستعمر لموريتانيا، كما تنبئ عن يقظته من خلال أمره بتوحيد الصف للمقاومة على الرغم من أن الإمارات آنذاك مشبرقة الأوصال منهكة القوى بسبب انعزالها وانشغالها بالفتنة فيما بينها، وكأن هذا العامل أوحى إلى الشاعر بأن الأرض مرشحة للاحتلال بحكم ضعفها وتقوقع الإمارات على نفسها واستشراء ظاهرة اللصوص وتفشي الفوضى.

ولذلك اعترف الشيخ سيديَّ نفسه لابنه في هذه القصيدة برسوخ القدم في الشعر بقوله للتلاميذ: *"صاحبكم قال الشعر"*. وهو من هو في النقد والأدب! ولم يكن هذا الاعتراف نابعا من فراغ وإنما جاء ذلك للتأكيد على أن شاعرنا أصبح شاعرا فحلا جديرا بالتقدير والاحترام، بل يحمل ذلك إشارة إلى أن الشيخ سيدي محمد مؤهل أن يكون خليفة لأبيه. وتوالت هذه الشهادات فضلا عن شهادة الشيخ سيدي لابنه من كل الدارسين لشعر الشيخ سيدي محمد. يقول يوسف مُقْلد: *"سيدي محمد هذا أكبر شاعر في موريتانيا بين القدماء والمحدثين إطلاقا"*. وتقول عنه دراسة في مجلة الوسيط الصادرة عن المعهد الموريتاني للبحث العلمي: *"هو العلامة الأديب والشاعر الأريب غرة عصره وابن سيد دهره. إبن الشيخ سيدي ابن المختار ابن الهيبة الأبيري ثم الانتشائي..* إلى أن يقول في الترجمة، وهو محل الاستشهاد هنا: ... *وترك قصائد تدل على طول باعه في الأدب وله في النكت الأدبية أشياء كثيرة وكان عالي الكعب في النحو والتاريخ وغير ذلك"*.

فلقد أظهر في النونية البراعة التاريخية والمعرفة الموسوعية في كل الفنون من أيام العرب والسيرة وتاريخ الفرق وعلم النجوم والنحو وغيرها. ولكن أهم نموذج لشعر المقاومة والالتزام ومحاربة اللصوص والفوضى الاجتماعية والسياسة قصيدته الرائية التي نقرأ الآن فصولا منها، يقول: (وافر)

رُوَيْدَكَ إِنَّنِي شَبَّهْتُ دَارَا ... عَلَى أَمْثَالِهَا تَقِفُ الْمَهَارَى

تَأَمَّلْ صَاحِ هَاتِيكَ الرَّوَابِي ... فَذَاكَ التَّلُّ أَحْسِبُهُ أَنَارَا

وَكَانَ الرَّمْلَتَانِ هُمَا دَوَاتَا ... عُلَيَّانِ وَذَا خَطُّ الشُّقَارَى
وَإِنْ تُنْجِدْ رَأَيْتَ بِلاَ مِثَالٍ ... جَمَاهِيرَ الْكَنَاوِينِ الْكِبَارَا
هُنَالِكَ لاَ تَدَعْ مِنْهُنَّ رَسْمًا ... بَدَا إِلاَّ مَرَرْتَ بِهِ مِرَارَا
وَلاَ تَقْبَلْ لِعَيْنٍ فِي رُبَاهَا ... تَصُونُ دُمُوعَهَا إِلاَّ الْهِمَارَا
وَدُرْ بَيْنَ الْمَيَامِينِ الْعَوَالِي ... فَإِنَّ عَلَى مَعَاهِدِهَا الْمَدَارَا
إِذَا كُنْتَ الْوَفِيَ فَعَلْتَ هَذَا ... فَرَاعَيْتَ الذِّمَامَةَ وَالْجِوَارَا
وَإِلاَّ خَلِّنِي وَخَلاَكَ ذَمٌّ ... فَإِنَّ لَدَيَّ أَحْدَاقًا غِزَارَا
وَقَدْنِي مِنْ إِعَانَتِكَ انْتِظَارِي ... أَنِيًّا رَيْثَمَا أَبْكِي الدِّيَارَا
وَإِنْ كُنْتَ الْخَلِيَّ وَلاَ وَفَاءٌ ... لَدَيْكَ فَتَسْتَطِيعَ لِيَ انْتِظَارَا
فَبَلْهَ اللَّوْمَ ثُمَّ إِلَيْكَ عَنِّي ... فَلاَ ضَرَرًا أُرِيدُ وَلاَ ضِرَارَا
وَلاَ عَارٌ عَلَيْكَ فَأَنْتَ مَرْءٌ ... تَرَدَّيْتَ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَا
وَلَكِنَّا رِجَالَ الْحُبِّ قَوْمٌ ... تُهِيجُ رُبَى الدِّيَارِ لَنَا ادِّكَارَا
سَقَانَا الْحُبُّ سَاقِي الْحُبِّ صِرْفًا ... فَنَحْنُ كَمَا تَرَى قَوْمٌ سُكَارَى
نَرَى كُلَّ الْهَوَى حَسَنًا عَلَيْنَا ... إِذَا مَا الْجَاهِلُونَ رَأَوْهُ عَارَا
وَأَحْرَارُ النُّفُوسِ لَدُوبُ شَوْقًا ... فَنَابِي كُلَّمَا نَاتِي اضْطِرَارَا
وَمَنْ يَاتِي الأُمُورَ عَلَى اضْطِرَارٍ ... فَلَيْسَ كَمِثْلِ آتِيهَا اخْتِيَارَا
تَرَانَا عَاكِفِينَ عَلَى الْمَغَانِي ... لِفَرْطِ الشَّوْقِ نَنْدُبُهَا حَيَارَى
أُسَارَى لَوْعَةٍ وَأَسًى لِنَادِي ... وَمَا يُغْنِي النِّدَاءُ عَنِ الأُسَارَى

عشرون بيتا في النسيب وذكر الديار والحنين إلى هذه المرابع التي يرى الشاعر بكاءها وفاء بالعهد والذّمامة والعزوفَ عنها هجرا وغدرا. وعلل ذلك بفرط الحب الذي يذيب أهله شوقا ونشوة فيأتون ما يأتونه اضطرارا على عكس الخليين والجاهلين الذين لا يقيمون للمعاهد معنى ولا يرون لها إلاّ ولا ذمة ويرون البكاء عليها عارا وشَنَارًا. ثم خلص إلى موضوعه الأساس بمقارنة بين حالتي أسارى الحب لهذه المغاني وحالة هذا الدين الأسير تحت اللصوص والنصارى لانعدام المخلص لهما معا ثم أتبع ذلك دعوة صارخة للجهاد.. يقول:

وَلَوْ فِي الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ حُرٌّ ... يَفُكُّ الأَسْرَ أَوْ يَحْمِي الذِّمَارَا
لَفَكُّوا دِينَهُم وَحَمَوْهُ لَمَّا ... أَرَادَ الْكَافِرُونَ بِهِ الصَّغَارَا
حُمَاةَ الدِّينِ إِنَّ الدِّينَ صَارَا ... أَسِيرًا لِلُّصُوصِ وَلِلنَّصَارَى
فَإِنْ بَادَرْتُمُوهُ تُدَارِكُوهُ ... وَإِلاَّ يَسْبِقِ السَّيْفُ الْبِدَارَا

ثم بدأ يعدد الآليات الضرورية لهذا الجهاد المفترض والشروط الأساسية له:

بِـــأَنْ تَـــسْتَـنْصِـــرُوا مَـــوْلَى نَصِـــيرًا ... لِمَنْ وَالَى وَمَـــنْ طَـــلَبَ الْـــتِـــصَارَا
مُجِـــيـــبًـــا دَعْوَةَ الدَّاعِـــي مُـــجِـــيرًا ... مِـــنَ الأَسْـــوَاءِ كُـــلَّ مَـــنِ اسْتَجَـــارَا
وَأَنْ تَسْـتَـنْـفِـرُوا جَـمْـعًا لُـــهَامًا ... تَغُـــصُّ بِـــهِ الـــسَّبَاسِبُ وَالـــصَّحَارَى
تَـــنِي رُبُـــدُ النَّـــعَامِ بِحَـــافَـتَـــيْهِ ... وَتَعْـيَا دُونَ مُـعْظَمِـهِ الْـحُـبَـارَى
يَلُـــوحُ زُهَـــاؤُهُ لَـــكَ مِـــنْ بَعِيـــد ... كَمَا رَفَـعَ الْـعَـسَاقِـيلُ الْحِـرَارَا
تَخَالُ سِلاَحَـهُ شُـهْبًـا تَـــهَاوَى ... وَتَحْسِـبُ لَـيْـلَـهُ النَّـقْـعَ الْمُـثَـارَا
وَلَـــوْلاَ النَّقْـــعُ إِنْ يَلْمَـــعْ بِـــلَيْلٍ ... لَـــصَيَّرَ ضَـــوْءُهُ اللَّيْـــلَ الـــنَّهَـــارَا

وهكذا يتمادى في وصف الجيش المدجج بالسلاح والعتاد تخفق فوقه راي النصر بفتيان يرون الظلم سما ويتوقون إلى الشهادة كأنما يشربون خمرا غيارى على الملة البيضاء، أشداء في الحروب لا ميل ولا معازيل، يركبون الجرد العتاق ويحملون البيض المرهفات والرماح الطوال، بل إنهم مدججون بالسلاح الناري الموشح بالتصاوير وألوان التوشية المختلفة يبرق كالجوزاء، إذا انطلق الشرار منه خلى الغرض هشيما.. بمثل هذه الجموع الواثقة بالنصر تمتلئ الأرض عدلا لتبقى كلمة الله هي العليا وترجع فلول الكفار القهقرى.

ثم بعد هذا الوصف المتمثل رأى الشاعر أن يقارن بين هذا الهدف المنشود والمفارقة القائمة بين الواقع المر المعيش. فبدأ يصف الواقع المزري والاقتتال الدامي بين القبائل والإمارات والفرقاء فيما يعرف باللصوص التي لا تخاف البأس ولا العقبى ولا ينجو منها حالٌّ ولا مرتحل.

ثم يمضي في نقده اللاذع للمجتمع والزوايا الذين تخلوا عن الأسلحة والدفاع ويناقش هذا الموضوع من وجهة نظر دينيه ودنيوية ويؤصل تركهم السلاح أنه مرفوض دينيا ولا يقبله الشرع ولا المصلحة السياسية والاجتماعية. وقد خلد الشاعر أروع قصيدة خاصة بهذا الموضوع ومطلعها: (كامل)

مَزَجَ الدُّمُوعَ بِـمُسْبِلاَتِ دِمَـــــاءِ ... متَلَهِّفًا مُـتَـنَـفِّسَ الـصُّـعَـــدَاءِ

ثم بعد هذه الصراحة ندب المسلمين لمحاربة اللصوص قبل محاربة النصارى، هؤلاء الذين يقتلونكم عكفى في المساجد ويسبون النساء والذراري، فكيف يتسنى قبل ذلك جهاد؟ ثم شرط هذه المقاومة وهذا النصر بالسعي الدؤوب والوحدة والقوة:

فَإِنْ أَنْتُمْ سَـعَيْـتُـمْ وَانـتدبْـتُم ... برغْمِ منـــهُمُ ازدَجَـــرُوا ازدِجَارا
وإِنْ أنـــتمْ تكَاسَلْـــتُمْ وخِـمْتُـــمْ ... برغْـمِ منـكُمُ ابْتَدَرُوا ابْـتِـــدَارَا
فَـــأَلْفَوْكُمْ كَمَـــا يَبْـــغُونَ فَوْضَـــى ... حَـيَارَى لا الْـتِدَابَ وَلا ائْتِـمَـــارَا

ثم بدأ يستحث العواطف ويستدرها عن طريق إثارة الصور البشعة من آثار السلب والنهب من سبي المهفهفات الحسان المنعمات تلطمها علوج النصارى على الخدود.

فلا هم يَرْحَمون لها بُكاءً ولا يخشَون أن تجدَ اقْتِدَارَا

ويجعلون مكان الخلاخل قيودا ومكان القلائد أغلالا ويسترسل فيقول:

وكانت كلّما مشتِ الهُوَيْنا لِكِسْرِ البيتِ تَنْبَهِرُ البِهَارَا
فيَشْدُدْنَ الحِبَالَ بكلّ خَصْرٍ رقيقُ الرَّيْطِ كان لهُ إزَارَا
ويَحْمِلْن الجُذوعَ على رُؤوسٍ غَدَائرُها تَضِلُّ بها المَدَارى
وتكْرَهُ للذي كانت تَرَاهُ حَلالاً وهْيَ طَائِعَةٌ شَنَارَا

وقد أجاد في استدرار العواطف استنهاضا للهمم وتعزيزا لدعوته للجهاد وليجلي العقبى الوخيمة للاستعمار وما يستتبع ذلك من عار وشنار على نحو ما كان النابغة يحذر قومه من السبي (بسيط):

لقدْ نهيْتُ بني ذبْيَانَ عنْ أُقَرٍ وعن تربُّعِهِمْ ما بين أصْفَار

إلى أن يقول:

لا أعْرِفَنْ رَبْرَبًا حُورًا مدامعُها كأن أبْكارَها نَعَاجُ دُوَارِ
يَنظُرْنَ شِزْرًا إلى مَنْ جاء عنْ عُرُضٍ بأوجُهٍ مُنكَرَاتِ الرِّقِّ أحْرارِ
خَلْفَ العَضَاريطِ لا يوقَيْنَ فاحِشَةً مُسْتَمْسِكَاتٍ بأقْتابٍ وأكْوَارِ

ثم خلص الشاعر في نهاية القصيدة إلى أمر الجميع بإجابة الداعي إلى الجهاد وأن لا عذر لهم لأن: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون" وأن لهم إحدى الحسنيين وإلا فإن الشاعر قد أعذر قومه حين أنذرهم، فلا ينبغي لهم التغاضي عن هذه المصالح كما تمادى قوم نوح في جهالتهم فبادوا بالعذاب.

والقصيدة تزيد على مائة بيت وتعتبر من مطولاته هي والنونية. وإذا كنا قرأنا هذه القصيدة مثالا على شعر المقاومة ووصف الحالة المزرية للواقع الموريتاني في أيام اللصوص والتنافس القبلي الذي ينذر باجتثاث البيضة، فإن شعر الشيخ سيدي محمد أوسع نفاذا وأبعد غورا إذ جمع كل الأغراض والأجناس الأدبية. وقد تطرق لهذه الموضوعات في قصائد أخرى، غير أننا أخذنا هذه القصيدة مثالا للدراسات، إذ رأيناها أشمل وأكثر تعرضا للواقع وأجمع للقضايا المطروحة. ولا يعني ذلك أن تكون هذه الدراسة على حساب بعض الأغراض الأدبية من فكاهة طرافة وغزل وحنين إلى الوطن ووصف وعتاب وغيرها مما جعله بحق رائد المدرسة الحرة.

وإذا كان هذا التصنيف على أساس الأغلب في الموضوعات فإن النونية لم تكن بعيدة عن التأثر بالمدرسة

البديعية، مع أن التصنيف الذي استقر عليه النقاد لا يجافي الصواب إذا وضعنا شعره تحت الدراسة ولاحظنا أنهم اعتبروا في هذا التصنيف جميع الأغراض كمًّا وكيفا، من فكاهة وغزل وحنين ووصف وتاريخ ونسيب، مما جعله بحق رائد هذه المدرسة الحرة وذلك لتشعب أغراضه وتفنن ألوانه ومذاهبه وغزارة مادته الشعرية واختلاف ضروبه وفنونه فجاء شعره في كل ذلك منتقى الألفاظ سهل المعنى بليغ العبارة عميق الأثر في النفس لا تمله الأسماع ولا تمجه الطباع وكان في كل ذلك سلس اللفظ عميق التجربة، إن عبر عنها جاء شعره مرتبطا بواقعه المعيش.

وإذا انتقلنا إلى الفكاهة والطرف والملح فقد احتلت حيزا كبيرا من هذا الشعر إلى جانب التنكيت.. يقول في زميل له عظيم اللهى يُسمَّى لَحْن: (بسيط)

ما هَزَّ عِطْفَيْ كَمِيٍّ يومَ هَيْجاءِ ... بينَ الأوَانِيْ كَذِي التونيْنِ والْحَاءِ
فَرْدٌ يقوم مقامَ الجَمْعِ فَهْوَ لِذَا ... يُدْعَى بِمُضْمَرِ جَمْعٍ بَيْنَ أسْمَاءِ
يسْطُو بأسلحةٍ للأكْلِ أرْبَعَةٍ ... يَدٍ وفَمٍ وبُلعُومٍ وَأمْعَاءِ
تخال لُقْماتِه العُظْمَى بِرَاحَتِهِ ... كَرَاكِرَ الإبلِ أوْ جَماجِمَ الشَّاءِ
ما بينَ طَلْعَتِهَا فيها وغَيْبَتِهَا ... في فيهِ إلاَّ كَلَمْحِ الطَّرْفِ مِنْ رائي
فَتَنهوي كَدُلِيٍّ خَانَ مَاتِحَها ... أشْطَانُهَا فَتَهَاوَتْ بين أرْجَاءِ
فَبَانَ أنَّ الذي يَحْوِيهِ من شَرَفٍ ... قدْ صحَّ لكنَّهُ بالهَاءِ لاَ الْفَاءِ

ويقول أيضا:

لا تُنْكِرُوا ما ادَّعَاهُ لَحْنٌ من شَرَفٍ ... به اسْتَبَدَّ عَنَ آبَاءٍ وأجْدادِ
هوَ الشَّريفُ بلا شكٍّ ولا رِيَبٍ ... لكنه حلَّ في مِسْلاَخِ حَدَّادِ

ومن ذلك وصفه للعجائز اللائي جئنه معترضات على تزوجه ممن لا يرضين عنها: (طويل)

أَمِنْ فِعْلِ أمْرٍ في الشَّريعَةِ جَائِزٍ ... أَبَاحَ اهْتِضَامِي بينكم كُلُّ عَاجِزِ
وَكَانَ بِكُمْ جُنْدُ الْبُغَاةِ يَهَابُنِي ... فَصَالَ عَلَيَّ اليومَ جُنْدُ الْعَجَائِزِ
فَجِئْتُ كَأنِّي قَدْ أتَيْتُ بِدَعْوَةٍ ... وفاحشَةٍ مِنْ نَحوِ فَعْلَةِ مَاعِزِ
فَلَوْ أنَّ أرْضِي ذاتُ مُعْزٍ رَجَمْتَنِي ... ولكنَّهَا ليستْ بذاتِ أمَاعِزِ

ولم يتوقف جانب الطرف والملح والفكاهة إلى هذا الحد، بل تجاوز ذلك ليشمل "نظم طرف وملح بني ديمان في قصص معروفة عندهم تمثل مدرسة الكَيْس والرَّوية وما يسمى بـ "الديمين". يقول: (رجز)

يَا رَائِمَا هَزْلَ بَنِي دَيْمَانَا ... دُونَكَ مِنه جُمَلاً حِسَانَا
واعلَمْ بِأنَّ منهمُ فُرْسَانَا ... قَدْ سَلَكُوا مِنْ قَبْلُ ذا المَيْدَانَا

وقَـصَـبُ الـسَّبْقِ بِـدَا الـمجَالِ مُـسَلَّمٌ قَطْعًـا لِبَـابَ فَـالِ

إلى أن يقول معددا ظرفاءهم ويتعرض لبعض القصص السائرة، يقول:

ومنهُـمْ مُحَمَّـدٌ مَـيْلُودُ مِـنْ ظُرَفـاءِ عَـصْرِهِ مَـعْدُودُ
وهْوَ الَّـذِي قـدْ سَـقَطَ العِجـلُ عليْـهْ فَـضَمَّـهُ بَـعْـدَ إبَـائِهِ إلَيْـهْ

*** *** *** *** *** *** *** ***

ومنهُـمُ نَجْـلُ الْفُـظَيلِ بابـا فَتَحَ مِـنْ سُـبْلِ الـذَّكَـاءِ بَابَـا

*** *** *** *** *** *** *** ***

وقـالَ إذْ جِـيءَ بِلَحـمِ الْحـوتِ دَيْمَـانُ لا تعْـرِفُ أَكْـلَ الْكُـوتِ

وبلغ هذا النظم خمسة وثمانين (85) بيتا يزيد على خمسين قصة وأظروفة وقد ختمه بقوله:

وقـدْ أذلْـتُ لِظَرِيـفٍ وَاجِـدِ غَيْـرَ الـذي ذكَرْتُـهُ مـنْ زَائِـدِ
أنْ يُثْبِتَ الزَّيْـدَ بِـسِلْـكِ النَّظْـمِ واللهُ يَحْبُونَـا بِحُـسْـنِ الْخَـتْمِ

ولاشك أن هذا النظم كان أشمل نظم في الطرف والملح إذ جمع قصصا شق وظرفاء مختلفين، لاسيما إذا قورن بغيره من الأنظام، كنظم المختار بن جنك اليدالي المسمى ب (مجمع البحرين)، فإن هذا ركز على شيم بني ديمان وأخلاقهم كما نظم باب بن محمود بن محنض بابه مقطوعات شعرية من هذا القبيل غير أن نظم الشيخ سيدي محمد قد جمع هذه الأشياء كلها مختلفة ومؤتلفة.

ولم يتوقف شاعرنا عند هذا الحد، فقد كان يصف الشرهاء والمغنين ووصف التبغ والشاي وأجاد في وصف التبغ والدفاع عنها، إذ كانت محل نزاع بين الفقهاء يقول: (وافر)

وإنَّ لَهَـا فَـوائِدَ وَاضِـحاتٍ يَـرَاهَـا كُـلُّ ذِي نَظَـرٍ أَصِـيلِ
إزَالَـةَ حِـقْدِ ذِي الحِقْـدِ الْمُـنَاوِي وتَحْبِيبَ الخَلِـيلِ إلى الْخَـلِيل
وجَبْرَ خَوَاطِـرٍ وَقَـضَاءَ حَـاجٍ ومَعْرِفَـةَ السَّـخِيِّ مِـنَ البَخِيل
وفَـوزا إن تعاطاهَـا النَّـدَامَى بتمييـز الظريـف مِـن الثَّقيـل
وإيـقَـاظَ النَّـواظِـرِ مِـنْ كَـرَاهَا وَإبْـرَاءَ الْمُيَّـمِ والـعَلِيل
وزادَ مُـسَـافِـرٍ ومتـاعَ مُقْـوٍ وأُنْـسًا في الإقامَـةِ والرَّحِيـل
وتُحْـفَةَ قَـادِمٍ وسُـرورَ آوٍ أَوَى حِـينَ الْمَبِيـتِ أوِ الْمَقِيـل
وفاكِهَـةَ الـشتـاء إذا تـأذَّى وجوهُ النـاس بالـشَّـمَـلِ البَـلِيل
وتُـطْرِبُ مَـنْ يُـدَرِّسُ كُـلَّ فَـنٍّ وتُفْرِجُ كَـرْبَ ذِي الهَـمِّ الـدَّخِـيلِ
وتُـسْلِي كـلَّ صَـبٍّ مُـسْتَهَامٍ عَـنِ الخَـدَّيْنِ والطَّـرْفِ الْكَحِـيلِ

وتَـدْفعُ ذا التَّـصُّصِ فهْـي أغْنَـى إذا دُفِعَـتْ مـنَ الـسَّـيْفِ الـصَّقِيلِ

يقول يوسف مُقْلِدْ: *"وهي تدل على عقلية متحررة ولم يكتف الشاعر بالرد على من حرم التدخين، بل عمد إلى تعداد فوائده".*

وإذا أردنا التوسع في الأغراض فإن الشيخ سيدي محمد أبرز في قصيدته النونية حشدا من الأعلام وأسماء الأمكنة والتاريخ وأسماء الفرق وأيام العرب والوقائع وأسماء النجوم والشعراء ما يمكن أن تكون ببليوغرافيا إسلامية.

لعل الشاعر قصد منها عرض عضلاته العلمية لاسيما وأن شاعريته كانت محل شك عند أبيه الشيخ سيدي الكبير، لذلك لابد للشاعر أن يلجأ إلى بعض الوسائل الأخرى البديلة لينال التقدير والإعجاب. وهو ما حصل عليه في الرائية لذلك نرجح أن تكون النونية بعد الرائية. وفي هذه القصيدة يرى النقاد أن الشيخ سيدي محمد خرج فيها عن مذهبه المألوف في التحرر، فبدأ أقرب إلى المدرسة الأندلسية أو البديعية حسب ما يحلو للبعض أن يقول. ومطلع هذه القصيدة: (وافر)

أدَمْعًا تُسْبِقَانِ بِغَرْبِ عَيْنٍ وقَدْ عايَنْتُما دَارَ الكُنَيْنِ
أليس مِنَ الوفاءِ لساكِنِيها إذالةُ مَا يُصَانُ بكلِّ عَيْنِ

ويذهب في النسيب هنا مذهب الرائية، إلا أنه في الغزل لا ينكسر للعذارى ولا يضعف أمامهن فهو الأقوى لأنه يملك زمامهن ويغلبهن كما غلب مهلهل أعداءه يوم الشعثمين يقول:

وَكَمْ يَوْمٍ وَتَرْتُ بِهِ الْعَذارَى كَيَوْمِ مُهَلْهِلٍ بالشَّعْثَمَيْنِ
يُجِبْنَ إذا دَعَا الدَّاعُونَ باسْمِي كأنِّي عِنْدَهُنَّ ابْنُ الْحُصَيْنِ
تُلاحِظُنِي العَبُورُ مَعَ الْغُمَيْصَا فَآنَفُ عَنْهُمَا لِلْمِرْزَمَيْنِ
وإنْ أبْدتْ لِي الجَوْزَا وِشَاحًا سَلَكْتُ بِهَا سَبِيلَ الشِّعْرَيَيْنِ
وإنْ تُشِرِ الثُّرَيَّا لِي بِكَفٍّ خَضِيبٍ قُلْتُ عَنِّي لِلْبُطَيْنِ

فهو يستخدم أسماء النجوم ليكني عن العذارى ويظهر من خلال ذلك معرفته بالتنجيم هذه المعرفة الدقيقة إلى حد التخصص. فالشِّعْرَيان هما العَبور والغُمَيْصاء. والمِرْزَمان نجمان حولهما، فكأنه رمز للشعريين بالنساء وبالمرزمين للرجال، فهو يأنف أن يكون له شريك في محبتها. وقل الشيء نفسه في الثريا التي تشير له بالكف فإنه يتخلى عنها للبطين المجاور لها. وفي الكف إشارة إلى وصف نجوم الثريا.

ولا شك أن الشاعر جمع في هذه القصيدة ألوانا وفنونا من التاريخ والعلوم والأيام وأسماء الفرق والأمكنة وعلماء النحو والصرف والتاريخ ما خوله بحق أن يكون شاعرا فحلا ومؤرخا يقول:

وكَمْ سامرتُ سُمَّارًا فُتُوًّا إلى المَجْدِ التَّمَوْا مِنْ مَحْتِدَيْنِ

حَـوَوْا أدَبًا عَـلَى حَـسَبٍ فَدَاسُـوا ... أديـمَ الـفَرْقَـدَيْنِ بِأخْمَـصَـيْـنِ
أُذَاكِرُ جَمْعَـهُـمْ وَيُذَاكِـرُونِي ... بِكُـلِّ تَـخَـالُفٍ فِي مَذْهَـبَـيْـنِ
كَخُلْـفِ اللَّيْـثِ والنُّعْمَـانِ طَـوْرًا ... وخُلْـفِ الأشْـعَرِيِّ مَـعَ الْجُـوَيْـنِي
وأورادِ الْجُـنَـيْدِ وفِـرْقَتَيْهِ ... إذا وَرَدُوا شَـرَابَ الْمَـشْـرَبَـيْـنِ
وأقوالِ الْخَـلِـيـلِ وسِـيبَوَيْـهِ ... وَأهْـلِـي كُـوفَةٍ وَالأخْفَـشَـيْـنِ
نُوَضِّـحُ حيث تَلتبسُ الْمَـعَـانِـي ... دَقِيـقَ الفَـرْقِ بَـيْنَ الْمَعْنَيَـيْنِ
وأطْـوَارًا نَـمِيلُ لِـذِكْـرِ دَارًا ... وَكِـسْرَى الفارسِـيِّ وَذِي رُعَيْـنِ
ونَحْـوَ الـسِّـتَّـةِ الـشُّعراءِ نَنْحُـو ... ونَحْـوَ مُـهَلْهِـلٍ وَمُرَقِّـشَـيْـنِ
وشِـعْـرَ الأعْمَيَـيْنِ إذا أرَدْنَـا ... وإن شِئْنَا فَـشِـعْـرَ الأعْـشَـيَـيْـنِ

فهي بحق دائرة معارف إسلامية تستحق دراسة متأنية لا يمكن أن يفي بها مقال عابر.

وبالجملة فإن الشاعر طرق كل الأغراض والألوان، فأبدع وأجاد وأتحف فأفاد.. وقد تصدر بحق المدرسة الحرة التي التزم أهلها بموضوعات الجاهليين ومعارضتهم كما هو عند محمد بن الطلبة اليعقوبي. وعدل شاعرنا عن ذلك إلى أغراض وألوان أملتها ظروف الشاعر المتحررة.

ولعل خلافة الشيخ سيدي أباه كفلت له تلك الحرية فلاح شعره منسافا مع واقعه كما كان ابن المعتز أمير الشعراء! وكما ظهرت المناحي الدينية إلى جانب تلك المناحي المختلفة المتحررة، يضاف إلى ذلك طرحه أزمة الشعر في النقد في عينيته وتعرضه للسرقات يقول: (كامل)

يا مَعْـشَرَ الْبُلَغَـاءِ هَـلْ مِـن لَـوْذَعِي ... يُـهْدَى حِجَـاهُ لِمَطْـلِعٍ لَمْ يُبْـدَعِ

فهو يطرح في هذه القصيدة أزمة الشعر قبل أن تطرح في المشرق العربي!

توفي الشيخ سيدي محمد ــ رحمه الله تعالى ــ سنة **1286** هـــ عن عمر يناهز **40** سنة.

الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديّ.. المكانة الأدبية

الدكتور/ السيد ولد أبّاهْ

يتبوأ الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيديّ مكانة خاصة في الذاكرة العلمية والأدبية الموريتانية.

ولئن كان الكثير قد كتب عن شخصيته الدينية والاجتماعية والعلمية والشعرية المرموقة. إلا أننا لا نـزال نحتاج إلى دراسات معمقة تتناول هذه الجوانب أجمعها في سياق معالجة مركبة لمسار هذا العلَم الأبرز الذي من وقف عند شعره الرقيق السلس اعتبره من أضراب قمم الإبداع العربي.

ومن توقف عند شخصيته الصوفية التي عكسها شعره لمس فيه أذواق كبار الزهاد المتعلقين بالمحبة الإلهيـة عزوفا عن الدنيا وتمسكا بالهدي النبوي.

أما شخصيته العلمية الموسوعية فتبدو جلية في إنتاجه الأدبي، الذي يختزن الثقافة الشنقيطية في روافـدها و محاورها المتنوعة.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى مركزه الاجتماعي والسياسي المرموق في عصره، وهو خليفة الشيخ سـيدي الذي تربى في أحضانه وورثه في مكانته السامية الفريدة في البلاد كلها التي ارتبط بعلاقات وطيـدة بكـل نخبها أمراء وعلماء ومشايخ، كما امتد إشعاعه الروحي إلى كل أركانها.

تلك حقائق معروفة لا تحتاج لبيان، ولسنا بحاجة إلى بسط القول فيها، فقد كفانا السادة العلماء والأدبـاء المرموقون المشاركون في الندوة هذا الأمر. وإنما حسبنا في هذا الحيز الضيق إبراز ما نعتقـد أنـه السـمة الجامعة لمكونات وجوانب هذه الشخصية العبقرية المتميزة، وهي الحس الإبداعي التجديدي الذي يبـدو جليا في إنتاج الرجل ومشروعه العلمي والأدبي ومساره السياسي الاجتماعي.

فمع أن الرجل نتاج منظومة تراثية عريقة وتقاليد علمية راسخة، إلا أنه تميز عن نظرائه وأضرابه بـالوعي النقدي الثاقب بضرورة التجديد داخل هذا النسق الذي ينتمي إليه.

وإذا كان الجميع يذكُر بالتقدير قصيدته العينية المشهورة التي يطرح فيها بوعي ثاقب أزمة الإبداع الشعري في بلاد شنقيط (وقد درسها المرحوم جمال ولد الحسن دراسة وافية في مقال منـشور بحوليـات الجامعـة التونسية)، فإن هذا الوعي يبدو جليا في سبك ونظام قصيدته ذاتها التي تصل فيها الكثافة التناصـية بلغـة النقاد المحدثين أوجها، أي أنها تستوعب بطريقة سلسة لا تَصَنُّع فيها معاني وألفـاظ المعجـم الـشعري العربي، مما ينم عن اطلاع واسع غير مسبوق على دواوين الشعر العربي بمختلف عصوره واتجاهاته.

ولذا نخالف بعض النقاد الذين وقفوا عند وعيه النقدي، ولم يلاحظوا مظاهر التجديد في قصيدته. ومن هذه المظاهر البارزة كثافة واتساع التجربة الروحية في قصيدته المديحية والصوفية، سواء تعلـق الأمـر بمدحـه

للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، أو بمدحه لوالده وشيخه. ففي شعره المديحي تجاوز النهج التقليدي المتبع في الشعر الشنقيطي الذي يكتفي عادة بذكر الشمائل النبوية وبعض مشاهد السيرة العطرة بما فيها المعجزات الخارقة. ففي نصه المديحي نلمس العاطفة الروحية في أرقى معانيها ولنقرأ قوله: (بسيط)

أكـــرم بهـــا ليلـــة غـــراء مظهـــرة سر الوجود الذي فيـــه الوجـــود حُـــوِي

واقرأ قوله في الحنين لروضته الشريفة:

ألقي عصا الـــسير لا أنـــوي الإيـــاب إذا كان الإياب مـــن الـــزور الرفـــاق نـــوي

وأما قصيدته البائية البديعية في مدح الشيخ سيدي التي امتزجت بها عاطفة الابن البار بالمريـــد الـــصادق، فتعد إحدى أروع قصائد الشعر الصوفي الشنقيطي، من حيث نسيجها الإبداعي وبنيتها الدلالية وكثافتـــها الإيحائية الفسيحة.

وإذا كان اطلاع النقاد على آثاره الشعرية يغلب على إنتاجه العلمي والفقهي، فإن شعره يكشف لنا بجلاء عن ثقافته الموسوعية المتكاملة، التي كشف عنها في نونيته المعروفة التي تعرض فيها لفقه الخلاف وهو مـــن أعسر فنون الفقه وأقلها انتشارا في هذه البلاد، ولمدراس علم الكلام والتصوف والنحو، ولمباحث التاريخ والسير والشعر والبيان والبلاغة.

ولذا نميل إلى القول إن المشروع التجديدي الإصلاحي للشيخ سيدي باب هو في حقيقته امتداد وتطـــوير للأفق الإبداعي الاجتهادي الذي يبدو جليا من ثنايا نص والده الشيخ سيدي محمد. و لـــنلاحظ هنـــا أن الشيخ بابه تكون علميا على يد كبار تلامذة والده وجده الذين شكلوا الجسر الرابط بين التقليد المرجعي الأصلي والنهج الإصلاحي المكتمل.

ومن تجليات هذه النزعة الإصلاحية المشروع السياسي للشيخ سيدي محمد المتمحور حول هدف توطيـــد الوحدة الداخلية للبلاد ومن أجل مواجهة المخاطر الاستعمارية القادمة من الجنوب.

ومن المعروف أن هذا المشروع قد رسمه الشيخ سيدي وشرع في تجسيده من خلال جهوده الساعية لجمـــع كلمة أمراء البلاد تحت راية مشتركة تأهبا لرد الاختراق الاستعماري بعد فشل حروب الوالو التي خاضها الأمير محمد الحبيب ضد سلطات الاستيطان الفرنسية المتمركزة في سان لويس.

وتعبر قصيدة الشيخ سيدي محمد الرائية المشهورة التي تغنى بها الركبان أصدق تعبير وأقـــواه عـــن هـــذا المشروع وتقدم صورة متكاملة عن ما وصلت إليه الأوضاع السياسية في البلاد من ترد وانهيار، كما تحمل نفسا تعبويا قويا لاستنهاض الهمم وإذكاء روح الجهاد والمقاومة وتوحيد الصفوف لدرء الخطـــر المحـــدق: (وافر)

فـــإن أنـــتم ســـعيتم وانتـــدبتم بـــرغم منـــهم ازدجـــروا ازدجـــارا
وان انـــتم تكاســـلتم وخمـــتم بـــرغم مـــنكم ابتـــدروا ابتـــدارا
فـــألفوكم كمـــا يبغـــون فوضـــى حيـــارى لا انتـــداب ولا ائتمـــارا

ولنخلص إلى القول إن ديوان الشيخ سيدي محمد قابل للقراءة في بنيته التناصية العميقة من حيث هو – في آن واحد – خلاصة تاليفية للثقافة الشنقيطية ومظهر إبداع وتجديد ضمن النسق الإبداعي العربي وتجسيد مشروع فكري وسياسي متكامل رسمه والده وشيخه. فرعاه واحتضنه أحسن رعاية واحتضان وأورثه ابنه العلامة المجدد الإصلاحي الشيخ سيدي باب.

الشيخ سيديّ بابَ.. ترجمة علمية

رسالة العلامة/ الشيخ محمد فال (أبّاهْ) بن عبد الله

إنّ من دُعي للكلام على رجل ممن يوزن بألفٍ متعددِ النواحي كثيرِ التخصصات حياته كلها مملوءة الفراغ سنين وشهورا وأياما تتجاذبه اهتماماته المتعددة من حقوق الله تعلى وحقوق عباده مجتهدا في أن لا يقصر في شيء من ذلك جُهده ولد مفطورا على هذا مهيئا له سليقةً مثل الشيخ سيدي باب، إنه ليحتار من أين يبدأ وأي فنٍ منه يقــرأ وأي بــاب منه يقرع.

أمن علمه وهو العالم المجتهد والناظر الناقل المتبصر؟أم من تجديده وإصلاحه وهو المُجدّد المــصلح الحيــي للسنة بعد غربتها والداعي لها وقت خفوت صوت دعائها؟ أم من قيادته الحكيمة وتسييره للمصالح العامة مذ عقدت يداه إزاره بعد وفاة أبيه وجده؟ أم من أدبه وظرَفه في شعره ونثره؟

إلى كذا وكذا من الخصال الحميدة التي كلما أخذت في الحديث عن واحدة منــها اســتهوتك الأخــرى وجذبتك إليها جذبا حتى يتعسر عليك التزام وَحدة الموضوع دون أن تأتي منه بما يكتفــي بــه الــسامع والقارئ لاتساعه وتشعبه. (وافر)

تكــاثرت الظبــاء علــى خِــداشٍ فما يــدري خِــداش مــا يــصيدُ

ولا بأس بذلك فكلها فوائد يأخذ منها الكاتب بما اتفق له بقدر وسعه العلمي والفكري وإذا كان كــذلك فــأقول:

يعتبر الشيخ سيديّ باب بن الشيخ سيدي محمد أبرزَ شخصيةٍ ظهرت في أواخر القــرن الثالــث عــشر الهجري وأوائل الرابع، تملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَبْ" صيتا وذِكرا حسنا في مجالات شتى ويرجع ذلــك إلى عدة عوامل: شهرة الشيخ سيدي الجد علما وعملا وصلاحا وزعامة دينية حكيمة شاملة لجميــع نــواحي البلاد بحيث يعتبر أكبر مُصلح بما لكلمة "الإصلاح" من معنى: إصلاحِ ذات البين بين الأمراء فيما بينهم إن تشاجروا وقامت الحرب بينهم على ساق، والإصلاحِ بين القبائل المتناحرة والإصلاحِ بين الأفراد المتنــافرة وإصلاحِ النفوس ورياضتها لتنقاد لأمر ربها امتثالا واجتنابا، إلى نشر العلم والفتوى في النــوازل النازلــة والتآليف البديعة والنصائح القيمة، إلى دماثة خُلق وتحمل مشقة عُرفَ بهما في رحلته الطويلــة في طلــب العلم، إلى نُصرة المظلوم وإعانة المنكوب والصبر على جفاء الجاني ودفعه بالتي هي أحسن، بحيــث صــار حرما آمنا يلجأ إليه الخائف ويفر إليه الجاني، متعززا بتقوى الله مكتفيا به عما سواه.

ويقال من خاف الله خافه كلُّ شيء حتى صارت سِمَتُهُ على المواشي أمانا لها من اللصوص الناهبين فــصار بعض الناس يضعها على مواشيه خوفا عليها. وفي هذا يقول العالم الشاعر أبّدّ بن محمود العلــوي يخاطــب

باب بن الشيخ سيدي محمد: (كامل)

أنسى الورى بُلدانَهُم وغدت لهم ... بُلدانُهُ سَلْمَى البلادِ ومَنْعَجَا
مَنْ لم يَخُطّ البَا بلوح خَطَّه ... يُمْنَى التِّلِيلِ تَحَصُّنًا لَمَّا فَجَا

ولقد أجاد سيدي عبد الله ولد أحمد دامْ الحسني في قصيدته التي يمدح بها الشيخ سيديّ الكبير حيث يقول: (بسيط)

لا يُظهر الضجْرَ من جارٍ أساءَ ولا ... من المُرافِقِ يُوهِي صَبْرَ من صَحِبهْ
ولا يضيقُ ذراعًا بالذي صَنَعَتْ ... أيْدي الحوادث تَبْتَزُّ الفتى سَلَبَهْ
وكمْ ثأى بَينَ مَا حَيَّيْنِ أصْلَحَهُ ... خَرْزَ الصَّنَاعِ لُمْسْنِي أجرةٍ قَرَبَهْ

إلى قوله:

وطَلْعَةُ الوجهِ للعافي تَهَلُّلُها ... تَهَلُّلَ الأم تأيّ بنتَها الخَطَبَهْ

وأبوه الشيخ سيدي محمد العالم العامل الناسك المُخبت والشاعر المُفلق والخليفة الكفؤ. فنشأ باب في هذا الجو العلمي الديني والشرف الرفيع مهيئاً لخلافة الأبوين، فكان كما قال زهير بن أبي سُلْمَى المُزَني في هرِم ابن سنان المري: (بسيط)

يطلبُ شأوَ امْرَأيْنِ قَدَّما حَسَناً ... نالاَ الملوك وبَذَّا هذه السُّوقَا
هو الجوادُ فإن يلحقْ بشأوهما ... على تكاليفه فمِثلُهُ لَحِقَا
أو يسْبِقاه على ما كان من مَهَلٍ ... فمِثْلُ ما قَدَّما من صالحٍ سَبَقَا

وقوله في أبيه سنان بن أبي حارثة: (طويل)

فما كان من خيرٍ أتَوْهُ فإنَّمَا ... توارَثَهُ آباءُ آبائِهِمْ قَبْلُ
وهلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وتُغْرَسُ إلاَّ في مَنَابِتِها النَّخْلُ

لكن بابَ لم يكتف بهذا الشرف التالد الموروث، دون الشرف الطارف المكسوب، منشدا حاله قول القائل: (كامل أحذّ)

إنَّا وإنْ أحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... لَسْنَا على الأحساب نَتَّكِلُ
نَبْنِي كما كانتْ أوائِلُنَا ... تَبْنِي ونَفْعَلُ مِثْلَ مَا فعلوا

بل بنى وفعل مثل ما بنت وفعلت آباؤه، كما قيل في رثائه: (طويل)

ولم يرضَ إلا أن يَسُودَ بنفسه ... فليس بمجدِ الغير سادَ عِصَامُ
قدَ اتْعَبَ نفسًا بالعُدُوِّ لنيْلِهِ ... وأسْهرَ عيناً والرجالُ نِيامُ

فَفَـاتَـــهُـــمُ إذ يَـــرْكَـــنونَ لراحـــةٍ وقَادَ جُموعَ الشّيبِ وهْو غُـــــلامُ

زيادةً على علمه الواسع الغزير وزعامتــه للقبائل المحيطة به واهتمامه بهذا القطر أجمع وبُعدِ غَـوْرِ عقلــه وجودةِ رأيه وتبصُّره في الأمور وحزمه وشدة شكيمته في الحق وسياسته المعتدلة، لا تَهَـوُّرَ ولا تأخُّرَ، إلى أدبٍ لطيفٍ وورعٍ حاجزٍ ولُسـكٍ عربيٍ وتحكيمٍ للسنــة واتباعٍ لها وعرْضِ المعلومات المـأخوذاتِ عــن الشيوخ الأجــلاء على أدلة الكتاب والسنة والقواعد الشرعية قبولا وردا، وشجاعةٍ على الخروج عــن المألوف أو الرأي الموروث إن ظهر له فيه تَحَرُّفٌ أو تَحيزٌ، مع أدب مع الجميــع وإنصاف...

كل هذه عوامل تجسدت في بابَ وانسجمت في سلوكه وتصرفاته بلا تناقض ولا تنــافر فكأنهــا خــصلة واحدة مركبة من خصال يخدم بعضها بعضا. فكان دعوة أبيه مخاطبا أباهُ من قصيدته المشهورة: (رجز)

وأنْ يُبـــــارِكَ لكـــــمْ في العَقـــــبِ منكم فَيحْظـى بشبـــاتِ العَـقِـــب

وحيث إنّ كل جانب من هذه الجوانب المتعددة لو أرسلَ الكاتب فيه عِنان قلمه كان مُجلــدا، أردت أن أركز هنا أكثر على جانبه العلمي، لأكتب عنه كلماتٍ يسيرةً من بــاب "لازمِ الفائــدة" لأن الجوانــب الأخرى كلُّها صادرةٌ عن علمه ونابعةٌ منه.. فـــــأقـــــول:

1- حياته العلمية: حفظ القرآن وهو دون عشر سنين ثم أكب على طلب العلم وأخذه مــن علمــاء تلامذة أبويه مع ذكاء خارق وجدٍّ لا يعرف الراحة: (خفيف)

وإذا كانــت النـــفـــوسُ كِبـــارًا تعبــت في مُرادها الأجســـــــــامُ

ثم نظر لنفسه واستجلب الكتب النادرة من قاصي البلدان ودانيها شراء واستنساخا ونحوهما، زيادة علــى خزانة جده الضخمة التي أتى بأكثرها من المغرب. وفيها يقول بعض معاصريه[1]: (طويل)

وجئتَ بِكُـتْبٍ يُعْجِزُ العِـيسَ حَمْلُهـا وعندكَ عِلـــمٌ لا تحـيط بـه الكُتـبُ

وأقبل بابَ على المطالعة من غير فتور. أخبرني بعض العلماء راويا عنه، أنه قال له من جملة ما حدثه به: أنه أُعْطِيَ سرعة فائقة في مطالعة الكتب، وأن سرعته في تقليب الأوراق تفوق سرعته في أي عمل... إلى آخر ما حدثني. ولما كثرت كتبه بنى لها دارا لصيانتها، والناس إذ ذاك في هذه البلاد بدوٌ لا يضعون لبنة علــى لبنة. وقيل في رثائه مشيرا لهذه الدار[2]: (طويل)

وحقَّ لكُتْـبِ الطِّبْـعِ فـيضُ دموعِهـا وتبكي طُـروسٌ سُطِّـرَتْ وَقِـــلامُ
فقد شاد حول البيــت صـرْحا مُمَـرَّدًا لهـا إذ غـدَتْ عنهـا تـضيق خِيَـامُ

ويقول بابَ نفسه في ذلك: (بسيط)

---

[1] القائل هو العلامة بابه ولد أحمد بَيْبَه العلوي، من أكابر علماء القرن الثالث عشر الهجري. وهو الجد الثاني للعلامة أبّاه كاتب هذه المقالة.
[2] القائل هو العلامة محمد فال ولد بابه ولد أحمد بَيْبَه العلوي، جد العلامة أبّاه كاتب هذه المقالة. (المحقق).

بوركْتِ يـا دارَ كُتْـبِ العلـمِ مـنْ دارِ ... وجادَ أرضَـكِ غادي المُـزنِ وَالـسَّاري
ودام مجـدُكِ محفوظـا سُـرادِقُـهُ ... طولَ الزمان من المَوْلـى بأسْـوارِ
ولاتَـزَلْ نِعَـمُ الرَّحْمَـانِ مُقْبِلَـةً ... إليكِ غيرَ مَـشُوباتٍ بـأكْـدارِ
ونِلْتِ فتحـا مُبينـا غـيرَ مُنْقَطِعٍ ... في العلـم زِيـنَ مِـنَ التقـوى بإثْـارِ
وكان أهـلُـكِ دَأْبًـا كُـلَّ مُتَّبِـعٍ ... نَهْـجَ الرسـول بإيـرادٍ وَإصْـدَارِ
لا يَـصرِفُ العُمْـرَ في لَهْـوٍ ولا لَعِـبٍ ... بـل فـي علـومٍ وآدابٍ وأذكَـارِ
طَـوْرًا إلى أحْـرُفِ القـرآن وِجْهَتُـهُ ... ومـا تَمَّـنَ مِـنْ معنًـى وأسْـرَارِ
وتارةً يَنْتَحِـي مـا جـاء مـن سُـنَنٍ ... عَـنِ النـبيِّ وأخبـارٍ وآثـارِ
إلى أصـولٍ إلى فـقـهٍ إلى سَـنَنٍ ... مِـنَ التـصـوف لَمْ يوصَـفْ بإنْكَـارِ
إلى فنـونٍ مِـنَ الآلاتِ مُظْهِـرَةٍ ... مـن المقاصـد مـسـتورًا بأسْـتَارِ
أَلْفَـى بَمَغْنـاهُ مـا يَبْغِيـهِ مِـنْ أرَبٍ ... فَـقَـرَّ عينًـا بفضـلِ الخـالق البـاري
فالحمـدُ لله في بَـدْءٍ ومُخْتَـتَمٍ ... والحمـدُ لله في جَهْـرٍ وإسْـرَارِ

وقد كان يفرح بطبع الكتب النادرة فرح الصديق بلقاء صديقه بعد طول الفراق ويقول في ذلك الأشعار الرقيقة المشعرة بالعاطفة الصادقة والاغتباط التام، غير ناسٍ مع ذلك أن شهوةَ العلم العارمةَ لا ينبغي أن تُنسيَ صاحبها أن العلم وسيلةٌ وثمرتُه التقوى، فإذا لم تصحبه الخشية فهو على صاحبه لا له.

من ذلك قوله عندما طبع ملك المغرب الأقصى مولاي عبدُ الحفيظ بن مولاي الحسن العلوي، على نفقته "منتقى" أبي الوليد الباجي على الموطأ وأتته منه نسخة، ولم يبلغني أنه دخل البلاد قبل ذلك: (طويل)

حبيـبٌ وفَـى منـه الزمـانُ بمُـلتقَى ... ونَـسْـرينُ رَوْضٍ في الـبلادِ تَفَتَّقَـا
وسـاقٍ لبيـبٌ لا يُمَـلُّ حَديثُـهُ ... "سَقَانَا على لُـوحٍ شـرابًا مُعَـتَّقَـا"
ومِرْقَاةُ علْـمٍ أمْكَـنَتْـنا ولَمْ يكـن ... يسيرًا إليها في الأمـاكنِ مُـرْتَـقَـى
بنيْـلِ كتابِ "المُنْـتَـقَى" غـيرَ أنَّـهُ ... نَتيجَةُ لَيْلِ المُتقـى لِمَـنِ اتَّـقَى

من ذلك قوله عندما طبع "إكمال الإكمال" للأبي على صحيح مسلم.. وقد طبع بأمر من الملك عبد الحفيظ كذلك. وكان يوجد بعض أجزائه هنا على ندور. فيقول باب مستجلبا له مستعجلا وصوله في شوق زائد وظَرْفٍ حجازي وأدب راق:

كفانا طوافَ الشرق والغرب للكتْبِ ... سليمانُ ذو الإحسان في الشرق والغرب
جزاه إلـه العرش خـيرَ جزائـه ... وبارك فيه من فتًى ماجد ندْبِ
خليليَّ بـ"الأُبِّـيِّ" عَجِّـل فإنـمـا ... لُعـالِجُ أدواءَ المَـشُوقِ إلى الأُبِّـي
وَوَدِّعْـهُ مَحْـفُـوظًـا إلينـا مُكَرَّمًـا ... وإنْ كان توديعُ الحبيـب مـن الصعْب

عَـذَرناكَ في نُجْـبِ الرِّيـاحِ فأعْمِلَـنْ مِنَ الفُلْكِ في تعْجيلِـهِ أحَـدَ النُّجْـبِ

حتى إنه يغتبط بالكتب الحديثة التصنيف ممن هو من أقرانه، كـ "ثمان الدرر في شرح المختصر" الخليلي للشيخ الجليل بن الشيخ الجليل عبد القادر بن محمد بن محمد سالم، وينوه به وبمؤلفه. وفيه يقول من قصيدة: (وافر)

بـه بُـرءُ العليـل ومـا لُرَجِّـي – هَـداكَ الله – مـن بَـرْدِ الغَلِـيل
محـيطٌ لا يغـادرُ مِـنْ كَثيـرٍ يُـرادُ مـنَ المُهِـمِّ ولا قَليـلِ
عَميـمٌ نفعُـه في كـل قُطـرٍ لِذي الفهـمِ الحَديـدِ وللكَليـلِ
يُقَرِّبُ مـا تباعـدَ مِـنْ مَـرامٍ بسهْلِ اللفـظِ والسَّبْكِ الجميـلِ
جليـسٌ لا يُمَـلُّ ولا نـدامٌ لَمالِـكِ التَّدبيـمِ ولا عَقيـلِ
تَطيبُ عـلى مُسَـامرِهِ الليَـالي وتَعْـذُبُ منـهُ سـاعاتُ المَقيـلِ
قَبـول النـاس في كـل النـواحي لـه ممـا يبـشر بـالقبولْ

ويقول في تقريظه "نزهة الأفكار شرح قرة الأبصار" للشيخ عبد القادر بن محمد المذكور من قصيدة: (خفيف)

نُزْهَـةُ الفِكْـرِ والنَّـواظِرِ إنْ رُمْـ ـتَ سُـلُوًّا في نُـزْهَـةِ الأفْـكَارِ
قُـرَّةُ الأبْصارِ اقْتَـرَنْـها فَـجاءتْ قُـرَّةً للأبْـصَـار والإبْـصَـارِ
وغَـدتْ أوْجُـهُ المَسـائل منْهـا وَسْـطَهَا قَـدْ بَـدَوْنَ للنُّظَّارِ
بحـرُ علـمٍ حـوَى جـواهرَ منْهَـا عاطِلٌ جُـلُّ هـذه الأسْـفَارِ
هِبَـةٌ مـنْ مواهـبِ الله للْجَهْـ ـلِ شِفَـاءُ عُنْـوانِ فـتحِ الـباري
لَـك في عَرْفِهـا الـذكيِّ اكتفـاءٌ عـنْ نـسيمِ الرِّيـاضِ في الأسْـحَارِ
أحْكَمَتْـهُ صِـناعةُ الحـبرِ عَبْدالـ ـقادرِ اللَّـوْذَعِيِّ ذِي الأنْـوَارِ
الأريـبِ العلاَّمَـةِ العَلَـمِ الْمَـا جِدِ نَجْلِ الأفَاضِـلِ الأخْـيَارِ

هذه نماذج وأمثلة تدل على مدى شغف باب بالكتب في أي فن ألّفت، وعلى يد من صدرت، وتشجيعه لمؤلفيها وناشريها.

2 – صلاته ببعض معاصريه من العلماء: ومثلُ ذلك صلاته بمعاصريه من كبار العلماء والثناء عليهم في مؤلفاته وأشعاره ومجالسه المأثورة مما لا يتسع الوقت لذكره وإنما نذكر في كل فصل ما يدل على باقيه. من ذلك قوله في شيخ الجماعة مُلحق الأحفاد بالأجداد يُحْظِيه بن عبد الودود: (بسيط)

أحظى الذي جَـلَّ عـن شِـرْكٍ وتـشبيه بـالعلم والأدب المختـارِ يُحْظيـهِ

يَرْضَى بِهِ النَّاس في أيامِهِ خلَفاً ... مِن سِيبَوَيْهِ مُصَافِيهِ وشَانِيهِ
يا رُبَّ جوهرِ علمٍ ظلَّ يُنفقُهُ ... في آخذين لهُ لم يُغمِضوا فيهِ
يُبْدي عَويصاتِهِ في الدَّرسِ بيِّنَةً ... كأنَّ كلَّ عَويصٍ مِن مَبَادِيهِ
لولا هُداه بتلك التِّيهِ ما خَرَجَتْ ... منهُ الهُداةُ إلى حِينٍ منَ التِّيهِ
في مجلسٍ نَفَعَ اللهُ الأنَامَ بِهِ ... سيَّانِ عاكِفُهُ فيهِ وبَادِيهِ
دعا إليهِ أولي الألبابِ مُجْتَهِدًا ... لِسانُ صِدْقٍ فَلَبَّوْا صوْتَ دَاعِيهِ
ما إنْ تَصَدَّرَ بالتمويهِ صاحِبُهُ ... وإن تَصَدَّرَ أقوامٌ بِتَمْوِيهِ
فبارك اللهُ في أيامِهِ وحَمَى ... من المكارهِ مَنْ يحويهِ نَادِيهِ
أهلاً بمَقْدَمِهِ المَيْمُونِ طَائِرُهُ ... والرَّحْبُ والبِشْرُ والتكريمُ لاقِيهِ
كنا نُرَجِّيهِ مُذْ حِينٍ ونامُلُهُ ... والحمْدُ للهِ مُعْطِي ما نرجِّيهِ

ومن ذلك قوله مخاطبا العلامة القاضي العدل محمد مختار ساخو قاضي (بوكى): (كامل)

قاضي الجنانِ غَدا بلا إنْكارِ ... مَن كان مثلَ محمدٍ مُختارِ
المكتسي حُلَلَ الثناءِ من الورى ... والودِّ إيدالًا بحُبِّ الباري
يقفو سبيلَ الصالحين وهديَهُم ... أبدًا لدَى الإيرادِ والإصْدَارِ
من حيثُ دارَ الحقّ دارَ ولا تَرى ... حُكْمًا لَهُ جَوْراً على ذَيّارِ
أخلاقُهُ بِيضا خُلِقْنَ ولَمْ يكُنْ ... بسوادِ لونِ مُهَذَّبٍ مِنْ عَارِ
إن المكارمَ حيثُ كُنَّ مَوَاهِبٌ ... قُسِمَتْ على الأقوامِ عن مقدارِ
زادَ الإلهُ سُمُوَّهُ ومَقَامَهُ ... وحَبَاهُ مَا يَرْجُو مِن الأوطارِ
وأثابَهُ نَصْرًا عَزِيزًا دَائِمًا ... في دارِهِ هَاذِي وتلك الدَّارِ

وقد خاطب الشيخَ أحمدو بنب بن حبيب الله بعدة قطع وقصائد رائعة وخاطب الشيخَ سعد أبيه مجيبا له. وله أشعار أخرى في تضرعات وابتهالات ووصف ومدح لبعض الأدباء من جلسائه، وكله جيد يأتي عفوا، لأنه كما قيل لا يعطيه من وقته الثمين إلا لحظات، فيأتي ابْنَ ساعته عفوا سهلا مُمْتنعا لا تَكلف فيه. ولِمَ لا يكون كذلك وأبوه الشيخ سيدي محمد الشاعر المُفلق المشهور وجَده الشيخ سيديّ الشاعر الفحل الذي يغرف من بحر وينحت من صخر؟

وكان له مجلس علميّ يضم جماعة من كبار علماء وقته، يتطارحون فيه المسائل ويبحثون في القضايا النازلة، وربما في أحكام بعض القضاة إذا احتيج للنظر فيها.

وكانت أوقاته مقسومة بين إقامة فرائضه التي يبالغ في الاحتياط فيما تبرأ به الذمة ويخرج به من العهدة، ويحصل به الكمال في الصلاة، فرائض وسننا وآدابا، يطيل في المواضع التي يسن فيها التطويل، لأنه يرى أن

التخفيف الذي تؤمر به الأئمة نسبي لا يمكن ضبطه إلا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو مذهب المحققين لا كما يقول المتأخرون من الفقهاء المُقَلِّدة. هذا مع إدامة التوافل والسعي في مصالح المسلمين والشفاعة الحسنة فيهم عند الحكام واستقبال الوفود القادمة وتفقد أحوال المتعلقين به في دنياهم ودينهم والقيام بحقوقهم، كل بنسبة ما يحاول، وإدمانِ المطالعة من غير مللٍ ولا فتورٍ ليلا ونهارا. قليلُ النوم ليلا. وقيل إنه لم يُر مضطجعا نهارا وأُعْطي في كل هذا قوة لا تتأتى لغيره. وتُثمرُ هذه المطالعة إفاداتٍ وزياداتٍ وتحقيقاتٍ تُتْحَفُ بها جلساؤه فلا يفترقون إلا عن ذَوَاقٍ ربما تكون أنفع لطالب العلم وأسرع في التحصيل وأجمع للشوارد النَّادرَةِ التي لا تتاح إلا للراسخين في العلم المستنبطين للعلم من منبعه الأصلي: كتابِ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. أقول: ربما تكون أنفع من الاشتغال بالمتون المختصرة حفظا وفهما وأقرب إلى منهجية أخذ العلم زمان النبوءة، وإن كان الاشتغال بالمتون أيضا مهما نافعا لا يستغنى عنه.

وقد نظم مسائل من فنون مختلفة من السِّيَرِ والفقه واللغة....الخ، كنظمه لأهل الصفة من فقراء المهاجرين نظما حسنا وقد استوفاهم الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء وعدهم عدا 74. ونظمٍ في أحكام خطبة المسلم على خطبة أخيه ونظمٍ في حكم السجود باعتبار المحل المسجود عليه من جواز وكراهة وندب. ونظمٍ في أسماء الله الحسنى ونظمٍ في أقسام "لا" النافية وأحكامها. وله رسالة في سُنية القبض في الصلاة وأخرى في الطهارة إلى غير ذلك. وتأليفه في أخبار إدوعيش ومشظوف مملوء فقها وأدبا وظرافة حتى إنه يأتي ببعض الشعر الحساني وما يناسبه في موضوعه من الشعر العربي وهو موضوع طريف لم يُسبق له فيما علمتُ يربط بين الأدب الشعبي والأدب العربي لو وُجِدَ من يبني عليه ويثريه لكان غاية في الطرافة.

3 – رأيه في التصوف: كان يقول في نثره ونظمه إن التصوف علم وعمل وإخلاص ويحذر مما يخالف ذلك. وقال في ذلك: (رجز)

حقيقةُ الصوفيِّ عند القومِ ... أهْلِ الصفاءِ مِنْ دواعي اللوْمِ
العالِمُ العاملُ بالإخلاص ... لا غيرُ يا مبتغيَ الخلاص
والشيخُ في هذا الزمان الحاضرِ ... ليس كما تسمع في ابن عاشرِ
"يصحبُ شيخًا عارفَ المسالكْ ... يَبقيهِ في طريقه المهالكْ"

وهكذا يشير إلى قلة الصادقين في هذه الأزمنة وله في ذلك قطع مشهورة محفوظة. ولم يزل المحققون من الصوفية يَحُطّونَ على المنحرفين من المنتسبين إلى طريق القوم من غير التزام مذهبهم حتى حمل القشيريُّ في رسالته على إنشاد قول القائل: (كامل)

أمَّا الخيامُ فإنّها كخيامِهِمْ ... وأرَى نِسَاءَ الحيِّ غيْرَ نِسائها

وقال زروق: "أما الآن فلا خيام ولا نساء". وقد بسط الكلامَ في ذلك في كتبه كـ"النصح الأنفع" و"عدة المريد الصادق" وتعرض لطرف منه في "القواعد" وقبله ابن الجوزي وابن الحاج في "المدخل" وأبو إسحاق الشاطبي وغيرهم ممن لا يحصيهم إلا الله تعالى. وكان باب يسلك في نصحه وسده ذريعة الفساد مسلك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من غير مداهنة ولا تنفير شأنُ المصلح الحكيم يُقرظ حال المستقيم المعتدل ويُنَفِّر من المائل المنحرف ويجمل في ذلك ولا يُعَيِّن. ومنه قوله: (رجز مشطور)

الشيخ لفظٌ وَحْدَهُ لا يُجْدِي وإنما التقْوى مِلاكُ المجدِ

أما سمعت الشيخ قبل النجدي

وقال في قطعته المتقدمة في دار الكتب وعَدّ ما يُدْرَسُ فيها من العلوم النافعة: (بسيط)

إلى أصول إلى فقه إلى سَنَنٍ من التصَوف لم يوصفْ بإنكار

وقد حرر الشيخ باب مسائل مهمة جدا مما يتعلق بالعقيدة والقراءة والفروع، كانت مثار جدل في القديم والحديث. ونظم في بعضها أنظاما كتب عليها أنقالا محررة مُتَنزّلة على محل النزاع، حازّةً في المفصل، مَعْزُوة لمصادرها من الكتب المعتمدة عند الجميع، فكانت تلك الأنقال كالشروح لها تبيينا وتوثيقا.

4 – موقفه من المتشابه: منها مسألة التفويض والتأويل في المتشابه من آيات الصفات وأحاديثها. ولا يخفى أن الكل متفقون أن الله جل وعلا منزه عن سمات الحدوث، وأنه ليس كمثله شيء، وقد وردت آيات وأحاديثُ توهم التشبيه مما عُلِمَ مدلوله لغة وجُهِلَ كيفية اتصافه به جل وعلا، فقد اشتهر فيه مذهبان: مذهب السلف وهو إمْرَارُهُ كما ورد، والتفويض فيه إلى الله أي بأن نؤمن به على مراد الله تعالى مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقات. وهذا هو مذهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم من القرون الفاضلة، وعلى ذلك المحققون من الخَلَف، إذ لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة مراده منه، ولو كان واجبا لبَيَّنَهُ النبي صلى الله عليه وسلم كما بَيَّنَ غيرَهُ ولسأله عنه الصحابة كما سألوه عن غيره. ومذهب الخلف، أي بعضِهِم، تأويله بلائق به جل وعلا، ويقولون إن السكوت عنه مُوهم للعوام وتنبية للجهلة مع عدم إنكارهم للتفويض واعترافهم أنه أسلم.

والتأويل هو مذهبُ أبي الحسن الأشعري الوسطُ بعد خروجه عن مذهب الاعتزال. والأول هو مذهبه الأخير الذي رجع إليه في آخر عمره ورجع إليه الباقلاني و إمام الحرمين. وحكى الإجماعَ على منع التأويل الغزالي و الفخر الرازي وغيرهم كثير.

وقد نظم بابَ في هذا نظما مُبينا أن الراجح من المذهبين هو التفويض بل هو المتعين الذي لا يجوز غيره. لأن المؤول ليس على يقين من مطابقة ما أوّلَ به لمراد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد يكون مُعَطِّلا بنفي صفة أثبتها الله تعالى لنفسه، لا سيما والمصيب في العقيدة واحد اتفاقا بين المُخَطِّئَةِ والمُصَوِّبَةِ،

والمُخطئُ فيها غير معذور، لا يخالف في ذلك إلا من لا يعتد بخلافه. فقال: (رجز)

ما أوْهَمَ التَّشْبِيهَ في آياتِ	وفي أحاديثَ عن الثِّقاتِ
فَهْوَ صِفاتٌ وُصِفَ الرَّحمنُ	بها وواجبٌ بها الإيمانُ
ثُم على ظاهرها نُبْقيها	ونَحْذَرُ التأويلَ والتَّشْبيها
قال بذا الثلاثةُ القُرونُ	والخيرُ باتِّباعهم مَقْرُونُ
وَهْوَ الذي يَنْصُرُه القرآن	والسُّنَنُ الصِّحاحُ والحِسانُ
وكم رآه من إمامٍ مُرتضى	من الخلائفِ بناظرِ الرِّضا
ومَنْ أجازَ منهمُ التأويلاَ	لم يُنكروا ذا المذهبَ الأصيلاَ
والحقُّ أنَّ مَنْ أصاب واحدْ	لاسيما إنْ كان في العقائدْ
ووافقَ النصَّ وإجماعَ السلفْ	فكيف لا يَتْبَعُ هذا مَنْ عَرفْ
ومن تأوّل فقد تكلّفا	وغيرَ ما لَهُ به علِمٌ قَفا
وفي الذي هربَ منه قد وقعْ	وبعضهم عن قوله به رجعْ
حتى حكى في مَنْعِهِ الإجماعا	وجَعَلَ اجتنابه اتّباعَا
وقد نَمَاهُ بعضُ أهل العلمِ	من الأكابر لحزب جَهْمِ
فاشدُدْ يديك أيُّها المُحِقُّ	على الذي سمعتَ فهو الحَقُّ

ونقلَ بابَ عليه كلام البغوي في شرح السنة، عازيا لسفيان بن عيينة: *"كُلُّ ما وَصفَ الله سبحانه وتعالى به نفسَه في كتابه فتفسيرُه قراءتُه والسكوتُ عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله عز وجل ورسولُهُ"* وقَوْلَ مالك في الإستواء وقولَ الأوزاعي و ابن عيينة ومالك في أحاديث الصفات: *"أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف"* وقولَ ابن حجر في فتح الباري: *"ومعنى الإمْرَارِ عدمُ العلم بالمراد منه مع اعتقاد التنزيه"*.

ثم نَقَلَ كلاما نفيسا للفخر الرازي بواسطة السيوطي في الإتقان وكلامَ الترمذي في باب ما جاء في خلود أهل النار وعزوه لابن المبارك ووكيع وغيرهما، قالوا: *"تُروى هذه الأحاديثُ ولا يُقال كيفَ"*. وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تُروى هذه الأشياءُ كما جاءت ويُؤمن بها ولا تُفَسَّرُ ولا تُتَوَهَّمُ ولا يقال كيف. وهذا أمرُ أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه.

ونقلَ كلامَ إمام الحرمين ورجوعَهُ عن التأويل في الرسالة النِّظامية. ونقلَ إجماعَ السلف على منعِهِ ثم كلامَ ابن الصَّلاحِ في أن التفويض هو الذي مضى عليه صَدْرُ هذه الأمة وأنه لا أحَدَ من المتكلمين يأباه، وكلامَ الخازنِ في تفسيره عند قوله تعالى: "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة" الآية. *وللعلماء في آيات الصفات وأحاديثها مذهبان: أحدهما مذهبُ سَلَفِ هذه الأمة وأعلامِ السُّنة الإيمانُ والتسليمُ لما جاء فيها، وأنه يجب الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت، ولكلِّ عِلْمَها إلى الله ورسوله*

صلى الله عليه وسلم مع الإيمان والاعتقاد بأن الله مُنَزّهٌ عن سمات الحدوث". إلى آخر أنقاله الغزيرة... وقد تَطَرّقَ فيه إلى فوائد وزوائد كالخلاف في تكفير أهل الأهواء وغيرِ ذلك. فأشبَعَ المسألة بحثا ونقلا لا يبقى بعده للمُنْصِفِ تَردُّدٌ في أن التفويض هو الصواب.

فاشدُدْ يديك أيها المُحِقُّ ... على الذي سمعت فهو الحقُّ

وقوله: ثم على ظاهرها نبقيها إلى أخر النظم وما في أنقاله الغزيرة من وجوبِ الإبقاء على الظاهر لا ينافيه قول المَقَري في الإضاءة: (رجز)

والنصُّ إن أوْهَمَ غيرَ اللائقِ ... بالله كالتشبيهِ بالخلائقِ

فاصْرِفْهُ عَنْ ظاهرِهِ إجماعا ... واقْطَعْ عَنِ المُمْتَنِعِ الأطْمَاعَا

لأنّ مُرادَ المقرّي بالظاهر الذي يصرف عنه إجماعا ظاهرٌ يقتضي التشبيهَ، وهذا مما لا خلافَ فيه بين المُفَوِّضَةِ والمُؤَوِّلَةِ. والظاهرُ الذي نبقيه عليه في البيت وأنقاله إبْقاءُ اللفظ بأن نؤمن به كما ورد، ولكُلُّ علم معناه إلى الله تعالى من غير تشبيه ولا تفسير.

5- موقفه من علم الكلام: ومنها مسألة علم الكلام الذي تباينت فيه الأنظار، فمن قائل بتحريم الاشتغال به وحكى إجماع السلف على تحريمه لما فيه من تقرير الشُّبَه بأقوال الفلاسفة وردِّها بها. وقد شَدَّدَ فيه الشافعي وشنع على المشتغلين به ومن قائل بوجوبه عينا أو كفاية أو ندبه بناء على الخلاف في إيمان المُقَلِّدِ عندهم ولأنه تتقرر به العقائد بأدلتها على مذهب أهل السنة إلى آخر ما قالوا. وكان من قواعده المشهورة عندهم أن كُلّ ما يتوقف الشَّرْعُ عليه كالوجود والقدم والبقاء ومخالفته للحوادث والغنى والوحدانية على الأصح من الخلاف، وكالقدرة والإرادة والعلم والحياة، مُمْتَنِعٌ إثباتُه بدليل السمع أي لابد في إثباته من الدليل العقلي، لما يَلزم منه من الدور، وهو تَوَقُّفُ كِلاَ الأمرين على الآخَرِ وهو مُحال لاستلزامِهِ تَوَقف الشيء على نفسه.

ووجْهُ لزومِ الدَّوْرِ فيه عندَهم أن من ادعى الرسالة إذا أقام الخارقَ شاهدا على صدقه فلا يَدُلُّ صُدُورُ الخارقِ على يديه على صدقه إلا إذا تُحُقِّقَ أنّ هذا الخارقِ إنما صَدَرَ من مُرْسِلِه ليكون مُطابقا لدعواه نازلا مَنْزِلَةَ قَوْلِ مُرْسِلِه: *"صَدَقْتَ فيما أخبرْتَ به عني"* فحينئذ يُتَحَقَّقُ تَصْديقُ مُرسِلِه له بهذا الخارقِ وإذا لم يكن لنا عِلْمٌ باتصافِ مُرْسِلِه بالإرادة المُخَصِّصَةِ بهذا الخارق والقدرة التي أوْجَدَهُ بها وغير ذلك من الصفات التي يَتوقف التأثير على ثبوتها لله تعالى لم يتم للرسول الاستدلالُ عليها بهذا الخارق. فإذا لم يكن لنا عِلْمٌ باتّصافِ مُرْسِلِه بهذه الصفات إلا من قَوْلِ الرسول لَزِمَ الدّورُ لأن تَحَقُّقَنا لصدقه في كل ما أخبرَ به الذي من جُمْلَتِه اتصافُ مُرْسِلِه بهذه الصفات التي لا يتأتى له دون الاتصاف بها إيجادُ هذا الخارق بل ولا إيجاد مُمْكِنٍ ما، مُتَوَقِّفٌ على تَحَقُّقِنا كَوْنَ الخارقِ فِعْلا لمُرْسِلِه.

وتَحقُّقُ كَوْنِ الخارق فعلا لمُرْسله مُتَوَقِّفٌ على تحققنا أن مُرْسله مُتّصفٌ بهذه الصفات وتَحقُّقُنا اتِّصَافَهُ بهذه الصفات على هذا الفرض مُتَوَقِّفٌ على تَحقُّقنا لِصدْقِه في كل ما أخبرَ به الذي من جملته اتصافُ مُرسله فدار بعد ثلاث مراتبَ. لأنا إذا أثبتناها بقولِ الرسول فقد توقفَ ثبوتها على معرفتنا لصدقه ومعرفتُنا لصدقه مُتوقفةٌ على معرفةِ كَوْنِ شاهده الذي هو المعجزة فعلا لمُرسله، ومعرفةُ كونها فعلا لمُرسله مُتوقفةٌ على اتصاف مُرسله بهذه الصفات ومعرفةُ اتصافِ مُرسله بهذه الصفات مُتوقفة على معرفةِ صِدقه ــ على هذا الفرض ــ فدار. وهو الذي أشار إليه المقري بقوله: (رجز)

وكلُّ مالم يتوقف شرعُ ... عليه فالدليل فيه السمعُ
وعَكسُه مُمتنعٌ للدَّوْرِ ... فاقطِفْ بأيدي العلم أهى الثَّوْرِ

ونَظم الشيخ بابَ أبياتا ونَقل عليها أنقالا كالشرح لها في أن معجزة القرآن فيها كفايةٌ عما ادعوا لاكتفاء من أسْلمَ في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين بها ولا دوْر فيها لأن الجهة مُنْفَكّةٌ كما سيأتي بيانه فقال: (رجز)

معرفة الإعجاز للقرآن ... تكفيك من معرفة الإيمان
وعِلْمَ ذلك البليغُ يَعْلَمُ ... ضرورةً عَرَبُه والعَجَمُ
وغيرُه يَعرفُ بالدليلِ ... إعجازَهُ بعَجْزِ كُلّ جيلِ
هذا الذي قد رجع الكلامُ ... إليه فاحفظْنَهُ والسلامُ

ونقل على هذا كلامَ الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب التوحيد عازيا للبيهقي في كتاب الاعتقاد قال: *"سلكَ بعضُ أئمتنا في إثبات الصانع وحدوث العالم طريقَ الاستدلال بالمعجزات، فإنها أصلٌ في وجوب قبول ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا الوجه وقع إيمانُ الذين استجابوا للرُّسُل".*

ثم ذكر قصةَ النجاشي وقولَ جعفر بن أبي طالب: *"بعثَ الله لنا رسولا نعرف صدقه، فدعانا إلى الله، وتلا علينا تنزيلا من الله لا يُشبهه شيء فصدقناه وعرفنا أن الذي جاء به الحقُّ"*... الحديثَ بطوله. قال البيهقي: *"فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي، فآمنوا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من إثبات الصانع ووحدانيته وحدوث العالَم وغير ذلك بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، واكتفاءُ غالبِ من أسلمَ بمثلِ ذلك مشهورٌ، فوجبَ تصديقه في كل شيء ثَبتَ عنه بطريق السمع، ولا يكون ذلك تقليدا بل هو اتباعٌ هـ"*.

ثم جلب حديث البراء بن عازب الطويل في سؤال الملكين من مُسند أحمد، وقولَ البيضاوي في تفسيره عند قوله تعالى: *"قال أو لو جئتك بشيء مُبين": "يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته، والدلالةِ على صِدْقِ مُدّعي نبوته".*

وللفخر الرازي نحوٌ منه في مواضعَ من تفسيره والزمخشري في الكشاف قائلا: *"فلما تجاوبَ كُلُّهُ بلاغةً معجزةً فائتةً لقُوَى البلغاء، وتَناصَرَ صحّةُ معانٍ، وصِدْقَ أخبارٍ، عُلِمَ أنه ليسَ إلا من عند قادرٍ على ما لا يَقْدِرُ عليه غيرُه عالمٍ بما لا يَعلمُه سِواهُ هـ"*. ثم قال، بعد أنقالٍ كثيرةٍ، مُجيبا عن الدور المدعى عازيا لشرح جسوس على توحيد ابن عاشر، ناقلا من خط شيخه محمد بن زُكري الفاسي: *"ليس المُقلِّدُ هو التاركَ للنظرِ في الأدلة العقلية خلافا لجمهور المتكلمين، وإنما هو التاركُ للنظر في ثبوت رسالة الرسول، كمن وُلِدَ بين ظهراني قوم مؤمنين، وسَمِعَ اسمَ النبي صلى الله عليه وسلم وفضلَه على الجملة، ولم يخالط أهل العلم ولا من خالطهم، فلم يعرف معجزةً من المعجزات المثبتة للرسالة. وأما من ثَبَتَتْ عنده الرسالة بالمعجزات فاستنادُهُ إلى قول الرسول المتواترِ كافٍ في عقائده، بل هو أقطَعُ من كل برهان ذكَرَه المتكلمون، فإن قيل هذا ظاهر في غير ما تتوقف عليه دلالة المعجزات على صدق الرسول، أما ما هو كالوجود والقدم والبقاء والغنى ومُصححات الفعل فلا للدَّوْرِ. قُلتُ هو وإن ذكروه غيرُ ظاهرٍ، إذ المُتوقف على اتصاف الفاعل للخارق بذلك هو وجودُ الخارق في نفسِ الأمر، لا دلالتُه على صدق الآتي به، فإن المشاهدين لانشقاق القمر مثلا يستفيدون من ذلك صِدْقَ المُتحدي به قطعا، وإن فرضنا أنهم غافلون عن اتصافه تعالى بتلك الصفات غيرُ مستحضرين له. والمُتوقف على السمع العِلْمُ بتلك العقائد، فالجهةُ مُنفَكّة. فإن قيل كان حاصلا عندهم، ولو سئلوا عن فاعل هذا الخارق هل هو قادر لقالوا نعم، ولا يلزم من علمِ حضوره، قُلنا ذلك العلم مع صِدْقِ الرسول مستفادٌ من الخارق دَفعةً واحدةً هـ"*. وعزا له ناقلا عن أبي جمرة والقشيري والغزالي وابن عباد وابن عطاء الله وابن رشد وابن حجر والقرطبي، أن النظرَ الواجبَ المُخْرِجَ من التقليد هو النظرُ في المعجزة التي ثَبتت بها الرسالة، إذ التقليد هو الأخذ بقول غير المعصوم بغير حجةٍ، وأما الأخذ بقول المعصوم فهو أقوى الحجج. ثم عزا انفكاك الجهة في الدوْر المُدعى لابن كيران في شرح توحيد ابن عاشر نحوَ ما نقل عن ابن زُكري قال: *"والخروج من التقليد على هذا في غاية السهولة، وحاصلٌ لعوام المسلمين، ومِثْلُهُ للأمير في شرحِ الجوهرة وزاد قائلا: لو صحّ هذا الدور للزم بالأولى في الدليل العقلي، فإنه بنفسه والنظرِ فيه يتوقف على هذه الصفات بلا واسطةِ شيءٍ، إذ لم يخرج عن كونه فعلا من الأفعال"*.

6 – تحريره لمسألة الضاد: ومما حرّرَ باب مسألة الضاد. وذلك أن من المعلوم عند من له نظرٌ في كتب التجويد ومخارج الحروف وصفاتها، ما فيها من أن الضادَ مما تختص العرب بالنطق به سليقةً، وصاروا يقولون لغةَ الضاد يعنون لغةَ العرب. وقال أبو الطيب المتنبي: (خفيف)

وبهم فخرُ كل من نَطَقَ الضا د وغوثُ الجاني وغيثُ الطريد

وأنها أصعبُ الحروف، بحيث يتعذر النطق بها إلا بالرياضة التامة وأنها تشبهُ الظاء ولا تمتاز عنها إلا بالاستطالة والمخرج ولهذا عَسُرَ التمييز بينهما وأن بينهما ما يسمى عند علماء البديع بالجناس اللفظي. قال

السيوطي في عقود الجمان: (رجز)

قلـــتُ وإن تـــشابَها في اللفـــظ كالـــضاد والظـــاء فـــذاك اللفظـــي

ومثلهما في ذلك النون والتنوين وهاء التأنيث وتاؤه. وقال الفخر الرازي في تفسيره: *"إن التكليف بالفرق بينهما من تكليف ما لا يطاق"*.

وللحافظ ابن كثير في أوائل تفسيره شيءٌ من هذا. وأن الضاد حرف رِخْوٌ يجري فيه الصوت جَريانَـه في بقية الحروف الرِّخْوَةِ، بل قيل إنه مُتفشٍ، والتَّفَشي أخصُّ من الرَّخاوَة، وأنه مُستطيلٌ في مخرجه، ولا كذلك غيرُه من الحروف. ولما كان هذا مفقودا في ضاد العامة كَثُر القيل والقال فيها بين المتمسكين بالضاد المألوفة مِنْ أنها هي التي بها الرواية، وقد يبحثون فيما فُقِدَ فيها من صفات ضاد العرب وأنها هي التي ينطـق بهـا الأكثر ممن فيهم أعْلامُ العلماء في الأقطار، ويُجيبهم الآخرون بأن من شروط الرواية موافقتَها لما في كُتُـبِ التجويد، وأنها إنما أُلِفَتْ لحفظِ الرواية.

فنظم باب في هذه المسألة نظما جامعا وألَّفَ فيها رسالة مستقلة أكْثَر فيها النقل عن أئمة القراءة والعربية، وأطال، لأن المقام يقتضي الإطالة، مُبيِّنا أنّ الضاد الرخوة التي يَنْطِقُ بها هو ومن وافقه هي ضـاد العـرب صِفَةً، ومَخْرَجًا، روايةً ودرايةً. وقال: (رجز)

لِـيُمعِنِ القـارئُ في الـضاد النظـرْ عنـد احتجاجـه بـنص المُختـصَرْ
هـل ثَمَّ تمييـز عـسير جـدًّا أو ثم حـرف يُتعـب العبـدّا
وهـل تُطيق لفظَه الصبيـانُ والقِبْطُ والبربـرُ والسـودانُ
فالـضاد أصـعب حـروفهم بـلا تنـازع بيـن جميـع الفُـصَلا
والـمَيزُ بينـها وبين الظـاء صعبٌ لدى جماعة القُـرَّاء
واختـصت العـرب بالتكلـمِ بهـا عَـنَ اصـحابِ اللسانِ العجمـي
بـل ذلك المَخرج بـين الـضـاد والظاء في المُخرج عـند النـادي
يَـبين ذاك للبيـب النـاظرِ عبـارةُ المـصباح والنـوادرِ
وليهده إلى سـواء المنهـجِ "والضادَ باستطالة ومـخـرج"
ونصَّ ذاك النشرُ والتـمهيـدُ لـه والاتقـانُ بـه شَـهيدُ
وأن ضـادَ العـرب الـعرباءِ مُـشْبِهَةٌ في الـسمع صـوتَ الظـاءِ
ونـصَّ ذاك في النهايـة انـظـرِ والفجرَ فالـظـرهُ لـه والجعـبري
وليس في تحقيقـه مـن بـاسِ في مبحـث اللفظـي في الجنـاس
وذاك في ألفيـة البيـان وشـرحها قـد جـاء والإتقـانِ
وقـد قفـا الجـلالَ مـن تـأخَّرا فيـه ولم يجعلْـهُ شيـئًا نُكُـرا

وكم شواهدَ لهذا المطلبِ ... لعلماءِ أهلِ كُلِّ مَذهَب
فالفخر في تفسيره قد بها ... وشرحُ الاقناع وشرحُ المنتهى
ومن قضاءِ الحاجِ للمحتاج ... نظرُه لشرحَي المنهاج
والحصرُ للظاءات في المُقدمه ... وغيرها بالعد يا صاحِ لِمَهْ؟
والنظر إلى قولهمُ مُشالَهْ ... وقولَهُمْ قاصرةٌ فَيالَهْ
والنظر إلى ذكرهمُ منْ غلطا ... بمزجِ ضادِه بدالٍ أو بطا
وفي السماع من جميع العربِ ... في الشَّرْق والغرب تمامُ الأرَب

وقال: (بسيط)

الضاد حرفٌ عسيرٌ يشبه الظاءَ ... لا الدَّالَ يُشبّه في لفظ ولا الطاءَ
لحنٌ فشا منذ أزمانٍ قد اتّبعَتْ ... أبناؤهم فيه أجْداداً وآباءَ
من غيرِ مُستَنَدٍ أصلاً وغايتُهم ... إلفُ العوائد فيه خَبْطَ عشواءَ
والحق أبلجُ لا يخفى على فطِنٍ ... إن استضاء بما في الكُتْب قد جاءَ
هذا هو الحقُّ نصًّا لا مَردَّ لهُ ... من شاء بالحق فليؤمن ومن شاءَ

وقال العلامة حبيب بن الزايد التندغي مخاطبا باب:

أحَيِيَ يا شيخُ مَيْتَ العِلم إحياءَ ... نَعَمْ وأسْمَعْتَ لو ناديتَ أحْياءَ
لكنْ ظلامُ الهوى أعمى البصائر منْ ... مَنْ عارضوك بما لم يُجْدِ إجْداءَ
قد عارضوك بأن الضاد لم يكُ عيـ ... ـنَ الظاء واستحسنوا من ذاك ما ساءَ
كأنهم غفَلُوا عَمَّا افتتحْتَ به ... "الضادُ حرفٌ عسيرٌ يُشبهُ الظاءَ"
وليس جَعْلُ ذوي الإنكار ضادَكُمُ ... ظاءً يُصيِّرُهُ في نفسه ظاءَ
فالحسُّ يغلَطُ في الأشياء يحسبها ... شيئا كما قد يظنُّ الشيءَ أشياءَ
وحُبُّكَ الشيءَ أحيانا يُصِمُّ كما ... عَنْ أفصحِ الخلقِ خيرِ العُرْبِ قدْ جاءَ
ما قلتَ إلا الذي في الكُتْب جاء ومَن ... لَمْ يتّصف بالحَيا فلياتِ ما شاءَ
يا من بفهمٍ وإنصافٍ قد اتّصفُوا ... تأمّلوا صرّحَتْ لا ريب جَدّاءَ

وقال محمد فال بن بابه في ذلك: (بسيط)

مَنْ أنكرَ الحقَّ لا تَنْصَبْ تعالجُهُ ... فإن فيه عُضالاً ذلك الداء
ومنْ تأمّلَ ألفى أصْلَ علّتِه ... كونَ الطباعِ لِمَا لَمْ تألفَ اعْداءَ

وقد قيلتْ في الموضوع والبحر والروي مُقطّعات من الفريقين.

وقال في أول رسالته: *"فهذه نقول يعرف بها اللبيب الدائر مع الحق، أن الصواب في لغة العرب الضادُ الشبيهةُ بالظاء المعجمة، حسبما تلقيناه أيضا بالرواية المعتبرة أواخر النقول، لا الضادُ الشائعةُ الآن الشبيهةُ بالظاء والدال المهملتين."* ثم نقلَ على هذا كثيرا من كلام القراء وعلماء العربية.

ثم قال والرواية التي وُعِدَ بها قَبْلُ هي ما شافهنا به أخونا الأديب العالم الثقة المحقق التقي الشيخ محمد فال بن بابه بن أحمد بيبه العلوي حفظه الله وجزاه خيرا، ثم طلبنا منه كتابتها، فكتب ما صورته: *"الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، قرأتُ الفاتحة وبعض السور على المقرئ بالحرم المدني، مُفتتحَ عام سبع وثلاثمائة وألف، وهو الشيخ أحمد بن محمد الصوفي من أهل القسطنطينية، وجدتُه مجاورا بالمدينة، ماهرا في فن القراءات والتجويد، يتصل سنده بابن الجَزَري، وكنتُ أتردد إليه ما دمت في المدينة. ولما سمعتُ أولا كيفية نطقه بالضاد، ظننته يجعلها ظاء، فقرأت عليه بها فقال لي "ظ" لا و"ض" لا، يعني ب "ض لا" النهي عن الذي يقرأ به أهل بلادنا ومن يقرأ كقراءتهم، وأنا كأني لا أسمع منه إلا الظاء، وهو لا يرضى بها مني فقلت له ما الفرق، فقال لي: والضاد باستطالة ومخرج مَيِّز من الظاء... "*

انتهى ما كتبه محمد فال.

7 – مسألة الاجتهاد والتقليد: ومن المسائل التي ألف فيها باب مسألةُ الاجتهاد والتقليد. ومما دعا إلى ذلك أن المقلد للمذهب المالكي مثلا، قد يجد الدليل مع المُخالف في المذهب أو مع مُقابلِ المشهور في مذهبه، فيُصر على التمسك بما كان عليه، ويَستدلُّ بكلام القرافي في التنقيح: وهو *"أن من ليس بمجتهد لا يجوز له العمل بمقتضى حديث، وإن صحّ عنده سندُه، لاحتمال نسخه وتقييده وتخصيصه وغير ذلك من عوارضه التي لا يضبطها إلا المجتهدون.*

وكذلك لا يجوز للعامي الاعتمادُ على آيات كتاب الله العزيز لما تقدم. بل الواجبُ على العامي تقليدُ مجتهدٍ معتبرٍ ليس إلا. لا يُخلصه من الله إلا ذلك. كما أنه لا يخلص المجتهدَ التقليدُ، بل ما يُودي إليه اجتهاده بعد بَذلِ جهدِه بشرطه". وقد نظم سيدي عبد الله في مراقي السعود هذا بقوله: (رجز)

من لم يكن مجتهدا فالعمل منه بمعنى النص مما يُحْظَلُ

فقد فهم بابَ بأن هذا الكلام لا يخالف ما تقرر من وجوب العمل بما رجح بالدليل، فقال: *"بل يوافقه لان المُقلِّد في هذه الصورة تابع للمجتهد المُوافق لذلك الدليلِ. على أننا نفرض أن المقلد في هذه المسألة قد اطلع على ما قاله العلماء في دليلها، وعلى ما قالوا في أدلة المخالفين وفهمها وعلم الأقوى منها".*

وقال في أوله: *"فهذه نقولٌ قُصد بها بيان أن الأولى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلافَ إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقة القرءان أو السنة الصحيحة المُخرَّجةِ في الصحيحين، أو أحدهما، أو نصّ الترمذي مثلا على صحتها، ولم يجد ذلك*

لإمامه، أو وجد ثلاثة من الأئمة الأربعة مُتوافقين على خلاف إمامه في مسألة، ولم يجد فيها دليلا من القرءان والسنة الصحيحة موافقا لإمامه، ولاسيما إن اجتمعت هذه المُرجّحات كُلُّها ومعها روايةٌ عن إمامه، أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحريا للحق". ونقل كلام القرافي الذي يستدل به الخصوم، وأشبعه نقلا عن أئمة المذاهب الأربعة، مع التعريف بالقائل، نقلا عَمَّنْ عَرَّفَ به من المؤرخين، كما يفعل الرهوني في حاشيته تارة.

وبالجملة فهو كتاب غزير العلم مطبوع مُنْتَشِرٌ في المكتبات، مُفهرسُ الفصول سَهْلُ التناول، وقَرَّظَه بأبيات مطبوعة معه، أولها: (بسيط)

هذي لُقولٌ صحيحاتٌ صريحاتُ ... في قَفْوِها لإله العرش مرضاةُ

مع تقاريظ الشيخ أبي مدينَ بن الشيخ أحمدُّ بن سليمان والشيخ محمد والشيخ عبد الله رحمهم الله تعالى. وقد نصره في هذا الموقف الذي يُعدُّ غريبا جديدا على الطلبة المُقَلِّدَةِ في ذلك الوقت جماعةٌ منهم صديقه محمد فال بن بابه بن أحمد بَيْبَ، كما وافقه في مسألة الضاد ومسألة المتشابه، ونَظَمَ ونَثَرَ في كلٍ منهما.

أما مسألة تقديم الراجح بالدليل فقال فيها قصيدته المعروفة: (طويل)

على الشيخ قد عابَ الغَبِيُّ بجهله ... تَتَبُّعَ أقْوالِ النبي وفعله

وما في كتاب الله بالنص مُحْكَمًا ... وما صَحَّ من تقريرِ خاتمِ رُسْلِهِ

وما قال جمهورُ الأئمة تابعًا ... لما صح من معنى الدليل ونقله

ومن يَتَتَبَّعْ ذاكَ يُلْفِ لمالكٍ ... وأصحابِهِ قولا قويا بحِلّه

وإن هُدى الله الكتابَ هو الهُدى ... وليس يَضِلُّ المُمْسكونَ بحبْله

وما سنّةُ خيرُ العباد مُبَيِّنٌ ... كما زِيدَ من نَقْطِ الكتاب وشكله

فما جيء من بعد النبي بناسخٍ ... سوى سوءِ فهمِ المَذهَبِيِّ وجهْله

لأصل حديث الهاشمي قطَعتمُ ... وقد أمرَ اللهُ العظيمُ بوصْله

إذا المحرف الوالي عن الرشد والهدى ... فذاك قضى الدينُ الحنيفُ بعَزْله

بدولة حكم الجهل يُدْعَنُ عالِمٌ ... لمنْ يدّعي علما وليس منَ اهله

وإذْ عَزَّ تفهيمُ البليد فإنما ... يُقالُ له قولُ الخليل لنَجْله

ويَهْدِي أخُو جهْلٍ يعارضُ عالما ... يَدُلُّكَ لو تدري على نقصِ عقله

ومنْ كان قدْرا فوق باعكَ فتْرُهُ ... ويَغْمُرُ وَبْلاً منك هاطلُ طَلّه

إذا قال قولا كان شأوُك قاصرا ... عن إدراكِهِ فاذرِ السبيلَ وخَلّه

وقولةُ سفيانَ "الحديثُ مضلّةٌ ... لغير فقيهِ الاجتهادُ منَ اهله"

مقالـــةُ حـــقٍ وهْـــيَ في حـــق قاصـــرِ ... يُحِلُّ صريحَ اللفـظ غـيرَ مَحَـلـــــهِ
ولَمْ يَـدْرِ مـا مَـنْـسوخُه وضـــعيفُه ... ويُخطـئ في وضـــعِ الحـديث وحمْلـه
ولـــستُ بنـــافي الفـــرعِ أصـــلاً وإنمـــا ... أمِـــرْتُ بأخـــذ الفـــرع وَصْـــلاً بأصْـــلِهِ
كما لابن عبد الـبر جـــــاء مُبـيّنـــاً ... لدى جـامعِ العلـمِ الـشريفِ وفـضْلِهِ
وأرشـــدَنا الـــشيخُ ابـــنُ رُشـــدٍ لمثـــل ذا ... كذاك قضى القاضـــي ابـــن نـــصر بمثلـه
ومن كان لا يرضى مـــن الـــشيخ ســـيرةً ... فلم يكُ يرضى المـــــرء إلا بـــشكْلِهِ
فـــإني أراه كـــان حقـــا مُجَـــدِّدًا ... يَـدُلُّ علـــى رُشْـــدٍ ويهـــدي لِـــسُبْـلِهِ
ومـــا كـــان أن يرضـــى بباطـــلٍ كامـــلٍ ... ولا حـــقَّ ذي نقـــصٍ يَـــرُدُّ لِعـــدْلِهِ

وممن كاتب باب في الموضوع عثمان بن محمد يحيى بن سَليمَ اليونسي نسبا الولاتي، فقال يخاطبه بأبيات مطلعها: (وافر)

ألا فاصـــدع بأمـــرك ثـــم نـــادِ ... بـــه مُـــتـــشـــمّـــرا فـــي كل نـــاد

وتولى جوابه الشيخ أبو مدين بأمر من الشيخ بقصيدة يقول فيها: (وافر)

وأمُّـــوا بـــالمَطِيِّ جَنـــابَ بـــابٍ ... يـــدُلُّ علـــى شريعـــةِ خـيرِ هَـادِ
تـــدارك مـــن حُـــشَـــاشتِهَا ذِمَـــاءً ... فـــنال الـــرِّيَّ منـها كُـلُّ صَـادِ
فنـــال "الرفـــعُ" رفعًـــا بعـــدَ خفـــضٍ ... ونال "الضَّـــادُ" تـــصحيحَ المَـــبادي
وكـــان "القـــبض" منقبـــضا فأمْـــسَى ... بسَطْـوَتِـه يَـصُولُ عَـلى الأعَـادي

إلى أن يقول:

ولـــكنَّ الفـــتى عثمـــانَ قِـــدْمًا ... بنهجِ الحقِّ مـــشغوفُ الفُـــؤادِ
أتتْـــامن رســـائله تحايـــا ... تُتَرْجمُ عن مـقـــالِ أخـــي وِدادِ

ويقول عثمان المذكور يخاطب باب من أبيات: (وافر)

أرَيْـتَ النـاسَ ديـنَ الله حـقـًّا ... ولكـنَّ الـبـصائرَ عـنهُ عُمْـيُ
فقـد أَلِـفُوا اتِّبـاعَ مُـوَلَّـداتٍ ... وذلـك عـن سـبيلِ الحـقِ نَـأيُ

مما يدل على أن دعوته بلغت أقصى البلاد شرقا كما غَرَّبت وجالت جنوبا وشمالا داخل البلاد وخارجها.

وقرظ محمد فال بن بابه تأليفه في الضاد بقوله: (بسيط)

شمس الهدى قد بدت صـحوا لمـن رامـا ... سُبُلَ الهدى فَنَفَتْ غَيْمـا وإظـلامـا
والصَّـيْرِفيُّ قـدَ ابْـدى خالـصا ذهبـا ... وبَيَّنَ الـزيْـفَ والـتدليس قـدْ قـاما

والـــحقُّ لاح عِـيانـًا لا خـفاءَ بـه ... كـالنور يعْلـو لـدي العيـنين أعْلامـا
وسَـلَّ سيـفا مـن البرهان صـار بـه ... يعـدو الجبـانُ إلى الهيجـاء مقَـداما
لله في الخلـق مـن إرْثِ النبـوءةِ مـا ... يهـدي بـه لِـسَبيل الحـقِّ أقوامـا
فبعضه كـان ألـقـالاً مُصَحَّـحة ... وبـعضُه واردٌ فـيْضًـا وإلْهَـاما
وذاكَ ما قدْ أفـاضَ الـشيخُ سَـيِّـدُنا ... مِنَ العُـلوم لأنـفِ الـجهل إرغـامـا
أبدى بـه الحـقَّ نهجًـا واضـحا سُـبُلا ... لو استوى الـناسُ إنـصافـًا وأفْهَامَـا
ذو الفهم مُنْـصفاً إنْ يَنظُـرْهُ كـان لـه ... عن فاضـحِ اللَّحْـنِ في القـرآن إلجامَـا
ألْـفـاهُ حقـًّا صـحيحًا لا خفـاءَ بـه ... ومـا يُعارضُهُ جـهلاً وأوهـامَـا
إن لم يـكن فاهمًـا مـا في مُـضَمَّنه ... فـذي الدلالـةُ إطـباقـًا وإلْزامَـا
قد أوضحَ السُّـنَّـةَ الغـرَّاءَ حيـنَ غَدَتْ ... مطموسـةً بـينَ أهـلِ العلـمِ أعْلامـا
قواعـدُ البيـت منـها صـارَ يَرفعُهـا ... يُـبْدي مَناسِكَها سَـعْـيًا وإحرامَـا
وقامَ من نـَـصْرِ ديـنِ اللهِ مُجْـتهدًا ... ما عندَ باقي حُمَـاةِ الـدينِ قـد نامَـا

خاتمـة: وبالجملة فالكلام على الشيخ سيدي باب طويل عريض ولعل ما فاتنا منه أكثر، بل هو الواقـع ومع ذلك لم نستوعب ما رويناه عن الثقات ممن كان من جلسائه أو زُوّاره مما يَتـعلقُ بعلمـه وعملـه وفراسته الصادقة وبعض كراماته، وكلهم شاهدُ عيانٍ يَروي عنه بلا واسطة. فرحم الله الشيخ سيدي باب وتقبل عمله وبارك في ذويه وأهل بيته وحفظهم وأتم عليهم نعمته وأسبغها عليهم ظاهرة وباطنة.

وُلِدَ باب، كما ذَكر حفيده العالم المحدث محمد بن أبي مدين في ترجمته المختصرة المفيدة، في ربيع الأول عام سبع وسبعين ومائتين وألف. وتوفي ثالث جمادى الآخرة عام اثنين وأربعين وثلاثمائة وألف.

وقد أرخ لوفاته العلامة القاضي من الطراز الأول من قضاة العدل سيدي محمد بن الدَّاهْ بن دادَّاهْ مشيرا بحساب الْجُمَّل أيضا إلى قدر عمره بقوله: (رجز)

قَـضَى بجـيمٍ مِـنْ جُمـادى الثانيـه ... إمـامُ كُـلِّ حَـضَرٍ وبـاديَهْ
الـشيخُ سـيديَّ بـوقت الظُّهـرِ ... يـومَ الخميسِ يا له من أمْـرِ
فـي سـنةٍ تـاريخُـها "بـشمس" ... والـعمرُ "ديـن" كـضياءِ الـشمسِ

كما أرخ له محمد فال بن بابه في مرثيته له، مشيرا إلى قدر عمره بحساب الجُمَّـل، بقوله: (طويل)

و"صَـدٌّ" "بـشمس" عمـرُه ومـسيرُه ... فكان بـه للمكْـرُماتِ خِـتامُ.

الشيخ سيديّ بابَ.. الوزن الاجتماعي والسياسي وهَمُّ السلطة المركزية

الدكتور/ إزيدْ بيهْ ولد محمد محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

1 – وزنه الاجتماعي والسياسي: في البداية أود أن أنبه إلى أن الوزن الاجتماعي والسياسي للشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي جزء لا يتجزأ من سيرته أو تقديمه كما فضلت مفردات ورقة الندوة التي وزعت الأدوار على المشاركين فيها. وسيرة الرجل كذلك مرتبطة بأبويه ارتباطا وثيقا اعتبارا للفارق الزمني الوجيز بين الشخصيات الثلاث. فالشيخ سيديّ باب ابن لرجلين لعبا أدوارا سياسية واجتماعية كبيرة سواء على مستوى القبيلة التي ينتميان إليها أو على مستوى البلد ككل أو حتى على مستوى الأقاليم المجاورة.

فالشيخ سيديّ الكبير (1190 ــ 1284هـ) (1776 ــ 1868م) بما عرف عنه من علو الهمة وسعة المعارف، قارع الاستعمار الفرنسي عبر جهوده الماثلة في الوثائق التاريخية وعبر مراسلاته، بل إنه أكثر من ذلك حاول جمع كلمة البلاد وتوحيد الإمارات في وجه هذا الخطر. وقد عمل جهد المستطاع من أجل محاربة النزاعات والاقتتال بين قبائل ساكنة هذه البلاد. وكان فاعلا في نشر الثقافة والمعرفة في هذه الربوع.

وقد نحا نحوه ابنه الشيخ سيدِي محمد (1245 ــ 1285هـ) (1830 ــ 1869م) فكان ساعدَه الأيمن وكان خليفة له وكان فضلا على ذلك عونا له في تحقيق مقاصده آنفة الذكر غير أن الشيخ سيدِي محمد لم يعمر طويلا بعد والده.

ولكن الابنَ الشيخ سيديّ بابَ لم يخيب الظن، فقد قوى عوده وأبان عن خصال حميدة كبعد النظر والفطنة ورجاحة العقل وسداد الرأي وغزارة المعارف فماء العود من حيث يُعصر، فأجمع عليه قومه واتحدت كلمتهم فبايعوه رئيسا لهم، شأنه شأن أبيه وجده. وهي البيعة التي وثقها محمد محمود بن عبد الفتاح في قصيدة يمدحه فيها.

وقد كان الشيخ سيدي باب على قياس المهام التي وُكلت إليه وقد تصدى بحكمة مشهودة لجمل المشاكل التي كانت مطروحة بالنسبة له (صراع أولاد أبْيري وتاكُونانتْ وكذا إجَيْجَبَه وأولاد أبْيري...) واجه هذه المشاكل بحنكة بالغة ونفاذ بصيرة. فقد كان متّقد الذكاء قوي الذاكرة. وله قدرة فائقة على استحضار المعلومات التي تناسب المقام عند الاقتضاء ووقت الحاجة إليها. وكان يُعمل معارفه في دعم حججه وآرائه.. وكان إلى جانب ذلك خطيبا مفوها سريع البديهة وشاعرا فصيحا. هذه الخصال التي

يتمتع بها الشيخ سيديّ باب لا مرية فيها، يشهد بها معاصروه. وهي كفيلة بجلب الألبـــاب واســـتقطاب الرقاب والسيطرة على وجدان الناس خاصة لمن كانت له مؤلة اجتماعية تمكن لهذه الخصال.

وقد كان إلى ذلك كله موطأ الأكناف دمث الأخلاق يذم الكسل ويحفز على العمل ويعمل على مساعدة الضعفاء فكان يطعم الجائع ويسقي الظمآن ويفك العاني ويكسو العريان ويخلص الأسير..[1]

وكان الشيخ سيدي باب متفتحا وصاحب علاقات واسعة وكان يحب الأصـــدقاء ويرغـــب في كـــسبهم والإكثار منهم...

وقد كانت له مدرسة ذاع صيتها وطارت شهرتها في الآفاق إذ ارتفع فيها مستوى التعليم بشهادة الـــذين كتبوا عن عصره وقد ضمت في حرمها طلابا من سائر القبائل ومن مناكب البلاد الأربعة وهي عادة مألوفة عند أهل هذه البلاد، وذلك بالنظر لصعوبة الدراسة بين ذوي الطلاب في مضارب قبائلهم. وقد ساعده في ذلك البيئة التي نشأ فيها، فهي بيئة علمية سواء على المستوى المحلي الضيق أوعلى مستوى بـــلاد شـــنقيط الأرحب، فقد ازدهرت الحركة العلمية والثقافية في هذه الفترة. ولا نغالي إذا قلنا إن عصره كـــان عـــصر تنوير. وكان من عوامل التنوير في هذه الفترة وفرة الكتب وذلك عن طريق الاتصال بالمغرب، إذ أصـــبح أكثر كثافة بعد دخول الفرنسيين، وقد كان طريقا للحج والهجرة عن البلاد بعد ذلك. وقد كان الشناقطة ــ كما هو معلوم لديكم ــ يشترون الكتب ويقتنونها بأبخس الأثمان ويحملونها معهم في طريق عودتهم مـــن الحج أو المغرب نفسه، وكانت ترسل إليهم كهدايا.

وفي هذا المقام يحلو لي أن أذكر هنا أن محمد محمود بن التلاميد كان بدمته جميل على ما يبدو للشيخ سيدي باب ولم يجد هدية مكافئة لهذا الجميل سوى الكتاب. فأرسل إليه كتابا ومعه رسالة يقول في ثناياها:

ومَنْ جَـلَّ عـنْ كـلّ المَراتـب قـدرُه فأفضلُ ما يُهـدَى إليـه كتـــــابُ[2]

وقد رُوي عن جده الشيخ سيديّ ولد المختار أنه كان يبحث عن الكتب في مراكش ليشتريها فإذا أراد أن يقضي الثمن يسلم إلى البائع ما بقي عن المحاسبة بالغا ما بلغ[3].

وقد كان متحضّرا بطبيعته رغم بيئته البدوية الخالصة، كما كان له نظامه الخاص بـــه، إذ كانـــت لديـــه تشريفات وهي عنوان للسلطة الكبيرة التي كان يتمتع بها. وكان له حرس مدني مؤلف من أتباعه وتلامذته. وكان حريصا كل الحرص على تنظيم وقته وتسييره تسييرا محكما، فقد كان لديه وقت للمطالعة ووقـــت للتفكير ووقت للأعمال المختلفة. وكان يفرض الحجاب على زوجاته وبناته بالرغم من أن العادة في بـــلاد

---

[1] ـ الشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش، دراسة وتحقيق د. إزيد بيه بن محمد محمود، ط 3، 1423هـ 2003م، المعهد التربوي الوطني - نواكشوط، ص 32.

[2] ـ أحمد ولد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخنجي، مكتبة منير، مطبعة المدني، 1409هـ 1989م، ص 241.

[3] ـ د. إزيدبيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، أطروحة لنيل دكتوراه دولة، جامعة محمد الخامس 2000-2001م، ص 323.

شنقيط هي السفور.

وبالجملة فإن المكانة السامقة للشيخ سيدي بابَ في نفوس الناس والمنزلة الاجتماعية العلية له وشهرته، لم يكن كل ذلك حبيس الربوع التي عاش فيها، بل طارت شهرته خارج البلاد. وكان من أهم الشخصيات التي عرفتها منطقة غرب إفريقيا في عهده مع مطالع القرن العشرين. ومن يتصفح مراسلاته الخارجية يرى بناظريه مصداق هذه الوجهة. (انظر رسالة أبي شعيب عبد الرحمن الدكالي والمستشرق هوداس ومحمد محمود ولد التلاميذ التركزي ومحمد حبيب الله بن ميابى الجكني في أطروحة الزوايا في بلاد شنقيط ابتداء من الصفحة 320).

2- الشيخ سيدي بابَ وَهَمُّ السلطة المركزية: إذا كان الشيخ سيدي باب معاصرا لفترة التنوير العلمي التي نوهنا بها آنفا فإنه كان معاصرا كذلك لفترة سياسية حالكة كأنها الليالي الحنادس، فالسلب والنهب والاقتتال بين القبائل كان شرعة ومنهاجا لسكان هذه البلاد في الفترة التي عاصرها الشيخ سيدي باب وقد رأى بناظريه ما انجرَّ عنها من أضرار. وقد رد هذه الوضعية ـ بثاقب النظر ـ إلى غياب السلطة المركزية التي بإمكانها أن توفر الأمن والعافية. فما تعانيه البلاد في نظر الشيخ سيدي باب ناتج عن الفراغ السياسي أو ما يعرف عندنا اصطلاحا ب"السَّيْبَه"، بل إن المصطلح عنوان للبلاد، إذ هي موسومة ب"البلاد السائبة". وفي الذهن أنها على فترة من الحكام. (والسبب في الحروب الواقعة بين الزوايا قديما وحديثا سيبة البلاد، وعدم اعتناء من فيها من أهل الشوكة وغيرهم باتباع القرآن المجيد في قوله تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين"[1].

وقد تبين الشيخ سيدي باب من خلال إعمال النظر في التجارب السياسية لأسلافه أن محاولات عدة لنصب الإمام قد انتهت إلى الفشل، فلقد تبين أن البلاد منذ عهد المرابطين لم تخضع لسلطان مركزي يجبي الضرائب (*ولم يكن لها بيت المال المحتاج إليه في كل شيء*[2]) ويبسط الأمن والعافية ويحفظ الأموال والأهلين ويعمر الأرض ويفجر العيون لينعم أهلها بالرخاء ويرفلوا في حلل النماء.

وقد تبين كذلك أن هذه الوضعية الطبعت في أذهان الكتاب والمتشوقين للهم العام المعاصرين له بشكل عام، وخاصة فقهاء الأحكام السلطانية. إذ أجمعوا على تكييف هذه المعاني جميعا في تسميات تترك الانطباع بالتفكير في هذه المعاناة ـ معاناة هم الدولة ـ ونصب الإمام والمشاكل الناجمة عن الفراغ السياسي، وأشهرها ـ كما مر معنا ـ تسميتها بالبلاد السائبة (الخالية من سلطان أو أمير أو رئيس خير يدفع من ظلم الظلمة وجور الجائرين وعدوان المعتدين وسطوة المتسلطين...[3])

---

[1] - سورة الحجرات، الآية 9، ومن أجل الظفر بمظنة النص راجع الزوايا في بلاد شنقيط مرجع سابق، ص 226.

[2] - الشيخ سيدي باب ولد الشيخ سيدي، فتوى الرد على سؤال ورد من كزافيي كبلاني، مخطوط بحوزتنا نسخة منه ص 6.

[3] - الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار الرسالة الغلاوية، مخطوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي محفوظ تحت رقم 7332 ص101

ولابد أنه تبين كذلك أن هذه المحاولات انجرت عنها أضرار، إن لم نقل فتن أعظم شأنا وأعمق أثرا (انظر محاولات اجيجبه وتندغه، نموذجا للقبائل. وكذا محاولات ناصر الدين في منقطة الكبله وسيدي عبد الله ولد ميابي نموذجا للأفراد[1].. ولنأخذ نموذجا من النصوص التي تبين تبعات القيام بالأمور العامة في غياب السلطة المركزية (الإمام).

فقد أورد الشيخ سيدي الكبير في رسالته إلى قبيلة اجيجبه التي تصدت لأمر الحسبة ما يلي: *"ممن تصدى في هذا الزمان اليوم في إقامة الدين والدعاية إلى سبيل المهتدين، ثم رام أن يحمل الناس على فعل المعروف وترك المنكر وأن يغير مناكرهم بيده وأظهر عضده دون إمام تجتمع إليه الكلمة وتقوى به الصولة ويشد به ساعد الحق وتكون به على الباطل الدالة، فقد تصدى لإثارة فتنة تستباح فيها الدماء وتنهب فيها الأموال من غير فائدة ولا عائدة"*. مع أن قيام الدولة ونصب الإمام أقل ما فيه من الفوائد حقن الدماء وبسط العافية، فهو واجب شرعي بإجماع الفرق الإسلامية.

فلقد أورد ابن حزم أن هناك إجماعا بين أهل السنة والشيعة والخوارج والمرجئة على وجوب نصب الإمام وأن على الأمة أن تنصاع للإمام العادل الذي يقيم فيها أحكام كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[2].

وقد رأى أبو بكر الطرطوشي أن وجود السلطان في الأرض حكمة لله عظيمة ونعمة منه على العباد جزيلة باعتبار أن الله سبحانه وتعالى جبل الخلائق وفطرها على حب "الانتصاف وعدم الإنصاف.. ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت في البحر يزدرد الكبير الصغير، فمتى لم يكن سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقر لهم معاش"[3].

وقد عقد الطرطوشي مقارنة لطيفه بين قيام السلطان والفراغ السياسي الذي يعرف عندنا بالسيبه قائلا: *"ومثال السلطان القاهر لرعيته ورعية بلا سلطان، مثال بيت فيه سراج منير وحوله قيام من الناس يعالجون صنائعهم، فبينما هم كذلك إذ طفئ السراج فقبضوا أيديهم في الوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه (...) فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحية من معدنها، وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث من حقارته فتعطلت المنافع واستطالت فيهم المضار.. كذلك السلطان إذا كان قاهرا لرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهبها محقونة والحُرَمُ في خدورهن مَصونة، والأسواق عامرة والأموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهرا، والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خاملا، فإذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع، ولو جعل ظلم السلطان حولا في كفة كان هرج الناس ساعة أرجح وأعظم من ظلم السلطان حولا، وكيف لا وفي زوال السلطان أو ضعف شوكته سوق*

---

[1] - الزوايا في بلاد شنقيط مرجع سابق، ص 186 وما بعدها.
[2] - ابن حزم، الملل والنحل، جزء 4، ص87.
[3] - أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، دار الصادر، ط 1، بيروت، 1995م، ص 109

أهل الشر ومكسب الأجناد ونفاق أهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة. قال الفضيل: جور ستين سنة خير من هرج ساعة"[1].

وقد بين ابن خلدون في طرح خصيف وشامل لضرورة قيام الدولة ونصب الإمام والحاجة الماسة إلى السلطة المركزية، أن الدولة منصب طبيعي للإنسان على اعتبار أن البشر لا تمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم (...) فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يَزَعُ بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع الحاكم عليهم[2].

وقد عاصر الشيخ سيدي بابَ جيلا من حملة الهم العام كما مر معنا استصرخوا بني جلدتهم لقيام الدولة ونصب الإمام، أمثال الطالب أحمد ولد اطوير الجنة، وبابه ولد أحمد بيبه المتوفى **1276**هـ ومحنض بابه المتوفى سنة **1277**هـ والشيخ محمد المامي المتوفى **1292**هـ، بل إن الاهتمام بالسلطة المركزية ونصب الإمام دفع الطالب أحمد ولد اطوير الجنة إلى أن بايع سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام العلوي المتوفى **1276**هـ خشية أن يوافيه الموت وليس في عنقه بيعة: "وقلت له يا سيدي أخبَرَني شيخي قدَّسَ الله روحه ونوَّر ضريحة – الراجح أنه سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم– قال إنه في الحديث من مات ولم يدخل تحت بيعة سلطان مات ميتة جاهلية"[3].

ولابد أن الشيخ سيدي بابَ اطلع على آثار الحركة الإصلاحية في المشرق العربي لهذا العهد، وذلك عبر ما ينشر بالصحف والمجلات التي حرص على اقتنائها. فبمراجعة بسيطة في مكتبته نجد العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بين رفوفها، ولا يخفى عليكم أن بين ثناياها آراء صريحة في التعامل مع الوافد الأوروبي، هذا فضلا عن قضايا معاصرة أخرى كالإسلام والنصرانية وأسباب التقدم والتخلف والأمة والسلطان[4]. *وفضلا عن ذلك* فقد كان لديه اهتمام كبير وواسع بأوضاع الأصقاع العربية والإسلامية التي دخلها الوافد الأوروبي وخاصة الفرنسي منه، وقد لاحظ أنها أحسن حالا من الأقطار التي لم يدخلها.

وفي هذا الظرف بالذات كان الفرنسيون على مرمى سهم أو سهمين من البلاد وكانوا يتحفزون للتوغل فيها، فرجَّح الشيخ سيدي بابَ اعتبارا لكل ما سبق أن التعامل معهم شر لا بد منه، وضرورة لا غنى عنها. وقد مكن الشيخ سيدي بابَ لهذا الرأي من الوجهة الشرعية، بالجواب على السؤال الذي طرحه كبولاني، والمتعلق بجهاد الفرنسيين الذين لا يتعرضون للدين.

وقد برع الشيخ سيدي بابَ في إعمال النصوص الشرعية في ثنايا الرد وصرح بأن هذا كله مع أن النصارى على ما ذكر في السؤال لا يتعرضون للدين، بل يعينون عليه ببناء المساجد ونصب القضاة والقيام

---

[1] - الطرطوشي، المصدر السابق، ص109- 110.

[2] - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم و البربر، ومن عاصرهم من السلطان الأكبر، دار الكتاب للبناني - بيروت، 1968م ج1 - مقدمة، ص187.

[3] الطالب أحمد ولد أطوير الجنة، رحلة المنى والمنة، مخطوط المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص 10

[4] - جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، العروة الوثقى، ط 2، دار الكتاب العربي 1980م، بيروت، ص 9

بكثير غير ذلك من المصالح، ككف المتلصصين والمحاربين، وجعل السلم بين القبائل المتحاربة في هذه البلاد السائبة. ومن المعلوم أن الحاجة كانت ماسة لذلك *"فلعل الله تعالى أرسلهم رحمة لعباده ـــ يقصد الفرنسيين ـــ ولطفا بهم، فهو أهل لذلك والمرجو لما هنالك"*[1].

ولن يستغرب الدارس عمق النظر والنباهة التي طبعت إعمال الشيخ سيدي بابَ للنصوص إذا أحكم النظر في سعة اطلاعه وعلو همته واتقاد ذكائه. وقد استفاد الشيخ سيدي بابَ كثيرا في هذا المضمار من كتاب الناصري السلاوي المعروف بـــ "الاستقصا". ولا بأس هنا من تلخيص هذا الجواب الآنف الذكر في نقاط محددة حتى تعم الفائدة، إن شاء الله، من مضمونه:

أولا: أحقية الإمام بالمهادنة توخيا للمصلحة العامة.

ثانيا: عجز أهل هذه البلاد عن مواجهة الفرنسيين، اعتبارا للفرقة السياسية ـــ السيبة ـــ وغياب بيت المال وعدم التكافؤ في القدرات ـ السلاح مثلا ـ.

ثالثا: عدم وجوب الهجرة بحكم عدم القدرة عليها، ثم عدم تعرض الفرنسيين للدين، اعتبارا لفصلهم بين السلطتين بل الإعانة عليه وذلك ببناء المساجد ونصب القضاة.

رابعا: كف أيادي المتلصصين والمحاربين عن عامة المتضررين، ومن ثم إحلال السلم بين هذه القبائل المتحاربة في هذه البلاد السائبة.

خامسا: الترجي أن يكون الله تعالى أرسل الفرنسيين رحمة لعباده ولطفا بهم.

وفضلا عن هذا الجواب فإن الشيخ سيدي بابَ قد أغنى هذه الآراء ومكّن لهذه الوجهة في وثائق أخرى، كالرد على سيدي محمد ولد أحمد ولد حَبَت[2]، والاستعراض الحصيف الذي اختتم به كتابه عن إمبارتي إدوعيش ومشظوف. ويحلو لنا أن نختتم هذا الحديث المقتضب بفقرة من هذا الاستعراض تتعلق بصميم همّ السلطة المركزية عنده إذ اعتبر الوافد الفرنسي حلا مؤقتا لقيام السلطة المركزية ومكن لذلك في الوثائق التي نوهنا بها.

قال رحمه الله: *"فجاء الله تعالى، وهو العليم الحكيم، بدولة فرنسا فحقنت دماء هؤلاء المساكين وكفت عن أموالهم الأيدي العادية، فأيُّ نعمة أعظم من ذلك وأيُّ مصلحة فوق ما هنالك؟ إلى منافع أخرى، مثل الآبار التي حفروا وأحكموا والأسواق التي أقاموا والأطباء المهرة والأدوية المستكثرة من غير أجرة (...) ولو أن الزوايا والعرب وغيرهم من أهل هذه الأرض تذكروا ما كانوا فيه من القتل والنهب والفتن وأنواع الظلم واستحضروه وجعلوا المنافع الواصلة إليهم بسبب الفرانسة نصب أعينهم لاغتبطوا بقدومهم،*

---

[1] ـ الزوايا في بلاد شنقيط، مرج سابق، ص 208 وما بعدها

[2] ـ الشيخ سيدي بابا، ولد الشيخ سيدي، إمارتا إدوعيش ومشظوف، تحقيق د. إزيد بيه ولد محمد محمود، ص 163 و168.

وعلموا أن العافية لا يعدلها شيء وأن المصلحة تأتي كرها".[1] وقد سلم الشيخ سعد أبيه بهذه الآراء وكتب أنه لم يحمل الشيخ سيديّ بابَ على كتابتها إلا ما جعل الله في قلبه من الرأفة والرحمة بالمؤمنين والسياسة وحسن التدبير وراثة من آبائه الكرام.

وبالجملة فإن المكانة السياسية والاجتماعية السامقة التي كان يحتلها الشيخ سيدي باب في نفوس ساكنة هذه البلاد، بل في نفوس أهالي غرب إفريقيا عامة، هيّأته في الواقع لأن يلعب دورا سياسيا واجتماعيا، لا نجانب الصواب إذا قلنا إن صاحبه كان سابقا لأوانه، إذ ما تزال آراؤه تتحدى أذهان الساسة الكبار اليوم، وسيبقى هذا دَيْدَنها شيئا من الزمن مذكورا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[1] - إمارتا إدوعيش ومشظوف، مصدر سابق، ص 158.

الشيخ سيديّ (بابَ) بن الشيخ سيدي محمد وفقهه

((رجـــعـــة إلى مسألتي الاجتـــهاد والإمـــامـــة))

الدكتور/ يحيى ولد البراء

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين

ورضي الله عن الصحابة أجمعين

وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أشكر أصحاب مؤسسة الشيخ سيديَ على دعوتي لحضور هذا الجمع الكريم. هذه المؤسسة التي تحمل اسم علَم من أبرز الذين عرفتهم هذه البلاد. علَم نرى حصر مناقبه مما يفوت الطول والعرض ويستعصي على العادين. فهو الذي تناهى إليه جد الرجال في سبيل معارف تنقطع في طلبها أنفاس الطالبين وهو الذي دان له من لا يعد من أهل الأقلام وأرباب القلوب وأصحاب الشوكة من أهل بلاده واشتهر ذكره ودوّى عاليا في الخافقين.

وأعبر عن مبلغ شرفي بالتكليف بعرض ورقة عن فقه الشيخ سيدي بابَ وإن كنت أعي أني لكالمستبضع تمرا إلى خيبر، خاصة أن البضاعة مزجاة، وأن زناد الذهن لا يَري في الغالب إذا قدح، وأن هذه المسألة – التي سأطرق – قد تكلم فيها قبلي من لا يسعني إلا السكوت بعده وجاء فيها بما شفى الغليل فأفاد وأجاد. ولكن أصررت على التفكير في هذا الموضوع لقناعتي بضرورة تعدد المعالجات لكل موضوع نسعى لفهمه بشكل أكثر عمقا وقديما قال العرب: "إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض".

وهكذا فإنني لما فكرت مليا في عرض صورة عن فقه هذا العالم المجتهد، وجدتني أمام فقه جم ونظرة للأحكام متميزة تحتاج إلى من يكون متسلحا جسورا، منثور الكنانة ذا اطلاع ودربة وهي أمور لا يدركها إلا قعيد بالعلم وهيهات. فلقد كانت لهذا الرجل كما كانت لآبائه من قبل، انشغالات وهموم كبيرة تبدو للناظر على أكثر من مستوى. فهو رجل سياسة حاذق بتسيير الأمور بصير بتدبير الشأن العام، كاد أن يتفرد بالأمر والنهي في عموم الإفريقية الغربية. وهو مصلح اجتماعي حاول تثبيت الأمن واستتبابه وسعى إلى توحيد مجموع القبائل المتناحرة في مفهوم أمة واحدة وتحت سلطان مركزي زاجر. وهو علَم من أفراد العلماء المأمولي الفهم والنقل كاد بما كتبه من آثار أن يمثل مرحلة متميزة من تاريخ الفقه في هذه المنطقة. ولا غرابة في ذلك ففضلا عن تكوينه العلمي المتميز فقد كانت له نوافذ عدة على التراث الإسلامي لشق

المذاهب الفقهية ونشط في اقتناء كتبها حتى ليذكر أنه اجتمعت بين يديه ذات ليلة مائة وأربعة من كتب المذهب الحنفي[1].

لذا نعتبر أن آثار هذا الرجل الفقهية تمثل تراثا متميزا يستدعي من المتعرض لحياته التوقف عندها ولو بشيء من الإيجاز والطي وتنزيلها في سياقها الذي يخصصها وتبوئها مكانتها من البناء الفقهي العام الذي ينتظم سكان البلد جميعا.

الفقه المالكي في المنطقة: نرى من الضروري أن نشير إلى أن المذهب المالكي المتعبَّد به في هذه البلاد قد انطبع بميزتين بنيويتين إحداهما الطبيعة البدوية وما يلازمها غالبا من عدم الاستقرار وقلة التدوين والثانية التسيب السياسي وما ينجر عنه من تعطيل لبعض الأحكام الشرعية وعدم تنفيذ لأغلب الأقضية. كما امتاز ببروز مدرستين داخله: إحداهما المدرسة المصرية من الأجاهرة أو الأزاهرة التي تقوت ابتداء من القرن العاشر الهجري وعُدَّ شيوخ المحاظر الأوائل من أكابر ممثليها. والثانية المدرسة المغربية التي جاءت متأخرة من حيث الأثر ـــ إذ لم نجد لها ممثلين إلا في القرن الثالث عشر الهجري ـــ وإن كنا نرجح أنها أقدم بكثير في المنطقة من المدرسة الأخرى.

وانطلاقا من المدونة الإفتائية التي عملنا على جمعها منذ عقدين من الزمن، والتي غطت الفترة الزمنية المبتدئة من القرن الهجري الحادي عشر إلى اليوم ومسحت المنطقة الممتدة من اكليميم وتندوف شمالا، إلى منطقة سالوم وسيكو وماسنا جنوبا، ومن أزواد شرقا، إلى المحيط الأطلسي غربا، تبين لنا أن الفقه الإسلامي في هذه المنطقة عرف ثلاث مراحل متداخلة وإن امتازت كل واحدة عن الأخرى بقسمات تختص بها.

في المرحلة الأولى وهي التي تبدأ من القرن الحادي عشر الهجري وتستمر على طول كل القرون التالية، انتظم الفقه درسا وتدريسا وتأليفا في الأخذ بما درج عليه فقهاء المالكية الأوائل فكان الفقه في هذه المرحلة شديد النفس التقليدي لدرجة كادت تغيب فيها المدارك ويزول الرجوع إلى الأصول. ويمكن أن نمثل لهذه الفترة بفتاوى ابن الأعمش العلوي (ت. **1107**هـ) وابن آغبدي الزيدي (ت. **1122**هـ) والشريف حمى الله التشيتي (ت. **1193**هـ).

أما المرحلة الثانية وتكاد تنحصر في القرن الثالث عشر الهجري فقد بدت أكثر انعتاقا من أسر التقليد ولذا يظهر فيها الرجوع إلى الأصول من قرآن وسنة وإن كان أصحابها لا يدعون الاجتهاد وقليلا ما ادعي لهم. ويمثل هذه الفترة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت. **1233**هـ) وحرمه بن عبد الجليل (ت. **1243**هـ) وأحمد بن محمد العاقل (ت. **1244**هـ) والشيخ سيدي بن المختار بن الهيبه (ت.

---

[1]- هكذا تحكي الرواية الشفهية المتداولة. وضبط العدد هنا يفيد ضمن ما يفيده المبالغة في الكثرة.

1284هـ).

أما المرحلة الثالثة وتمتد من القرن الثالث عشر الهجري إلى ما بعده، فهي التي ظهرت فيها الدعوة للاجتهاد صريحة وإن اختلفت في طرقها ومراميها. ولم تأخذ هذه المرحلة سمتها كاتجاه متميز وموصول السير إلا مع الشيخ سيدي بابه وإن كانت ظهرت إرهاصاتها في القرن السابق عليه مع بجيدري بن حبّل (ت. 1204هـ) ومن يرى رأيه. ويبدو أن أول بحث صريح لمسألة ضرورة الاجتهاد، جاء مع دعوة هذا الرجل الأصولية التي رنّ صداها في المنطقة وأخذت ردةُ فعلها عند العلماء صورا متباينة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشيخ سيدي بابَ في مسعاه هذا كانت له رؤيته الفقهية الخاصة التي جعلت منه نموذجا خاصا يُقتدى وتُترسم خطاه فكان بذلك رائدا في مجال التجديد الفقهي.

وسنحاول الاقتصار هنا على نقطتين من فقه هذا العلَم نراهما حريتين بالدرس والتوقف وذلك نظرا لطبيعتهما الإشكالية ولكونهما ما زالتا مطروحتين بل وبشكل ملح على الناس ونظرا أيضا لما تثيرانه من شجون معرفية واستلزامات حضارية. إحداهما تتعلق بموقفه من التقليد الصرف الذي درج عليه أبناء البلد منذ عُرف لهم تاريخ. والثانية تتعلق برؤيته السياسية التي قد تكون متميزة عن النسق الفكري الذي درج عليه الفقهاء المالكية في التعامل مع الأوضاع السياسية الشاذة.

المسألة الأصولية (الاجتهاد): بالرغم من أن الشيخ سيدي بابَ قد دعا إلى الأخذ بالدليل لما فيه من تبرئة الذمة فإن ذلك لم ينسحب فيما يبدو على كامل ميادين الفقه الإسلامي عنده وإنما كاد أن يختص بجانب العبادات منه. أما جانب المعاملات فقد ظل فيه قريبا من الرأي السائد عند فقهاء البلد من المالكية. فقد كان معه فقهاء يقضون بين الناس بما في المختصر والتحفة فلا يعترض عليهم ولا يراجع ما به حكموا ولا ينقض ما له أبرموا.

غير أن آراءه في الترجيح التي ضمنها كتابه "إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين" وأشار لها في بعض من فتاويه، تجعل بمكنة الناظر أن يركب شكلا ينتج حكما عاما مؤداه أنه كان ذا تصور أصولي متكامل يغطي كامل البناء التشريعي وإن اقتصر جهده في البداية على الجوانب التعبدية التي تلزم فيها الحيطة. وربما يرجع ذلك إلى أنه جاء في فترة عم فيها التقليد وكثرت دواعيه.

وكما أسلفنا قبل فإنه بالرغم من تأكيد الفقهاء المخلين على ضرورة التزام التقليد والاطمئنان إليه سبيلا تبرئ الذمة وتقي من زلقات البدع، بل وتشبثهم بالفقه المالكي وبالخصوص في صياغته الخليلية القاسمية التي يعتبرونها من خلال مختصر خليل بن إسحاق الجندي النموذج الأكفي والأوعب، فإننا نحس ونحن نتتبع الموروث الإفتائي الذي خلفوه أن شكلا ما من الاجتهاد ظل يفرض نفسه سواء تعلق الأمر بطبيعة النوازل التي يعالجون أو بشكل الاستدلال الفقهي الذي يستعملون.

وبالفعل فإن أبرز نقطة دار حولها النقاش بين علماء المنطقة تظل بلا خلاف مسألة الاجتهاد والتقليد أو التبصر والإتباع. فقد ذهب أغلب أهل العلم من السكان إلى أن التقليد وهو "العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة أو بدون البحث عن حجته أو دليله"، في هذه القرون المتأخرة أصبح أمرا لازما. لا لأنهم يقرون بأن هذه الأصول استنفدت طاقتها بل لما يحذرون منه من إتباع الهوى وكثرة الجهل بين الناس.

وهكذا أثارت مسألة التقليد في طول البلاد وعرضها نقاشات طويلة الذيل ومطارحات واسعة النطاق. فقد درج أغلب الفقهاء من أهل المنطقة إلى اعتماد ما في مختصر خليل وتحفة ابن عاصم من الفقه باعتبارة نقاية وخلاصة ما في الأمهات[1]. ولذا فإنهما معمول بهما ومعول عليهما في مذهب مالك. ومَن أبطلَ ما فيهما بالكلية فلا يُعمل بقوله ولا يلتفت إليه. لأنهما منذ نحو خمسمائة عام وهما تتعاطاهما الأئمة شرقا وغربا إلى الآن حتى صارا في الفروع الظنية كالتواتر على صحة ما فيهما[2].

فذهب الغالب من الفقهاء إلى أن التمذهب واجب إجماعا وأن الأمة أجمعت على وجوب اتباع أحد الأئمة الذين انضبطت مذاهبهم ودُوِّنت[3]. وأنه إذا لم يوجد من تلك المذاهب إلا واحد كما الحال بالنسبة لأهل المغرب مع مذهب مالك، فإن العدول عنه لا يجوز لعدم وجود غيره[4]. ولأجل كون الأحكام لا تؤخذ من الحديث لكثرة المُعارض، وُجدت أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من الستة لم يعمل بها مالك. كحديث قطع الصلاة لمرور المرأة والكلب الأسود والحمار، وحديث معاذ الذي يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم العشاء ويؤم فيها قومه، وكصلاة النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه جالسا وهو مقتد بأبي بكر والناس مقتدون بالنبي قياما. وقد أتى مالك في الموطإ بكثير من الأحاديث الصحيحة مخالفة لمشهوره في المدونة.

وبالرغم من ذلك ظهر في المنطقة تيار محتشم يطالب بالاجتهاد أو يدَّعيه، تقْوَى نزعتُه أحيانا فتظهر آراؤه جلية ولكنها سرعان ما تخفت وتتلاشى. ولم يظهر تيار متميز مستمر يدعو لهذا التجديد إلا مع بروز الشيخ سيديَّ ودعوته إلى ذلك. وإنما برز علماء قلائل يدعون إلى ضرورة الاجتهاد صراحة وذلك عن طريق نبذ الفروع باعتبارها اجتهادات غير ملزمة إذ هي محكومة بسياقاتها الزمنية والبيئية خاصة أن معظم النصوص الشرعية قد جاءت في صورة مبادئ كلية وأحكام عامة ولم تتعرض للجزئيات والتفصيلات والكيفيات إلا فيما كان من شأنه الدوام والثبات.

غير أن الداعين إلى الاجتهاد قد عرفوا ازديادا ملاحظا في القرنين الأخيرين، وإن أخذ المنضمون إلى القول به مذاهب متباينة، تذهب من الإخبار به إلى تركه من لازم الخبر. فمن القائلين به صراحة نرى الشيخ

---

[1]- نقلا من عملنا: "المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء"، (قيد الطبع).
[2]- نفس المصدر.
[3]- نفس المصدر.
[4]- نفس المصدر.

مُحمَّد المامي الذي أحس بالحاجة الملحة إلى الاجتهاد في عصره ومصره فقال: "فحاشى الذي أنزل في كتابه: "ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون". ورحم أصحاب الأعراف لما كانوا في رحمته يطمعون من أن يجعل علينا أهل القرن الثالث عشر حرجين: يخلي عصرنا من المجتهدين، ويمنع الكلام في نوازلنا على أمثل المقلدين، ولقد منع النظرَ في النوازل معاصرون لا تمر بهم سبعة أيام إلا اجتهدوا في نازلة[1].

كما تعكس المسائل الفقهية الفرعية التي دار حولها خلاف، مواطن حام بعض الفقهاء فيها حول الاجتهاد أو عمل به صراحة. فمسائل القبض والسدل، والبسملة، والرفع والسكوت والصلاة في الطائرة، وصلاة الجمعة، وثبوت الهلال بالتلغراف، والموقف من الحج، والسماع، والشاي، ونقل الدم، وزكاة الورق النقدي، وطعمية العلك، والتعامل مع البنك، والتأمين، كلها أسهمت في إثارة مسألة الاجتهاد إن بالتصريح أو بالتلويح.

فهذه النقاشات الطويلة التي دارت حول هذه المسائل، تعكس في بعض جوانبها محاولة كسر طوق التقليد الذي درج على الأخذ به علماء البلد، وذلك إما عن طريق الاستنجاد بأقوال بعض المذاهب، أو بالرجوع إلى الأصول (القرآن والسنة) ومحاولة الاستعانة بها لإعادة النظر في القول المذهبي مصدر الخلاف للتحقق من صحته أو للبحث عن قول آخر في المذهب يخالفه، أو بالاعتماد على اللغة أو بإعمال القياس والنظر.

ويمكن أن نعرض مشروع الشيخ سيدي بابَ التجديدي من خلال خطوتين:

1. الخطوة الأولى وهي تحري القول الراجح وهو عند الفقهاء ما قوي دليله: ويتحقق هذا المسلك في الفقيه المتمكن من الترجيح بين أقوال الإمام وبعض أصحابه، فيقررها ويرجح قولاً على قول آخر، ويميز أصح الأقوال من غيرها ويرتبها، ويحررها، ويكتب المؤلفات والتصانيف فيها، ويستند في ذلك إلى معرفة أدلة الأحكام ومرجحاتها، وأصول الإمام، ومعرفة علل الأحكام المنصوص عليها في المذهب ومآخذها.

كما يتحقق أيضا من دراسة آراء الفقهاء في المذاهب المختلفة دراسة مقارنة، بحيث يصور المسألة تصويرًا دقيقًا، ويعرض آراء المذاهب عرضًا صحيحًا، بحيث يعتمد في تقريرها على الكتب المعتمدة في كل مذهب، ويبين أسباب اختلاف الفقهاء فيها، ويذكر الأدلة التي استند إليها كل مذهب، ثم يقوم بتمحيصها وعركها سندًا ومتنًا ودلالة، ويقارن بعضها ببعض، بهدف الوصول إلى الرأي الذي تقويه الأدلة.

وهكذا يرى الشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي أنه من الأولى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانها على مذهب إمامه في تلك المسألة الموافقة للقرآن والسنة الصحيحة موافقا لإمامه ولاسيما إن اجتمعت هذه المرجحات كلها ومعها رواية عن إمامه أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحريا للحق. ولا يخالف هذا قول القرافي في شرح التنقيح: أما من

---

[1]- كتاب البادية (مخطوط).

ليس مجتهدا فلا يجوز له العمل بمقتضى حديث وإن صح عنده لاحتمال نسخه وتقييده. وكذلك لا يجوز للعامي الاعتماد على آيات الكتاب العزيز لما تقدم. بل الواجب على العامي تقليد مجتهد معتبر ليس إلا. (لا) يخلصه من الله تعالى إلا ذلك. كما أنه لا يخلص المجتهد التقليد بل ما يؤدي إليه اجتهاده بشرطه".

وهكذا يرى ضرورة تقديم راجح المذهب على قول ادُعيَ أنه هو المشهور على طريق اصطلاح المتأخرين. ولا يعمل براجح المذهب غالبا إلا إذا كان معضدا بمذاهب الأئمة الباقين.

وهكذا بحث في مسألة العمل بالراجح هل هو واجب أو راجح؟ وكيفية الترجيح وترتب الأحكام الشرعية بحسب الأحوال والأشخاص والزمان وكيف يتدرج الحكم بها من العزيمة إلى الرخصة. ومن المعروف أن المقلد الصرف له الحكم بالعرف باعتبار العرف عند الفقهاء المالكية هو أقوى المرجحات ولا يقتصر به على الترجيح من الخلاف بل يعتمد عليه أيضا في إنشاء حكم مقابل الحكم المتفق عليه وذلك في الأحكام التي مستندها العرف.

2. الخطوة الثانية القول بعدم انقطاع الاجتهاد: والاجتهاد يكون فيما لا نص فيه أو ما كثرت محامله أو ما تعارضت فيه الأدلة ولم يُبين رجحان لبعضها. فدائرة الاجتهاد تطال النظر فيما لا نص فيه أو ما فيه نص ظني الثبوت أو ظني الدلالة، مما يحتمل تعدد الاجتهاد والفهم والاستنباط. وفكرة أن المقاصد الشرعية تتحول بدورها إلى معيار تتحدد به كيفية تطبيق النصوص الشرعية الصريحة مسألة تجد لها صدى في شكل معالجة الشيخ سيديّ باب لمسألة الإمامة. وهي فكرة توسع من مجال الاجتهاد بل تجعل الاجتهاد ممكنا مع النص وفي حالة وضوح حكمه".

والعمل بالحديث أمر واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة لا تبرأ منه الذمة إلا بمحقق. ولا سيما إذا وجد من عمل به من الأئمة الآخرين غير الذي طرحه لعلة وجُهلت. وردوا عليهم أيضا بآيات وأحاديث وآثار للسلف كثيرة. وكلام الإمام مالك وباقي الأربعة بالوصية على طرح ما قالوا إذا صح الحديث وبكثير من كلام الفقهاء. وأقوى ما عند الفقهاء الذين قالوا بتقديم المذهب على الحديث من الأدلة، أن الإمام تأبى عدالته وعلمه وورعه عن طرح الحديث بلا علة. لأن ذلك مسقط لعدالته الثابتة وأولى إمامته. وأن خفاءها على غيره لا يقدح في صحة مذهبه ولا يمنع من العمل به ولا سيما إذا كان مقلدا ضعيفا عن الاطلاع عليها. إلا إذا نص الإمام على أنه لم يبلغه وصح عند متقن الحديث كالبُخاري ومسلم.

هذا ولا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به. لأن المذاهب إنما تكون لمن له نوع نظر واستدلال. فمن ليس كذلك لا يكون بقوله "أنا مالكي" مثلا مالكيا بل هي مجرد دعوى كاذبة.

وهكذا يرى الشيخ سيدي أن التقيد بمذهب إمام معين من غير نظر إلى دليل من الكتاب والسنة جهل

---

[1]- نفس المصدر.

عظيم لأنه مجرد دعوى وعصبية. والأئمة المجتهدون قاطبة على خلافه. لأنه صح عن كل واحد منهم ذم التقليد بغير دليل وإبطاله. لأن إمامه لو بلغه الحديث السالم من المعارض لترك رأيه واتبع الحديث. وطريقة أهل العلم سلفا وخلفا أخذ أقوال العلماء وضبطها وعرضها على القرآن والسنن وأقوال الخلفاء الراشدين فما وافق ذلك قبلوه ودانوا الله به وأفتوا به وما خالف منها ردوه ولم يلتفتوا إليه. وما لم يتبين لهم جعلوه من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الإتباع لا واجبة. من غير أن يلزموا بها أحدا ولا يقولون إنها الحق دون ما خالفها.

المسألة السياسية (الإمامة): يمكن انطلاقا من قراءة في ما كتبه الشيخ سيدي بابَ أن نتبين معالم نظرية سياسية متكاملة. نحسبها جد مختلفة عن التنظير السلطاني الذي درج عليه علماء المنطقة بل علماء المذهب المالكي عموما. وهي تعتمد كما أسلفنا على مبدأ الاستصلاح.

لقد كتب الشيخ سيدي باب رسائل عدة في مسألة التغلغل الاستعماري في البلاد. وسنحاول في هذا المكان استعراض أدلته من خلال قراءة في أربع من هذه الرسائل نحسبها هي أهم ما كتبه حول هذا الموضوع. خاصة أنها تناولت أدلته سواء في جانبها الأصولي ومداركها أو في جانبها الفروعي وتطبيقاتها.

ويمكن أن نحدد معالم هذه النظرية في نقاط مختلفة تناولها عدة مرات وعاد إليها في أكثر من رسالة واستدل لها بالعديد من النصوص والتجارب والأقيسة. وهذه النقاط هي:

1. لماذا ضعف المسلمون؟ يرى الشيخ سيدي بابَ أن سبب ضعف المسلمين وتخاذلهم وغلبة غيرهم عليهم هو حيدان هذه الأمة عما كان عليه سلفها الصالح من الصحابة وتابعيهم رضوان الله عليهم. فاتبع الأمراء الشهوات وابتدع العلماء والصالحون البدع وطلبوا الدنيا بالدين وبقيت العامة حيارى لا يجدون مرشدا ولا يهتدون سبيلا. فتخلف النصر عنها وظهر عليها مخالفوها فلا ترى شبرا من الأرض منذ حين فتحه المسلمون ولا تزال ترى إقليما فتحه النصارى. ولا يزال ذلك ما لم تراجع الأمة دينها وتخلص اتباع سنة نبيها عليه الصلاة والسلام.[1]

2. ضرورة نصب الإمام وخطر التسيب السياسي والانفلات الأمني: لقد عالج الشيخ سيدي بابَ مسألة التسيب وكيف لازمت هذا المجتمع منذ أحقاب حتى قدوم الفرنسيين أيام المد الاستعماري، وبدئهم إدارة البلد والإشراف عليه. وأشار إلى أن ما قد يحصل من محاولات سلطوية في بعض أجزاء البلد كالإمارات والمشيخات، لم ينف أبدا سمة السيبة والفوضى عن عمومه.

فهذه الإفريقية الغربية حسب تعبيره لم تزل منذ قرون كثيرة بلادا سائبة يتقاتل أهلها ويتظالمون ويفقدون مصالح عظيمة ومرافق كثيرة إلى أن غلبت عليها الدولة الفرنساوية فحقنت الدماء وحفظت الأموال

---

[1] نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمد بن حبت الغلاوي (ضمن عملنا: "المجموعة الكبرى الشاملة للفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء"، قيد الطبع).

وأصلحت الأحوال. ويشير إلى أن بعض من ضُرب على يده عن ظلم كان يعتاده أو كُلف بشيء من مصالح الأرض التي لم يكن يعرفها ربما تسخط من هذا الواقع وغفل عن مصالح هي أعظم في دخول هذه الدولة ونسي مفاسد هي أدهى وأمرُّ كانت حاصلة قبلها[أ].

ويرى أن ما في السيبة من المفاسد لا يخفى على ذي عينين والعيان فيه مغن عن البيان. والسيبة وضعية شاذة وخطيرة على الدين فقد قال مالك والثوري: "سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار". ولا يخفى ما صارت إليه بلاد السودان لما دخلها الفرنسيون من العافية والعمارة بعدما كانت فيه من عكس ذاكم[ب]. كما يرى أن مسألة السلطان مسألة جوهرية في الدين. وذلك لما جعل الله تعالى في السلطان من المصالح[ت]. ولهذا تكون السيبة أخطر فتنة تواجه المسلمين وتفل من شباة قوتهم ووحدتهم.

فالمسلمون في هذا القطر البيضاني الآن أسوأ حالا وأضيع أنفسا ومالا بسبب ذلك من السودان الذين في ملكة هذا الجنس منذ حين. بل لا نسبة بينهم وبينهم. فهؤلاء في عذاب أليم وأولئك في نعيم. مع اتفاقهم على أن دينهم منذ ملكهم لم يزل في زيادة صلاح. فقد كان جلهم كفرة فصار جلهم مسلمين. وكانوا يتقاتلون دائما ويتناهبون وينهبون من دخل أراضيهم من تجار المسلمين. فصارت الحال بخلاف ذلك كله. وصارت أرضهم الآن جنة من جنان الدنيا أمنا وعافية ومعاشا. وتيسر الحج وسائر العبادات والأسباب فيها غاية. فليس شيء أرفق ببيضان هذا القطر ولا أصلح لهم من أن يصيروا مثلهم. ولولا وخامة تلك الأرض على البيضان لارتحلنا إليها منذ سنين ورأيناه أصلح لسائر المسلمين[ث].

وقد علمت حال المغرب الأوسط المعروف بأرض الجزائر وقد ملكه الفرنسيس منذ نحو سبعين عاما وحال تونس وقد ملكوها منذ نحو ثلاثين سنة وحال اتوات وسائر التكرور. وقد علمت حال مصر والهند وجاوه وهوصَ بعد ملك الإنجليز لهم. فلم يزل الدين قائما في هذه الأصقاع وأهله في عافية. وإن قدر بعض المفاسد فمفسدة السيبة والحرب مع العجز عنها أعظم. ومن القواعد المجمع عليها ارتكاب أخف الضررين وترك أعظم المفسدتين[ج].

هذا وأكثر بلاد الإسلام الآن والمعتبر منها للدين والدنيا تحت إيالة الأمم المسيحية. فأين المفر لهارب ولنا البسيطتان التراب والماء؟ على أن البلاد في حماية الأمم المسيحية اليوم هي التي يمكن فيها صلاح دين أو معاش. ولا عبرة ببقائها سائبة قاحلة معمورة باللصوص المحاربين لا تأمن فيها نفس المسلم ولا ماله ولا

[أ]- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينگال (مصدر سابق).
[ب]- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل أطار وغيرهم من أهل آدرار (ضمن عملنا: "المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء"، قيد الطبع).
[ت]- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينگال وسائر هذه الإفريقية الغربية (ضمن عملنا: "المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء"، قيد الطبع).
[ث]- نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمد بن حبت (مصدر سابق).
[ج]- نفس المصدر.

يتيسر له فيها علم ولا عمل، ولا ينبئك مثل خبير

3. مسألة حكم المخالف في الدين وضرورة طاعته: أما عن حكم المخالف في الدين القائم بأمور المسلمين فهو يرى أن ما ذكر من الشروط في باب الإمامة مبني على الاختيار والاقتدار. وأما عند العجز والاضطرار واستيلاء الفجار ونحوه فقد صارت الرئاسة الدنيوية تغلبية وبُنيت عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإمام ضرورة ولم يُعبأ بالشرائط والضرورات تبيح المحظورات. وفي البناني أن المتغلب لا يشترط فيه شرط لأن من اشتدت وطأته وجبت طاعته. ومن تأمل صلح الحديبية في الصحيحين وقضية إبراهيم عليه السلام مع الجبار في شأن سارة علم أن الأمور الجارية بين المسلمين والمخالفين يدور الحكم الشرعي فيها مع المصلحة حيث دارت[ب].

وقد عُلم ما نصوا عليه من احتمال بعض الضيم للمصلحة أخذا من قضية صلح الحديبية. إذ صالحهم صلى الله عليه وسلم على رد من جاء مسلما وهم يعذبونه ليردوه إلى الكفر نظرا منه صلى الله عليه وسلم إلى مصلحة أعظم[ت]. وقوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين". فإنها غير منسوخة عند الأكثر كما في القسطلاني في بابَ صلة الوالد المشرك من كتاب الأدب[ث]. ولهذا فإنه يوصى بطاعة هذه الدولة الفرنساوية ونصيحتها فقد أصلح الله تعالى بها البلاد ورحم بها العباد وحسم بها الفساد بعد ما تطاول قرونا وأفنَ فنونا[ج]. واعلموا أن هذه الأمور يغلط فيها كثير من الناس ويعتريه فيها التباس ووسواس. منها أن وجوب طاعة الأمراء خاص بالمسلمين منهم وذلك إنما هو في حالة عدم التغلب. وأما عند التغلب فتجب طاعة من تغلب كائنا من كان. والمدار على المصلحة فما كان أصلح فهو المطلوب شرعا. ومنها أنهم يعلمون أن الموالاة والموادة والركون المنهي عنهما في القرآن المجيد إنما هي في أمر الدين. وأما في أمر الدنيا فلا بأس بها[ح].

ومنها أن إعانة بعض المخالفين في الدين على بعضهم أو على المحاربين المفسدين في الأرض لا بأس بها إذا طلبوا ذلك ولا سيما عند الحاجة إليها[خ].

ومنها أنه إذا لم يمكن العدل إلا بالسلطان المخالف في الدين المتغلب بشوكته فالدخول في طاعته أولى. ومبنى ما ذكر في باب الإمامة على الاختيار والاقتدار وأما عند العجز والاضطرار واستيلاء الظلمة والكفار، فإن الرياسة الدنيوية تصبح تغلبية وتبنى عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإمام ضرورة ولم يُعبأ

ا- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينگال (مصدر سابق).
ب- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل أطار وغيرهم (مصدر سابق).
ت- نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمد بن حبت (مصدر سابق).
ث- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينگال (مصدر سابق).
ج- نفس المصدر.
ح- نفس المصدر.
خ- نفس المصدر.

بعدم العلم والعدالة وسائر الشرائط. والضرورات تبيح المحظورات. وفي شرح ميارة للامية الزقاق تنبيه: "وإنما يجب قيامهم على الكافر منهم والفاسق على أحد القولين إذا تخيل المسلمون أن القوة لهم وإن تحققوا العجز لم يجب القيام على الأول ويحرم على الثاني ويجب على المسلم الهجرة من أرضه إلى غيرها". وفي البناني: "واعلم أن الإمامة تثبت بأحد أمور ثلاثة. إما بيعة أهل الحل والعقد. وإما بعهد الإمام الذي قبله له. وإما بتغلبه على الناس. وحينئذ فلا يشترط فيه شرط. لأن من اشتدت وطأته وجبت طاعته. وأهل الحل والعقد من اجتمع فيه ثلاث صفات العدالة والعلم بشروط الإمامة والرأي. وشروط الإمامة ثلاثة: كونه مستجمعا لشروط القضاء وكونه قرشيا وكونه ذا نجدة وكفاية في المعضلات ونزول الدواهي والملمات"[أ].

4. مسألة عدم التعرض للدين: لقد تفطن الشيخ سيدي بابَ إلى أن الدولة الفرنسية نظام علماني. ولذا يقول: "فقد تقرر في قوانينهم المتفق عليها بينهم منذ حين عدم التعرض لأحد من أهل الأديان كائنا من كان. وأن من تعرض لصاحب دين من المسلمين وغيرهم يعاقب عقوبة شديدة. وشاهدنا مصداق ذلك. وقد رأينا من أسلم من الفرنسيس وغيرهم في الدر والدكار لا يعرضون له بقليل و(لا) كثير بل يكادون تكون النصرانية وسائر الملل عند جمهورهم الآن سواء. بل عونهم على إظهار شعائر الإسلام ببناء المساجد وإقامة الأئمة فيها والمؤذنين والقضاة والمدرسين وإجراء أرزاقهم من بيت مالهم كل حين أمر مشهور وغير مستحيل في فضل الله تعالى وقدرته أن يؤيد دينه بالمخالفين أو يقودهم إلى الدخول فيه[ب].

ويقول أيضا: "هذا كله مع أن حال النصارى على ما ذكر في السؤال من عدم التعرض للدين ومن الإعانة عليه ببناء المساجد ونصب القضاة والقيام بكثير من غير ذلك من المصالح ككف المتلصصين والمحاربين وجعل السلم بين القبائل المتحاربة في هذه البلاد السائبة إلى غير ذلك[ت].

5. مسألة الموالاة والموادة: وأما مسألة الموالاة والموادة فإنه يرى أن المنهي عنه الدينية[ث]. فكل ما ورد في موالاة المخالف في الدين وموادته والركون إليه إنما هو في الدين[ج].

6. مسألة الجهاد: يرى الشيخ سيدي بابَ أن الجهاد وسيلة مقصدها إعلاء كلمة الله تعالى وأن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لم تشرع. وأن هذه المسألة تخفى كثيرا على أهل الفقه[ح]. ولا يخفى على الناظر عدم قدرة سكان البلد على الجهاد من كل وجه. فإذا تُحقق أو ظن عدم اتحاد الكلمة على السلطان

أ- نفس المصدر.
ب- نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمَد بن حبت (مصدر سابق).
ت- نقلا من فتواه التي يجيب بها السائل هل ينبغي للمسلمين أن يُجاهدوا النصارى في أرض هم بها غير متعرضين لهم في شيء من دينهم. بل يساعدونهم على اتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك. وهذا مع علم المسلمين أن لا قدرة لهم على الجهاد كأهل الجهة القبلية من أهل المغرب؟ (ضمن عملنا: "المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء"، قيد الطبع).
ث- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل أطار وغيرهم من أهل آدرار (مصدر سابق).
ج- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينغال (مصدر سابق).
ح- نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمَد بن حبت (مصدر سابق).

القاهر وعدم بيت المال وعدم السلاح المماثل وعدم العدد المكافئ وعدم الصنائع المقاومة ونحو ذلك من سائر أسباب القوة فقد تحقق أو ظن أن الغمرة إنما هي خلاف مقصد الجهاد. وبذلك تصير دماء المسلمين وأموالهم وحريمهم ضائعة في غير ثمرة تجنى. فيصير الجهاد مضرة خالصة فيكون فتنة من الفتن[أ]. هذا إضافة إلى أن أهل الفساد يجعلونه ذريعة لاستئصال شأفة المسلمين[ب].

فمن الواضح عجز أهل هذه البلاد عن مقاومة شوكة النصارى لعدم اتفاق الكلمة وعدم بيت المال المحتاج إليه في كل شيء وعدم السلاح المساوي أو المقارب لسلاح النصارى وغير ذلك. ويتعين على المسلمين في هذه الحالة أن يُهادنوا النصارى ولا يقصروا فيما يجلب لهم العافية منهم. ولا يُتعبوا أنفسهم بالمحاربة لهم[ت].

ومن تأمل أواخر تاريخ الاستقصاء وأمثاله من تواريخ أهل العصر واعتنى بمعرفة أحوال الزمان في البلاد القريبة والبعيدة علم أن العافية مع الإفرنج الآن هي المتعينة، والموافقة معهم هي الطريقة البينة شرعا ورأيا[ث].

7. مسألة الهجرة: يؤكد الشيخ سيدي بابَ أن الهجرة لا تتعين إلا مع أمرين: أولهما التعرض للدين وعدم التمكن من إقامة شعائر الإسلام وثانيهما التيسر وهما مفقودان[ج]. فالبلد الذي تظهر فيه شعائر الإسلام بلد إسلام. بل قال بعض العلماء إن الإقامة مع الكفار وإظهار شعائر الإسلام بينهم أفضل من الهجرة[ح]. فالهجرة لا تجب عند عدم التعرض للدين كما هو الواقع ولا سيما مع عدم الإمكان وعدم وجود أرض لائقة يُقام فيها الدين كما ينبغي لا سبيل للدول المسيحية عليها كما هو الواقع.

فالحديث القائل: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية"، يبين مشروعية الهجرة وأن سببها خوف الفتنة والحكم يدور مع علته. فمقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت. ومن ثم قال الماوردي إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام[خ].

وكما أن أهل هذه البلاد معذورون في ترك جهادهم بل مُتعين عليهم تركه، فهم أيضا معذورون في عدم الهجرة عن أرضهم التي دخلها عليهم النصارى لأجل الضعف عنها من كلهم أو جلهم حسبما يعلمه العارف بالأحوال ولعدم أرض لائقة بهم أمنا ومعاشا يُهاجرون إليها كما لا يخفى أيضا[د].

[أ]- نفس المصدر.
[ب]- نفس المصدر.
[ت]- نقلا من فتواه التي يجيب بها السائل هل ينبغي للمسلمين أن يُجاهدوا النصارى (مصدر سابق).
[ث]- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل أطار وغيرهم من أهل آدرار (مصدر سابق).
[ج]- نفس المصدر.
[ح]- نقلا من رسالته الموجهة إلى سيدي مُحَمَّد بن أحمَد بن حبت (مصدر سابق).
[خ]- نقلا من رسالته الموجهة إلى أهل سينگال (مصدر سابق).
[د]- نقلا من فتواه التي يجيب بها السائل هل ينبغي للمسلمين أن يُجاهدوا النصارى (مصدر سابق).

الخلاصة: نرى من هذه الآراء التي بين من خلالها الشيخ سيدي طبيعة تجديده الفقهي أنه من اللازم مراجعة المدونة الفقهية بعرضها على النص أولا ثم بتنزيلها في سياقاتها التاريخية والاجتماعية والحضارية. وذلك عن طريق تحري القول الأرجح في كل مسألة والقول الذي يحقق المصلحة للمسلمين.

كما نرى أن اعتماد مبدإ السلام والمسالمة الذي حاول بيان أهميته للحفاظ على الكليات الخمس في الحقبة التي عايشها مطلع القرن الفارط، يتأكد اليوم في حاضر المسلمين ويبدو أكثر أهمية وإلحاحا. فكيف إذن يمكن لنا انطلاقا من هذا التصور أن نعيد قراءة المشروع الحضاري الذي تقدم به الشيخ سيديا بابَ ومن حذا حذوه لنجعله من أولويات الخطاب الإسلامي المعاصر فنعمل على أن ينشر ويعمم بين المسلمين ويصدر لغير المسلمين باعتباره خطابا للمرحلة التي ما زال المسلمون يترددون فيها بين أحلام السبات وأوجاع الإفاقة.

والسلام عليكم وعلى الله قصد السبيل

المدرسة السنية و مـــظاهر التجديد عند الشيخ سيديّ بابَ

الدكتور/ الطيب بن عمر بن الحسين

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين أحمده على عظيم نعمائه وأرغب إليه في التوفيق والهداية وأبرأ إليه من الحول والقوة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الموحد المستبصر غير المتوقف المـــتحير. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على عبده وخاتم أنبيائه ورسله المـــصطفى الأمـــين أفـــضل الأولـــين والآخرين، المبعوث للخلق أجمعين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله عز وجل كما قال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" ولن تتم هذه العبادة إلا بالعلم الذي تستنير به السبل وتتضح به معالم الحق.. وأرقى أنواع العلوم وأجلـــها وأزكاها العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يضل من تمسك بهما.. وقد جاء النص الصريح بهذا المعنى في قوله سبحانه وتعالى: "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى" يستوي في ذلـــك نص واضح الدلالة أو اجتهاد في نص صادر من أهل الاجتهاد.

وعماد المجتهدين قوله تعالى: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منـــهم" وأولوا الأمر هنا هم العلماء الذين بذلوا غاية جهدهم فدرسوا وفهموا وحفظوا وقارنوا ورجحوا وميـــزوا الصحيح من الضعيف وعرفوا كيف تُستنبط الأحكام من مصادرها حتى صاروا بجهودهم يأخـــذون مـــا شاءوا لما شاءوا من أحكام وهدفهم الوصول إلى الحق. وقد أكد الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمـــه الله في صحيحه أن المراد بالطائفة الظاهرة على الحق هم أهل العلم وهم المنتصرون على من خالفهم ويراد بهم هنا: المفسرون والمحدثون والفقهاء بشؤون الحرب من المسلمين والآمرون بـــالمعروف والنـــاهون عـــن المنكر.

والإمام العلامة الشيخ سيديّ باب أحد هؤلاء العلماء وهو من القمم الشامخة وبصماته واضحة في علـــوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية، فقد صنف في الإعجاز القرآني والقراءات والعقائد والفقـــه والأصـــول والنحو والتاريخ. ولا غرابة في ذلك فهو من عائلة ذات شهرة علمية ودينية وسياسية كـــبيرة. ومدينـــة (بوتلميت) التي نشأ فيها كانت مورد طلاب العلم، يأتون إليها من أنحاء البلاد، فكان لذلك كلـــه الأثـــرُ الإيجابي على شخصيته العلمية.

وقد اشتغل بتحصيل العلوم منذ نعومة أظفاره، فحفظ القرآن قبل أن يبلغ عشر سنين وجد في طلب العلم على مشاهير علماء قطره. ولما ناهز العشرين من عمره تاقت نفسه إلى معرفة الحق من منبعه فعكف علـــى دراسة الكتاب والسنة واستجلب الكتب من الآفاق النائية بالأثمان الغالية واستنسخ منها ما لم يكن مطبوعا

حتى اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من أهل بلاده وأقبل عليها قراءة وتدريسا وتصنيفا بجد وحرص بالغين في التحصيل العلمي مع ما يتمتع به من درجة عالية من الذكاء والحفظ. ولما حفظ السنة جعلها نصب عينيه وعمل بها وكان لا يخشى في بيان الحق لومة لائم ولا يبالي بما يصيبه في سبيله. وقد أقبل الناس عليه واستفادوا من علمه وتخرج من مدرسته علماء أجلاء تأثروا بمنهجه وفكره السلفي.. وقاد حركة علمية لامعة تهدف إلى العودة بالإسلام إلى ينابيعه الصافية الأولى: كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونبذ الجمود والتعصب المذموم.

ومؤلفاته التي اتسمت بالأصالة والقيمة العلمية والخصوصية المنهجية ومظاهر التجديد البارزة، شاهدة بعمق معارفه العلمية وفهمه الثاقب وشخصيته الفذة، يعرف ذلك من درس أو طالع في هذه المؤلفات التي تعتبر واسطة العقد في مجالها، فقد أجاد فيها وأفاد وبين المنهج الذي ينبغي لطالب العلم المنصف أن يتبعه.. وأعانه على ذلك رسوخ قدمه في معرفة مقاصد الشريعة واطلاعه الواسع على أسرارها ودقائقها. ويمكن اعتباره مثالا في الاعتدال والوسطية التي خصص الله تعالى بها هذه الأمة من بين سائر الأمم والتي هي منهج أهل السنة والجماعة.

وهو فوق ذلك كله ذو نظرة شاملة لدين الله وفهم عميق لجذور البلاء ومكامن الخطر، فيصرف الدَّواء على بصيرة من تشخيص الداء ويعطي كل قضية حجمها من دين الله، فلا يبالغ فيما خَطْبُهُ يسيرٌ ولا يُهَوِّنُ من شأن أمر خطير. والاتصاف بهذه الشمولية وبهذا التوازن في التعامل مع قضايا هذا الدين صفة العلماء الراسخين في العلم، لذلك كله كانت له نظرة شديدة وموقفه في تأسيس مدرسة سنية سلفية رائدة في التصور الصحيح للإسلام ونظامه ومنهجه اعتقادا واقتصادا وقولا وعملا.

ولا غرابة في ذلك فهو مجدد عصره حسبما قرره العلماء الذين درسوا عليه أو طالعوا في مؤلفاته ورسائله النفيسة المفيدة التي أبلغته مرتبة "المجدد على رأس القرن الرابع عشر الهجري". وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[1].

وفي الحقيقة فإن الشيخ سيدي باب درس السنة المطهرة وجعلها نصب عينيه وعمل بها وأصبحت تدور عليها سائر أموره عقيدةً وشريعة وسلوكا، بل في حركاته وسكناته. وأسس مدرسة قائمة على الفكر الإسلامي الأصيل ومصادره الأولى الصافية وعكف على نشر العلم وخدمته فشاهد الناس علمه وعاينوا فضله وتمسكه بالسنة ورفضه لكل بدعة وضلالة.

وقد رفع شعار التجديد ونادى بعرض الآراء كلها على الكتاب والسنة وفق منهج سلف هذه الأمة. ولما كان جُل أهل القطر الشنقيطي في المعتقد على مذهب أبي الحسن الأشعري الأوسط، وفي الفروع على رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة، وفي التصوف منقسمين بين عدد من المدارس الصوفية، بين لهم أن

[1] ورواه ابو داود في سننه كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة ج 4 ص 109، 4291، دار الكتب العلمية " د. ت " ورواه أيضا الحاكم في المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للذهبي، الناشر دار الكتاب العربي بيروت " د.ت " ج 4 ص 529 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي..

الصواب في:

المسألة الأولى هو مذهب أهل القرون الثلاثة المفضلة. وهو رفض التأويل الكلامي، وإمرار ظواهر نصوص الكتاب والسنة كما جاءت، من غير تشبيه ولا تكييف ومن غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل على الوجه اللائق بالله عز وجل.

وفي المسألة الثانية بين لهم أن الواجب على العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء[1]، أن يعرضوا آراء الفقهاء، على الكتاب والسنة فما كان موافقا لهما أخذ، وما كان بخلاف ذلك ترك، لأن تقليد غير المعصوم في كل ما يقول من غير الرجوع إلى الدليل خطأ وخطر. وكان رحمه الله يحترم الأئمة ومذاهبهم على حد سواء، من غير تصعب لإمام أو مذهب معين يثني على الأئمة ويشكر سعيهم ويترحم عليهم وينظر في أقوالهم نظر منصف، فإن اتفقوا على مسألة بان له دليلهم فيها أو لم يبن له دليل على خلافهم، أخذ بها. وإن اختلفوا نظر إلى من معه الدليل فأخذ بقوله سواء كان واحدا أو أكثر.

والمسألة الثالثة مسألة التصوف وهي من المسائل التي دار الجدل حولها واختلفت آراء العلماء ومشاربهم فيها، بيّن بطريقة لا لبس فيها أن السلامة والفوز في اتباع الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمة السنة والابتعاد عن كل ما سوى ذلك.

وسنتناول بشيء من التفصيل مظاهر التجديد في فكر الشيخ سيدي باب الذي انعكس بجلاء على تلامذته ومدرسته ومحيطه العلمي والفكري بوجه عام، وذلك من خلال ثلاثة محاور في مجال الفكر الإسلامي وفيها ينحصر الدين وقد تقدمت الإشارة إليها آنفا وهي أصول الدين وفروعه والتربية والسلوك التي اصطلح على تسميتها بالتصوف.. فيما يلي بيان ذلك على النحو التالي:

1- مظاهر التجديد في أصول الدين: لقد نشأ الشيخ سيدي باب رحمه الله في عصر حافل بالصراعات الفكرية، بلغت فيه الصياغة الكلامية أوْجَها عمقا وانتشارا وسادت فيه حالة من الفوضى الفكرية. ورغم ذلك كله فقد تميز بعقيدته التي تابع فيها رجالَ خير القرون وضرب مثالا رائعا في الوقوف عند منهج السلف ونصرته والدعوة إليه والدفاع عنه. ودعا إلى إمرار ظواهر الكتاب والسنة كما جاءت على الوجه اللائق بالله عز وجل ونبذ التأويل الذي كان سائدا إبّانَ ذاك في كثير من المدارس الإسلامية وحرم علم الكلام وحذر من إدخاله في المعتقد تبعا لأئمة السلف[2].

---

[1] العلماء ورثة الأنبياء " جزء من حديث طويل أخرجه جمع من الأئمة منهم أبو داود في سننه ج 3 ص 317، وابن ماجه في سننه، ج1، ص 81، حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية ببيروت (د.ت.) وأحمد بن حنبل في مسنده ج 5 ص 196، المكتب الإسلامية (د.ت.) والترمذي في سننه ج4 ص 153، دار الفكر ببيروت 1398هـ وقال " لا يعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس إسناده عندي بمتصل هكذا حدثنا محمود بن خداش هذا الحديث، وإنما يروى هذا الحديث عن عاصم بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا أصح حديث محمود بن خداش " قال الحافظ بن حجر في فتح الباري ج ذ ص 160" أخرجه الحاكم مصححا من حديث أبي الدرداء، وحسنه حمزة الكناني، وله شواهد يتقوى بها " وانظر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي، ص 340 ، تعليق عبد الله محمد الصديق ، وتقديم عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى 1399 هـ.

[2] - محمد ابن أبي مدين، حياة باب بن الشيخ سيدي ص 2 مكتوب على الآلة الكاتبة (د. ت.) و انظر الدر النضيد للشيخ بداه بن البصيري ص 45 ورحلة الحج إلى بيت الله الحرام للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ص 8 الطبعة الأولى دار الشروق 1403 هـ ص 45 مخطوط عندي صوره.

ومع أن هذا مشهور عنه في الأوساط العلمية فسوف أذكر أمثلة ونماذج تدل عليه وتؤكده وأبدأ ذلك بمنظومته التي حررها على منهج السلف ومعتقدهم[1] في آيات الصفات وأحاديثها وهي قوله: (رجز)

ما أوْهَمَ التَّشْبِيهَ في آيات ... وفي أحاديثَ عن الثّقات
فَهْوَ صِفاتٌ وُصِفَ الرّحمنُ ... بها وواجبٌ بها الإيمانُ
ثم على ظاهرها نُبْقيها ... ونَحْذَرُ التأويلَ والتَّشْبيها
قال بِذا الثلاثةُ القُرونُ ... والخيرُ باتِّباعهم مَقْرُونُ
وَهْوَ الذي يَنْصُرُه القرآن ... والسُّنَنُ الصّحاحُ والحسانُ
وكم رآه من إمامٍ مُرتَضَى ... من الخلائفِ بناظرِ الرِّضا
ومَنْ أجازَ منهم التأويلا ... لم يُنكروا ذا المذهبَ الأصيلا
والحقُّ أنَّ مَنْ أصاب واحدْ ... لاسيما إنْ كان في العقائدْ
ووافقَ النصَّ وإجماعَ السلفْ ... فكيف لا يَتْبَعُ هذا مَنْ عَرفْ
ومن تأوّل فقد تكلّفا ... وغيرَ مالَهُ به علمٌ قَفا
وفي الذي هربَ منه قد وقَعْ ... وبعضهم عن قوله به رجعْ[2]
حتى حكى في مَنْعِهِ الإجماعا ... وجَعَلَ اجتنابه اتّباعا
وقد نَماهُ بعضُ أهل العلمِ ... من الأكابر لحزب جهْمِ
فاشدُدْ يديك أيُّها المُحِقُّ ... على الذي سمعتَ فهو الحقُّ[3]

وقد بين الشيخ باب رحمه الله تعالى في شرحه لهذه الأبيات ما يراه هو الحق وهو إثبات كل ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة من الصفات، قولية كانت أو فعلية أو ذاتية، معرضا عن التأويل متجنبا عن التشبيه، معتقدا أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الجارحة ومشابهة المخلوقات لا تشبه صفاته صفات المخلوقات كما لا تشبه ذاته ذوات مخلوقاته، مستشهدا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ذاكرا كلام أئمة السلف الذين لا ترقى التُّهَمُ إلى الشك في عقيدتهم.

ثم قال: *"وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار الذين ساروا على هذا المنهج كالإمام مالك والشافعي والسفيانين والليث بن سعد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم من الأئمة المتمسكين بهذا المذهب، كلهم تلقوا آيات الصفات وأحاديثها بالقبول تجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل حيث كانوا يقولون أمروها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل على حد قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".*

---

[1] . عطية محمد سالم: مقدمة كتاب الرحلة السابقة ص 8.
[2] . هذا قريب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل واحد من الثقاة لما أخبره به الرسول صلى الله عليه وسلم من الصفات لا ينفي شيئا قرارا مما هو محذور إلا وقد ثبت ما يلزم فيه نظير ما فر منه.. التدمرية ص 15 الطبعة الثالثة، نشر قصي محيي الدين الخطيب المطبعة السلفية 1400هـ.
[3] . يشير بذلك رحمه الله إلى أن كثيرا من كبار العلماء المتكلمين رجعوا عن تعاطي علم الكلام إلى مذاهب أهل السنة والجماعة.
[4] . باب بن الشيخ سيدي، عقيدته، ص 1 مخطوط، توجد منه صورة عندي، وبداه بن البصيري، الدر النضيد، المرجع السابق، ص 45.

ثم استطرد في نقول كثيرة عن خيار أئمة السلف تثبت وتؤيد ما ذهب إليه قائلا: *"هذا هو مذهب أهل السنة معتقد سلف الأمة[أ] فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة، وهم خير القرون[ب] بشهادة صاحب الشريعة؟ ثم إنه من المحال أن يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، ويترل عليه "اليوم أكملت لكم دينكم" ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما تجوز نسبته مما لا يجوز[ت]*.

والقارئ لهذا الكلام يلمس فيه ظاهرة من مظاهر التجديد في الحاضر الموريتانية. وهي الأخذ من فكر المدارس الأخرى ذات المشارب المختلفة في المشرق الإسلامي، نجد ذلك واضحا في التقارب الفكري والمنهجي بين الشيخ سيدي باب وشيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: *"كيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول صلى الله عليه وسلم على غاية التمام، ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه"*[ث]. وهذا الالتقاء في الأسلوب والمنهج الذي تقدمت الإشارة إليه له أمثلة كثيرة، تجعلنا لا نستبعد أن الشيخ سيدي باب في منهجه العقدي والفكري بوجه عام كان متأثرا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية أو أن الحق لا يختلف والله أعلم.

2- توسل الشيخ سيدي باب: في مجال التوسل، كان الشيخ باب متبعا لمنهج أهل السنة كغيره من مباحث العقيدة، وهو الوسيلة إليه تعالى بالعمل الصالح وأسمائه وصفاته جل شأنه، فقد عثرت له على منظومة تبلغ تسعة وتسعين بيتا يتوسل في كل بيت منها باسم من أسماء الله الحسنى وهذه نماذج منها:

يا اللـــــهُ قَرِّبْني إليكَ قُربَى ... وأكْرِمني بالمَقامِ الأرْبَى
وارْحَمْ مِنَ السوءِ وكلِّ رَيْنِ ... ضعْفي يا رحمنُ في الدارَيْنِ
واعطف علينا يا رحيمُ عَطْفَا ... يَعُمُّنا لفضْلاً ولُطْفَا
واغفرْ ذنوبي وامحُ من خطايا ... ما كانَ يا غَفّارُ في الخطايا
ولا تَرُدَّ يا سميعُ دَعْوَتي ... ولا تُقابلْ بالجفاءِ جَفْوَتي
وعُدْ بالُّلطْفِ يا بَصيرَا ... بخَلْقِهِ وكُنْ لنا نَصيرَا
واجعلْ حِسابي يا حسيبُ عَرْضاً ... أُسَرُّ إنْ لقيتُهُ وأرضَى[ج]

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الوسيلة المشروعة هي الوسيلة إليه تعالى بالعمل الصالح وأسمائه وصفاته كما سبق ذكره، وبدعاء الأنبياء والصالحين في حياتهم. قال الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: "يا أيها الذين

[أ] - عقيدة باب بن الشيخ سيدي، المرجع السابق، ص 2 - 3.

[ب] - يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا المعنى ما نصه: " من المحال أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين، وغير قائلين، في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضد ذلك إما عدم العلم، والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع الفتوى الحموية الكبرى، ص 12 تقديم عبد الرزاق حمزة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية 1403هـ.

[ت] - عقيدة باب بن الشيخ سيدي، المرجع السابق، ص 4.

[ث] - الحموية الكبرى، ص 12.

[ج] - راجع القصيدة كاملة في ديوان الشيخ سيدي بن باب، ص 60 مخطوط عندي صورة منه.

آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة": *"المعنى اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه"*[1]. وقال الشوكاني: *"الوسيلة قيل هي التقوى لأنها ملاك الأمر وكل الخير والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة، تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرب بها العباد إلى ربهم"*[2]. وقال الشنقيطي في كتابه أضواء البيان: *"جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه وفق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بإخلاص في ذلك لله عز وجل، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى الله ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة"*[3].

3- مظاهر التجديد في التصوف: كان الزهد والرغبة عن الدنيا إلى الحياة الآخرة هو سلوك السلف الصالح وقد حفظت لنا كتب علماء السنة الكثير من سيرة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان. ويتضح من خلالها ما كان عليه سلف هذه الأمة من الزهد وجهاد النفس القائم على تعاليم الكتاب والسنة وإيثار الحياة الآخرة على الدنيا[4].

وعلى هذا المنهج سار الشيخ سيدي باب رحمه الله فاعتنى بالسلوك والتربية السليمة وفق النصوص الشرعية والتوجيهات النبوية ورغّب في ذلك ودعا إلى وزن الأعمال كلها بميزان الكتاب والسنة وبيّن أن ذلك هو التصوف المرضي في مفهوم أهل السنة. وهذا المنهج الفكري في مجال التربية والسلوك يعتبر أحد مظاهر التجديد في الحاضر الموريتانية إبان ذاك. وبذلك يكون الشيخ سيدي باب بيّن الأسس المنهجية التي يقوم عليها التصوف الإسلامي الصحيح المعتدل المتمثل في تطبيق مقام الإحسان الذي يلتزم أصحابه بنصوص الكتاب والسنة ويزنون أعمالهم بتلك النصوص وفق ما كان عليه أهل القرون الثلاثة المشهود لها بالخير.. والذي أشار له بعض العارفين بقوله: (بسيط)

بَلِ التَّصَوُّفُ أنْ تَصْفو بلا كَدَرٍ ... وتَتَّبِعَ الحقَّ والقرآنَ والدِّينا
وأنْ تُرى عابدًا لله مُحتسِبًا ... عَلى ذنوبك طولَ الدَّهْرِ مَحْزُونا[5]

لذلك نجد الشيخ سيدي باب في تناوله لهذا الموضوع واضحا في الفكر والمنهج، حيث بين أنه لا حقيقة للتصوف المؤدي إلى النجاة إلا العلم والعمل الخالصين لوجه الله عز وجل إذ يقول: (رجز)

حقيقةُ الصوفي عند القومِ ... أهْلِ الصفاءِ مِنْ دواعي اللومِ
العالِمُ العاملُ في إخلاصِ ... لا غيرُ يا مبتغيَ الخلاصِ[6]

وبيّن رحمه الله أن الطرق الموصلة إلى الله عز وجل مسدودة إلا طريق السنة النبوية المطهرة وأن الكثير من

---

[1] - جامع البيان عن تأويل آي القرآن 6/ 226. الطبعة الثالثة شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر 1388 هـ.
[2] - فتح القدير 2/ 38 طبعة بيروت (د. ت.).
[3] - محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان 2 / 97 - 98 طبعة عالم الكتب بيروت (د. ت.).
[4] - راجع على سبيل المثال كتب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ص، 135 وما بعدها الطبعة الأولى دار الريان للتراث الإسلامي القاهرة 1408 هـ.
[5] - انظر كتب السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص 341 الطبعة الأولى، دار ابن حزم بيروت.
[6] - ديوان باب بن الشيخ سيدي مخطوط ص 55.

أئمة التربية الصوفية على صواب لأنهم كانوا يزنون أعمالهم بتعاليم الكتاب والسنة. ويذكر أن من مظاهر التجديد في الفكر الإسلامي عند الشيخ سيدي باب أنه درس كتب الحديث بمختلف جوانبها واستخلص منها الأوراد المأثورة في السنة النبوية الصحيحة وأعطاها لتلامذته وردَّ ما سوى ذلك من الأوراد[1]. لأنه كان لا يتجاوز الكتاب والسنة وما درج عليه سلف الأمة.

لقد قاد الشيخ سيدي باب رحمه الله دعوة تجديد صادقة في ضوء النصوص الشرعية، فأمر بتحقيق الإيمان الخالص وحض على الاستقامة في الدين و التمسك بالمنهج النبوي الشريف وحذر من المُحْدثات والبدع في الدين. يعلم ذلك من درس سيرته وآثاره القيمة. وأبياته التالية تلقي الضوء على هذا المعنى: (رجز مجزوء)

آمِنْ أُخَيَّ واستَقِمْ ... ونَهْجَ أحْمَدَ الْتَزِمْ
واجْتَنِبِ السُّبُلَ لا ... تَغُرَّكَ أضْغَاثُ الْحُلُمْ
لا خيرَ في دينٍ لَدَى ... خيرِ القرونِ قد عُدِمْ
أحْدَثَهُ مَنْ لَمْ يَرِدْ ... نَصٌّ بأنَّهُ عُصِمْ
مِنْ بَعْدِ ما قَدْ أنْزِلَتْ ... اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ[2]
وبَعْدَما صَحَّ لَدَى ... جمعٍ على غديرِ خُمْ
وادعُ إلى سبيلِهِ ... وخُصَّ في الناس وعُمْ
واذكُرْ إذا ما أعْرَضوا ... عَليكُمُ أنفُسَكُمْ[3]

إن الباحث المنصف في الفكر الإسلامي لا يستطيع أن ينكر أو يتجاهل مظاهر التجديد الفكرية والمنهجية عند الشيخ سيدي باب في عصر ساد فيه الجمود الفكري والتعصب لآراء الناس وعدم التركيز على دراسة نصوص الكتاب والسنة، حيث اختار رحمه الله منهجا واضحا سلك فيه طريق رجال خير القرون وأئمة السنة الذين عليهم مدار العلم والصلاح والاستقامة في الأمصار الإسلامية، مسترشدا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية معرضا عن كل ما سوى ذلك.. وهذا واضح في مؤلفاته وقد خصص الكثير من شعره لنصرة السنة والدعوة إليها، والذب عنها، والترغيب فيها والتحذير من مخالفتها داعيا إلى اتباع الحق والدوران معه حيث دار، مركزا على أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاكرا أن النفع والضر من خصائص الله عز وجل وحده كما قال تعالى: "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا". ومن جميل شعره في هذا المعنى قصيدته المشهورة التي ظلت حتى الآن مقررة في النشيد الوطني وفيها يقول: (مجزوء رجز)

---

[1] - تراجم الأعلام الموريتانيين، جمع وترتيب د. إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ سيدي والأستاذ احمد ولد احمد سالم نواكشوط 1997م، المطبعة القرية.
[2] - الشطر الأخير من هذا البيت جزء من الآية رقم 3 من سورة المائدة.
[3] - محمد ابن ابي مدين شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات، ص 172 مخطوط عندي صورة منه وحياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته ص 5 ومحمد الصوفي المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية ص 81 رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الملك سعود الرياض كلية التربية 1406 هـ والشطر الأخير جزء من الآية رقم 107 من سورة المائدة.

كُـــنْ لِـــلإلـــهِ لـاصِـــرا ... وألكِـــــرِ الْـمَـنَـاكِـــــرَا
وكُـــنْ مَـــعَ الحـــقِّ الـــذي ... – يَرْضَـــاهُ مِـــنْكَ – دَائِـــرا
ولا تَعُـــــدَّ نافِعًـــــا ... سَـــوَاءَهُ أوْ ضَـــائِـــرًا
واسْـــلُكْ سبـــيلَ المـــصْطَفَى ... وَمُـــتْ عـــلَيهِ سَـــائِرَا
فـــمـــا كَـــفَـــى أوَّلَـــنَـــا ... أليـــسَ يَكْفِـــي الآخِـــرَا؟
وكُـــنْ لِـــقَـــوْمٍ أحْـــدَثُوا ... في أمْـــرِهِ مُهَـــاجِرَا
قـــدْ مَوَّهُـــوا بِـــشُبَـــهٍ ... واعْتَـــذَرُوا مَعَـــاذِرَا
وزَعَمُـــوا مَزَاعِمًـــا ... وسَـــدُّوا دَفَـــاتِرَا
واحْـــتَـــنَكُوا أهْـــلَ الْفَـــلاَ ... واحْتَنَكُـــوا الْحَـــوَاضِـــرَا
وَأوْرَثَـــتْ أكَابِـــرٌ ... بِـــدْعَتَهَا أصَاغِـــرَا
واحْكُـــمْ بِمَـــا قَـــدْ أظْهَـــرُوا ... فَمَـــا تَلِـــي الـــسَّـــرَائِرَا
وإنْ دَعَـــا مُجَـــادِلٌ ... في أمْـــرِهِـــمْ إلَـــى مِـــرَا
فَـــلاَ تُمَـــارِ فِـــيهِمُ ... إلاَّ مِـــرَاءً ظَـــاهِرَا

وهذه الأبيات تظهر بجلاء مدى الفكر التجديدي في مجال السلوك والتربية عند الإمام الشيخ سيدي بـاب رحمه الله.

4 – مظاهر التجديد في الفروع الفقهية: لقد عاش الإمام الشيخ سيدي باب رحمه الله في عصر كان من أبرز سماته الاتباع الكامل للمذاهب الفقهية والتعصب لها. ومن المعلوم أن واجب العلماء المجددين هو عرض الآراء على الأدلة الشرعية واعتراض ما يخالفها. لذلك قام الشيخ سيدي باب بثورة فكرية في هذا المجال فاهتم بتوجيه المقلدين وإرشادهم إلى النظر في الأدلة والأخذ بما يترجح بالدليل. ومن خلال الدراسة الجادة والبحث العلمي لفكره وآثاره العلمية نجده يلتزم بالاستشهاد بالكتاب والسنة على الأحكام الـتي أوردها والقضايا التي عالجها، في حين أن المتعارف عليه لدى أغلب العلماء والفقهاء الموجودين في عـصره في بلاده وربما في المغرب الإسلامي بوجه عام، هو أن الاستشهاد بالكتاب والسنة ضرب مـن ضـروب الضلال..! وأن عالم الوقت لا يجوز له أن يتجاوز المؤلفات الفقهية المتمثلة بالنسبة للمـذهب المـالكي في مدونة سحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل بن إسحاق وشروحها وغير ذلك من الكتـب التي يرجعون إليها. لأن علماء الوقت في نظرهم لا يملكون اللوازم الكافية من الموهبة والآلة للأخـذ مـن الكتاب والسنة مهما كان وضوح وجه الدلالة منهما، وإلى هذا يشير قائلهم بقوله: (رجز)

ـ احمد بن احمد المختار، إكمال تحفة الألباب شرح الأنساب لحماد الأمين المجلسي 1/ 370 – 371 طبعة قطر (د.ت.) ومحمد يوسف مقلد شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص 379 – 340 الطبعة الأولى بيروت 1962م ، ومحمد بن أبي مدين باب بن الشيخ سيدي حياته وعقيدته ص 5 وشن الغارات على أهل وحدة الوجود واهل معية الذات ص 184 مخطوط عندي صورة منه.

وعـــالِمُ الوقْـــتِ إذا هـــو اسْـــتَدَلّ بالذكْرِ والحديثِ ضَـــلّ وأضَـــلّ

وقد بلغ ذلك ذروته في القرن التاسع الهجري، فابتعد الفقهاء عن الكتاب والسنة بعدا تاما حسبما تـــذكر المصادر.. ومنها رسالة محمد بن محمد بن علي اللمتوني التي أرسلها إلى جلال الدين الـــسيوطي في شـــوال عام 898 هـــ. وجاء فيها: *"سؤال عن فقهاء في تلك البلاد عادتهم ترك القرآن والسنة وأخذ الرســـالة والمدونة الصغرى وابن الجلاب والطليطلي وابن الحاجب حتى عادّوا من يفسر القرآن وإذا اسمعوا آية تتلى لتفسيرها نفروا عنها نفرة الحُمُر الوحشية"*[1].

وبعد دخول مختصر خليل بن إسحاق[ب] إلى البلاد[ت] نال حظوة لا مثيل لها عنـــد الفقهـــاء وتركّـــز عليـــه التدريس والقضاء والفُتْيا وأصبح الحق عند الكثير منهم منحصرا فيما تضمنه هذا المختصر حتى أثر عـــن البعض منهم عبارة اشتهرت على ألسنة الناس وهي قولهم: *"نحن خليليون فإن ضل ضـــللنا وإن اهتـــدى اهتدينا"* وهذا ما يشير له أحمد بابا التنبكتي بقوله: *"إن الله وضع عليه القبول، أي مختصر خليل، من زمـــن صاحبه إلى الآن فعكف الناس عليه شرقا وغربا حتى لقد آل المجال في هذه الأزمنة إلى الاقتصار عليه"*[ث].

والواقع أن الشناقطة منذ عصور أصبحوا كلهم مالكيين وهم في المالكية قاسميون، لا يحيدون في الغالب عن رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة. ثم هم خليليون يعتمدون ما رواه خليل بن إســـحاق في مختـــصره مرجحا ما ورد عن عبد الرحمن بن القاسم العُـــتَـــقي من مذهب مالك.

ومن الشناقطة طائفة كبيرة منعت الاجتهاد أو جزمت بانقطاعه مثل محمد النابغة القلاوي القائل: (رجز)

والاجتـــــهادُ في لادِ الـــمغـــــــرِبِ طارَتْ بـــه في الجَـــوِّ عَـــنْقَا مُغْـــرِبِ[ج]

ومن أصوليهم مَن منع تقليد أكثر من مذهب وألزم المقلد باتباع مذهب معين والاقتصار عليه دون غيره، مع جواز الأخذ بداية بأي مذهب من المذاهب الأربعة (الحنفي أو المـــالكي أو الـــشافعي أو الحنبلـــي)[ح]. وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فألزم المقلدين في بلاد شنقيط بل بلاد المغرب باتباع مذهب مالك دون غيره معللا رأيه بانتفاء ما سوى المذهب المالكي في تلك البلاد. وفي ذلك يقول محمد بن محمد فال بن أحمد فال: (رجز)

---

[1] - السيوطي: الحاوي للفتاوي: 1/ 287 – 288، دار الكتب العلمية بيروت 1402 هـ.

[ب] - هو خليل بن إسحاق الجندي المالكي المصري، كان أحد أبرز علماء المالكية في عصره، مجمعا على فضله وديانته (ت.749 هـ) انظر ديباج المذهب لابن فرحون، ص 115، دار الكتب العلمية بيروت (د. ت).

[ت] - أول تدريس لمختصر خليل بن إسحاق في شنقيط كان آخر القرن العاشر الهجري وأوائل الحادي عشر، حين قدم أحمد الذهبي الشريف التلمساني على مدينة شنقيط وكان هو أول من درس بها هذا المختصر، راجع الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص 73 طبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987م.

[ث] - نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 97، الطبعة الفاسية 1340 هـ.

[ج] - الخليل النحوي، المرجع السابق، 198.

[ح] - المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

وأهْـــلُ مغـــرِبٍ علـــيهم يُمْنَـــعُ غـــيْـــرَ الإمامِ مالكٍ أنْ يَـتَـتَـبَّـعُـوا
لِفَقْـــدِ غـــيْرِهِ وكـــلُّ خـــارِجِ عَـــنْ نَهْجِهِ فَـهْـــوَ مِـــنَ الخـــوارِجِ[1]

وقد ساق الإمام العلامة الشيخ بُدَّاهْ ولد البوصيري في كتابه "أسنى المسالك" نصوصا عن كثير من العلماء يتبين من خلالها مدى ما وصل إليه التعصب عند متأخري الفقهاء وخاصة فقهاء المالكية حيث قال: *"وقد بلغ التعصب بالمتأخرين من فقهاء المالكية مبلغا لا حد له، فقالوا إن قول مالك في المدونة مُقدَّم على قول غيره فيها وفي غيرها، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث قالوا إن مجرد وجود القول في المدونة مرجح له حتى ولو خالف الكتاب والسنة إلى آخر ما أصلوه"*[2]. وقد وصل الأمر إلى أن أصبح الكثير من الفقهاء لا يرى فائدة في البحث عن الدليل في المسائل الفقهية لأنهم يرون أن البحث عن الدليل من اختصاص المجتهد والمجتهد في العصور المتأخرة يصعب وجوده بل يكاد أن يكون معدوما حسب رأيهم.

ولكن الشيخ سيدي باب، بعلمه الواسع وفهمه الثاقب وشخصيته الفذة، استطاع أن يخرج على هـذا المفهوم ويكسر الجمود الذي ران على تفكير فقهاء بلاده ويعودَ إلى منهج السلف الصالح والأخذ بالدليل من الكتاب والسنة وعدم التقيُّد بمذهب معين في كل ما ذهب إليه، لأنه يرى أن تقليد غير المعصوم في كل ما قال من غير الْتفاتٍ إلى دليل خطأٌ وخطر. لذلك هيأ طلابَه لسلوك هذا المنهج العلمي الأصيل ورباهم عليه وأرشدهم إلى تطبيقه. وأصبح الشيخ سيدي باب كعبة الرواد للفكر السلفي الأصيل والمشرب العذب المورود.. وتوافد إليه الفضلاء ورؤوس العلماء ليغترفوا من فيضه ويـرووا من علمه الكثير.. وتخرج على يده علماء أجلاء ترسَّموا خطاه وبينوا فكر مدرسته ونصروه ودافعوا عنه بقوة وشجاعة.

وإذا أردنا أن نقف على مظاهر التجديد في مجال الفروع الفقهية عنده، فما علينا إلا أن نرجع إلى آثاره العلمية القيمة, وحينئذ سنرى أن منهجه يقوم على عرض آراء الفقهاء على الأدلة الشرعية فما كان موافقا لها أخذه وما كان يخالف ذلك تركه. وليس في ذلك غمط للمذاهب، جزى الله أهلها خير الجزاء. ولكن في ذلك إحقاق الحق وترك التقدم بين يدي الله امتثالا لقوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله". ومن المعلوم أن الأدلة الشرعية الأساسية التي تترجح بها الآراء هي الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس على خلاف فيه لا مجرد الرأي.

وسنقتطف نصوصا من كتابه المشهور "إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين" تتبين من خلالها مظاهر

---

[1] - محمد الأمين داداه، محمد بن محمد سالم، ص 16، بحث مكتوب على الآلة الكاتبة في انواكشوط 1984م، والخوارج يقال لهم النواصب، والحرورية، وهم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب، بعد أن أجبروه على التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وعندما قبله طلبوا منه أن يرفضه ويتوب، معتذين لذلك بأنه كفر بسبب التحكيم، كما كفروا هم وتابوا، وقد انقسم الخوارج إلى عشرين فرقة، يجمعهم القول بالتبري من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وتكفير أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقا واجبا، الشهرستاني : الملل والنحل 114/1 - 115 ، تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة بيروت 1404 هـ والبغدادي، الفرق بين الفرق ص 24 - 72 ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة بيروت (د.ت.) . والمقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية 354\1. مكتبة الثقافة بالقاهرة(د.ت) ومحمد أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ص16 دار الفكر العربي (د.ت).

[2] - أسنى المسالك في أن من عمل بالراجح ما خرج عن مذهب الإمام مالك، ص 34.

التجديد في فكره ومنهجه العلمي الرصين، حيث يقول في أول هذا الكتاب: *"فهذه نقول قصد بها بيان أن الأولى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقة القرآن أو السنة الصحيحة المخرجة في الصحيحين أو أحدهما أو نص الترمذي مثلا على صحتها ولم يجد مثل ذلك لإمامه أو وجد ثلاثة من الأئمة الأربعة متوافقين على خلاف إمامه في مسألة ولم يجد فيها دليلا من القرآن أو السنة الصحيحة موافقا لإمامه ولاسيما إن اجتمعت هذه المرجحات كلها ومعها رواية عن إمامه أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحريا للحق ولا حول ولا قوة إلا بالله[1]."*

فهذا النص يبرز بجلاء نهج الإمام الشيخ سيدي باب في الفروع الفقهية فمع أنه لا ينكر على العامي تقليد إمام من الأئمة الأربعة إلا أنه لا يرى تقليد غير المعصوم في كل ما يصدر منه من غير الرجوع إلى الدليل الشرعي ولذلك قام بإحياء السنن التي أميتت في هذه البلاد كسنة القبض التي أحياها وناضل عنها حتى ثبتت وأصبحت معلومة غير منكورة. وقد ساق رحمه الله كلاما في هذا المعنى نقله عن البناني[ب] في حاشيته على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل عند قوله وهل يجوز القبض في النقل: *"وهذا نصه وإذا تقرر الخلاف في أصل القبض كما ترى وجب الرجوع إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"*. وقد وجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمت بمطلوبية القبض في الصلاة شهادة ما في الموطأ والصحيحين وغيرهما من الأحاديث السالمة من الطعن، فالواجب الانتهاء إليها والوقوف عندها والقول بمقتضاها"[ت].

وقد أورد رحمه الله طرفا من التعصب في الساحة العلمية بالغرب الإسلامي تدل على البعد عن تعاليم الكتاب والسنة وحذر من ذلك[ث].. ودعا إلى الأخذ بما يؤيده الدليل والتمسك بالأصول والعناية بها والنظر في أقوال العلماء بإنصاف في ضوء نصوص الكتاب والسنة ورغب الطلاب في سلوك هذا الطريق بقوله: *"فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح وهو المصيب بحظه والمعان لرشده والمتبع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة رضي الله عنهم"*[ج]. أما من عارض النصوص الشرعية بالرأي فقد اتبع هواه وضل عن سواء الطريق كما يشير لذلك الشيخ رحمه الله بقوله: *"ومن أعفى نفسه من النظر وأضرب عن ما ذكرنا وعارض السنن برأيه ورام أن يردها إلى مبلغ نظره فهو ضال مضل ومن جهل ذلك كله وتقحم في الفتوى فهو أشد عمى وأضل سبيلا"*[ح].

---

[1] - إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين للإمام العلامة باب بن الشيخ سيدي، ص 93 - 94، دراسة وتحقيق الدكتور الطيب بن عمر بن الحسن، الطبعة الأولى، دار بن حزم، بيروت 1418 هـ.

[ب] - محمد بن الحسن البناني، يكنى أبا عبد الله فقيه مالكي من أهل فاس كان خطيب الضريح الإدريسي بها وإمامه. له مؤلفات منها: الفتح الرباني في الفقه، ت 1194 هـ الزركلي، الأعلام 6 / 323 الطبعة الثالثة بيروت 1389 هـ.

[ت] - هو أبو محمد عبد الباقي بن يوسف الزرقاني الفقيه مرجع المالكية في عصره له مؤلفات منها شرح على المختصر اللاجئ الدردير 1099هـ 3 الشرح الصغير 6/ 651.. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (د.ت.) .

[ث] - إرشاد المقلدين، ص 146 - 147.

[ج] - الإرشاد ص 39.

[ح] - المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .

والواقع أنه رحمه الله ظل يواصل جهوده في تجديد الفكر الإسلامي في بلاده وعمل على تنقيته من شوائب البدعة وأوضارها وفق منهج قائم على مصادر الإسلام الأولى الصافية كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والتمسك بالدليل في مسائل الدين وقضاياه، كما أنه بين طريق الاتباع والتقليد الصحيح. وردَّ على حجج المتعصبين ضد نصوص الكتاب والسنة ذاكرا أن الواجب عند اختلاف العلماء طلب الأدلة الشرعية وأنه لا يجب على أحد أن يتمذهب بمذهب فيقلده في كل شيء. ولا يحل لحاكم ولا مفت تقليد رجل لا يحكم ولا يفتي إلا بقوله. فالمسلم واجبه هو الاتباع الكامل للنبي صلى الله عليه وسلم فيما شرعه وكل فتوى تخالف ذلك فهي مردودة كائنة ما كانت[أ]، لأن مِنَ المُسلَّم به أن القرآن والسنة هما أصل الرأي والعيار عليه وليس الرأي بالعيار عليهما. ومن جهل الأصل لم يصب الفرع أبدا[ب].

ولعل من السمات البارزة في مظاهر التجديد عند الشيخ سيدي باب محاربته لاتباع الرأي والهوى من غير الرجوع إلى النصوص الشرعية والإذعان لها، ورفضه للتقليد الأعمى ونقده للمتعصبين الذين يؤولون النصوص لتوافق مذاهبهم وذلك كله في نطاق التحقيق العلمي الأصيل.[ت] وما أوردناه من نصوص يلقي الضوء على ذلك ويظهر بجلاء مدى بعده عن التعصب والجمود والتقليد الأعمى السائد في عصره لأنه كان رحمه الله عالما مجددا باحثا، يقول في ضوء الأدلة الشرعية ويرد ما يخالفها ويعترضه مهما كانت منزلة قائله من العلم والعمل والصلاح. وهذا كان شأنه وعادته في البحث والتأليف والتدريس خدمة للإسلام وعلومه، يبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

5 ـــ تلاميذ الشيخ سيدي باب: تقدم أن الشيخ سيدي باب لَمّا ناهز العشرين من عمره تاقت نفسه إلى معرفة الحق من منبعه: كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكون مكتبة زاخرة بالمصادر في مجالات العلوم الإسلامية وجلس للمطالعة والتدريس والتصنيف. وقد التف حوله طلاب العلم للاستفادة من علمه ومن مكتبته فدرسوا عليه وتخرجوا من مدرسته وهم يحملون فكره ومنهجه.. وسوف نتناول الكلام عن أبرز تلاميذه الذين تأثروا بفكره وتخرجوا من مدرسته وحملوا لواء دعوته من بعده، وفيما يلي عرض موجز عن هؤلاء العلماء الأجلاء:

أولا: الشيخ محمد المهابة: هو العلامة اللغوي محمد المهابة بن سيدي محمد بن الطالب إميجن الجملي وينسبون إلى إدريس بن عبد الله[ث]. ولد في ضواحي مدينة مقطع لحجار بولاية آلاك البراكنة عام **1306هـ**.

حفظ القرآن الكريم في صغره ثم تابع دراسته على علماء المنطقة حتى برع في الفقه واللغة العربية وعلومها والحديث ومصطلحه. وكان شديد الذكاء متفوقا على أقرانه في الحفظ والفهم..

أ - الإرشاد ص 126 - 171 - 178 - 190 - 257 - 266 .

ب - المصدر السابق نفسه. ص 140.

ت - انظر الإرشاد ص 137 - 139 - 150 - 191 - 192 - 292 .

ث - إدريس بن عبد الله الحسني توفي بالمغرب مسموما على يد أحد رجال هارون الرشيد عام 177 هـ ابن أبي زرع الأندلسي المغرب ص 19 - 23 دار المنصور بالرباط 1972م، وابن الخطيب أعمال الإعلام ص 190 - 194 تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني الدار البيضاء 1963.

واتباعا لطريقة السلف في الرحلة لطلب العلم رحل من مسقط رأسه بولاية البراكنة إلى الشيخ سيدي باب في مدينة بوتلميت وأخذ عنه علم أصول الدين وتأثر بمنهجه القائم على التمسك بالكتاب والسنة ونبذ التعصب والتقليد الأعمى وتصدى للرد على المنحرفين عن منهج أهل السنة وفند أقوالهم الواهية بالأدلة القاطعة من الكتاب والسنة واشتهر بالرد على المبتدعة والضلال حتى لقب "ابن تيمية الصغير"[1].

وكان من العلماء العاملين المتمسكين بمنهج السلف الصالح عقيدة وشريعة وسلوكا، واقفا عند حدود الشرع معتصما بالكتاب والسنة مدافعا عن فكره المعادي لعلم الكلام الذي يصفه بأنه مخترع لا أصل له في دين الإسلام حيث يقول: *"وحقيقة الدليل العقلي مبنية على تقسيم الفلاسفة العالم إلى عرض وجرم وهو أصل مخترع لا أصل له في دين الإسلام"*[2].

هذا ولم يقتصر الشيخ محمد المهابة رحمه الله على بيان الحق للمتكلمين والوقوف ضد منهجهم والرد عليه فحسب، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن موقفه من البدع الأخرى لا يقل شأنا عن موقفه من المتكلمين وبسبب ذلك وقع الخلاف بينه وبين كثير من معاصريه، غير أنه لم يكترث بخلافهم بل صمد أمامهم صمودا من يمتلك الحجة وجرت بينه وبينهم مناظرات ومكاتبات كثيرة.

وقد اهتم الشيخ محمد المهابة على وجه الخصوص بالدعوة إلى حماية جانب التوحيد وتحقيق توحيد العبادة لله تعالى والنهي عن دعاء غيره عز وجل[3]. والأبيات التالية تلقي الضوء على فكره ومنهجه العلمي حيث يقول: (طويل)

فما العلم إلا آيةٌ ثمَّ سُنَّةٌ ... تَخَيَّرَهَا الحُفَّاظُ مِمَّا هُنالكَا

كفوا وضْعَهَا بل ضعْفَها وشذوذَهَا ... وإعْلالَهَا فلْتَجْنِ ذلك عَالِكَا

وإلا فَرَأْيٌ مِنْ إمامٍ مُهَذَّبٍ ... وَعَى العلمَ غَضًّا واسْتَبَانَ المَسَالِكَا[4]

ثانيا الشيخ محمد بن أبي مدين: هو العالم الجليل واللغوي الشهير محمد بن أبي مدين الديماني الشمشوي. ولد في نواحي مدينة بوتلميت سنة **1322**هـ. وتربى في حجر جده لأمه الشيخ سيدي باب الذي تولى تدريسه بنفسه وأشرف على تكوينه العلمي والأخلاقي حتى تفقَّهَ في الدين. وكان يُلزمه بالمطالعة الدائمة للكتب الضخمة والسؤال عن كل مشكل عرض له فيها على الفور. ومن هذه الكتب على سبيل المثال: صحيح البخاري وصحيح مسلم وتفسير الطبري وتاريخه.. ويقال إنه كاد أن يحفظ هذه الكتب عن ظهر قلب وكان الشيخ سيدي باب يقول له دائما: *"اسأل عن كل ما عرض لك من إشكال فإن العلم إذا*

---

[1] - انظر السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص 300 – 3001.

[2] - مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها للشيخ محمد المهابة بن سيدي محمد ص 14 قدم له وحققه الطالب أحمد بن سيدي محمود مكتوب على الحاسب الآلي في شوال عام 1410هـ بجدة.

[3] - المرجع السابق نفسه من المقدمة، ص 3 والسلفية وأعلامها في موريتانيا، ص 310.

[4] - هذه الأبيات من قصيدة أرسلها إلى الشيخ محمد الشنقيطي النجمي من مراسلة علمية جرت بيني وبينه بتاريخ 13-12-1412هـ مستشهدا بها على أتباع الشيخ محمد المهابة للسنة وانظر السلفية وأعلامها في موريتانيا ص 310 - 311.

كَشفتَهُ سترَكَ وإذا سَتَرْتَهُ فضحَكَ"[أ].

ولم يقتصر الشيخ محمد بن أبي مدين في أخذ العلم على جده الشيخ سيدي باب بل أخذه عن غيره من مشاهير علماء بلاده فقد درس اللغة العربية والشعر على والده[ب] ودرس النحو في مدرسة يحظيه بن عبد الودود[ت]، وظهرت نجابته وذكاؤه في هذه المدرسة واستفاد منها وأصبح من أبرز علماء البلاد في عصره. وبعد تخرجه من هذه المدرسة عاد إلى المكتبة التي خلفها جده الشيخ سيدي باب وجلس فيها للمطالعة والتدريس والتصنيف بجد بالغ في التحصيل العلمي.[ث]

وكان رحمه الله كثير الترحال في الأقطار الإسلامية مولعا بحج بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي الشريف وقد أدى مناسك الحج ثماني مرات، وكان يغتنم هذه الفرص لاستجلاب الكتب وإلقاء المحاضرات والدروس في الأماكن التي يزورها وخاصة في الحرم المدني وكانت دروسه غالبا في بيان عقيدة أهل السنة والرد على أهل البدعة وفي الحديث النبوي وعلومه[ج].

وقد نال سمعة طيبة في نشاطه في الدعوة، ولاسيما في المملكة المغربية التي ترتبط بها موريتانيا ارتباطا علميا ودينيا بعيد المدى.. فقد كان يزورها من حين لآخر ويلقي فيها المحاضرات ويحضر الملتقيات العلمية والثقافية على المستوى الشعبي والحكومي ويلتقي بالعلماء وطلاب العلم. وقد تأثر بعض المغاربة بفكره وأعجبوا بمستواه العلمي[ح].

وكانت الحكومة الموريتانية تبتعثه في مهام كثيرة إلى الخارج في مجال الثقافة، والدين والسياسة ويلتقي بكثير من العلماء والمفكرين والزعماء السياسيين في العالم الإسلامي. وقد أكسبه ذلك سمعة طيبة في البلاد التي زارها وصداقة كثير من علمائها ورجالاتها السياسيين[خ].

وتؤكد الروايات الشفوية من العلماء المعاصرين للشيخ بن أبي مدين رحمه الله أنه كان عالما وداعية إلى العمل بالكتاب والسنة. ويذكر الشيخ المختار بن حامد ذلك بقوله: *"وقد سافرت معه للمشاركة في ندوة الحسن الثاني بالمغرب وألقى محاضرات ودروسا إسلامية على نهج السلف وناظر العلماء ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة واتباع ما كان عليه السلف والنقد البدع ورد على أهلها"*[د].. ومن يطالع في مؤلفاته رحمه الله يتبين له اتجاهه السني وعداؤه للبدعة وأهلها.

وهذا شيء لا غرابة فيه فهو سبط الشيخ سيدي باب، ولد في بيته ونشأ وتفقّه في مدرسته، فكان بحق

أ - احمد بن أبي مدين محمد ولد ابو مدين حياته وآثاره، ص 20 -26.

ب - هو أبو مدين بن الشيخ أحمدُ، ولد حوالي 1870م من عائلة ذات شهرة علمية وكان عالما وشاعرا مجيدا، ملتزما باتباع مذهب اهل السنة، والجماعة واشتهر بالسجايا الحميدة، وكرم النفس، راجع أحمد ولد أبو مدين، المرجع السابق نفسه ص 19 - 23 .

ت - يحظيه بن عبد الودود عالم جليل، ولغوي مشهور، يعتبر من أبرز علماء البلاد، وخاصة في مجال اللغة العربية وعلومها، ويلقب "سيبويه" وهو من أعيان البلاد، وشيخ محضرة ذات صيت كبير، تخرج منها كثير من العلماء، ت. 1358هـ الخليل النحوي المرجع السابق، ص 498 - 533.

ث - المرجع السابق نفسه، ص. 38 - 39 - 46

ج - المرجع السابق نفسه ص . 67 - 68 - 70

ح - المرجع السابق نفسه ص . 38 - 45

د - المختار بن حامد مقابلة أجريتها معه بتاريخ 1412/8/8هـ

جديرا بأن يتأثر بتعاليمه، كما أنه تأثر بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وبكتب ابن قيم الجوزية وبالعقيدة الطحاوية وشرحها لابن أبي العز الحنفي، وكان له نشاط بارز في الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة في عدد من الأقطار الإسلامية.

وقد ذكر رحمه الله في أماكن متعددة من مؤلفاته أنه يسير على خطى السلف الصالح رضي الله عنهم في العقيدة والشريعة والسلوك وفي فهم الإسلام وتطبيقه قائلا: *"إن ذلك هو المنجي عند الله عز وجل"*. وخلاصة موقفه من قضية التأويل والتفويض أنه يفوض في جميع الصفات على طريقة السلف الصالح وأما آيات المعية وأحاديثها فيؤولها حسب ما يناسب المقام من العلم، والنصر والعون ونحو ذلك[أ].

وقد تميز الشيخ محمد بن أبي مدين طيلة حياته بظاهرتين بارزتين في فكره ومنهجه وهما: نصرة السنة والذب عنها ومحاربة البدعة وأهلها. وكانت كل واحدة من هاتين الظاهرتين عنوانا لواحد من أهم مؤلفاته.

فبالنسبة لنصرة السنة والذب عنها فقد ألف كتابه "الصوارم والأسنة في الذب عن السنة" أما الظاهرة الثانية وهي محاربة البدعة وأهلها، فقد ألف فيها كتابه "شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات" وسوف نقتطف من هذين الكتابين ما يدل على تمسكه بالسنة ومحاربته للبدعة.

لقد عنون الشيخ محمد بن أبي مدين للفصل الأول من الباب الرابع من كتابه الصوارم والأسنة في الذب عن السنة بوجوب اتباع السنة دون ما عداها وساق كثيرا من الآيات القرآنية الدالة على وجوب اتباع ما جاء في الكتاب والسنة ومن ذلك قوله تعالى: "وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون". وبعد أن بين أن المنهج الإسلامي السليم هو التمسك بالكتاب والسنة والوقوف عند نصوصهما وترسم خطى السلف الصالح رضي الله عنهم في فهم الإسلام وتطبيقه تمثل بالبيت التالي:

وَنَهْجُ سَبِيلِي واضحٌ لِمَنْ اهْتَدَى ولكِنها الأهْواءُ عَمتْ فأعْمَتِ[ب]

والمطالع في هذا الكتاب لا يخفى عليه حرص صاحبه على التمسك بالكتاب والسنة والدعوة إلى تحكيمهما في كل الأمور. يقول: *"إن من أخطأ منصوصا في القرآن الكريم أو في صحيح السنة النبوية المطهرة فقوله وفعله مردود"*[ت]. ويقول: *"إنه لا طريقة إلى الله عز وجل لأحد من الناس إلا بمتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"*[ث].

أما الظاهرة الثانية فهي محاربة البدعة والرد عليها وقد ألف في ذلك كتابه "شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات". واتبع طريقة السلف في هذا الكتاب في الرد على المبتدعة والضلال بالكتاب

أ - شن الغارات 137 - 152 - 153.
ب - المرجع السابق نفسه ص 156.
ت - الصوارم والأسنة، ص 177.
ث - المرجع السابق نفسه ص 170.

والسنة والإحجام عن الخوض في علم الكلام الذي يكن له العداء ويعرفّه بقوله هو ما تنصب فيه الأدلة العقلية وتنقل فيه أقوال الفلاسفة[أ]. قال ـــ رحمه الله ـــ بعد أن ذكر أن بعض الضلال يقول إن معية الله تعالى تكون بعلمه وذاته، قال: *"سبحان الله كيف يسوغ لعاقل إطلاق كلام موهم على الله عز وجل مخالف لإجماع المسلمين من أهل السنة إذ من المعلوم أن بذاته لم ترد في كتاب ولا سنة ولا في إجماع ولا خلف بين المسلمين في منع إطلاق الموهم غير الوارد على الله تعالى وقد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحد من العلماء[ب]..."*

وأثناء كلامه عن وحدة الوجود قال: *"إنما جمعت بين الكلام على معية الذات ووحدة الوجود لأني رأيت التصريح بالثانية في كلام بعض أئمة الأولى وسمعت بعض مشايخي يقول إن القول بمعية الذات يفضي إلى القول بوحدة الوجود وكفى بمقالة تفضي إليها قبحا وفسادا فإن جل مقالات أهلها صريح في كفر من يقوله فهم يقولون بقدم العالم وينكرون بعث الأجساد وحشرها[ت].. كما أن من أمهات مقالاتهم المؤذنة بكفرهم تصريحهم بأنهم يرونه تعالى في دار الدنيا يقظة وذلك مبني على زعمهم أنه سبحانه عين خلقه أو حال فيه"[ث].*

وفي رده، رحمه الله، على هذه الطائفة قال: *"ودعوى أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد في غاية البطلان لأن الأدلة النقلية والبراهين العقلية قاطعة باستحالة ما يقولون على الله سبحانه وتعالى – تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا – "فمن زعم أن الله عز وجل هو عين مخلوقاته أو أنه حل في شيء منها فهو ضال وكافر بالإجماع"[ج].*

والواقع أن الشيخ محمد بن أبي مدين رحمه الله ركز في هذين الكتابين الآنف ذكرهما على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة وإتباع نهج السلف الصالح ونبذ التقليد الأعمى والتعصب المذموم والرد على البدع والضلالات وهذا كان شأنه وعادته في البحث والتأليف.

ثالثا: محمد عبد الودود بن عبد الملك بن حَمّيه: هو الفقيه اللغوي والمقرئ الكبير عبد الودود بن عبد الملك بن حَمّيهْ، ولد في ضواحي مدينة (بوتلميت) وحفظ القرآن ودرس مبادئ من علوم الدين واللغة العربية في صغره قبل البلوغ ثم رحل إلى مدرسة محمد أحمد بن الرباني[ح]، فدرس عليه اللغة العربية وعلومها ودرس الفقه وبعض العلوم الأخرى في مدرسة آل أحمد فال التندغيين[خ] ثم عاد إلى مسقط رأسه في بوتلميت

[أ] - محمد بن أبي مدين: باب بن الشيخ سيدي، حياته و عقيدته ص 2.
[ب] - شن الغارات ص 94 .
[ت] - شن الغارت ص 154 - 155 .
[ث] - شن الغارت ص 156 - 157 .
[ج] - شن الغارت ص 156 - 157 .
[ح] - مدرسة آل أحمد فال التندغيين من أبرز محاضر البلاد ولها تاريخ مجيد وعريق، وقد تخرج منها عدد من العلماء الأجلاء راجع الخليل النحوي السابق : ص 522.
[خ] - محمد أحمد بن الرباني التندغي عالم جليل له اليد الطولى في القرآن الكريم وعلومه واللغة العربية وعلومها ومن مؤلفاته منظومة في سور القرآن وناسخه منسوخه، راجع المختار بن حامد: حياة موريتانيا 2/ 44، 54، 50 طبعة الدار العربية للكتاب تونس 1990م ... والخليل النحوي ص 569 والسلفية وأعلام موريتانيا ص 328.

ولازم الشيخ سيدي باب رحمه الله وأكمل دراسته عليه وتأثر بفكره ومنهجه.

وبعد نهاية دراسته جلس للتدريس وأصبح شيخ محضرة تعُجُّ بطلاب العلم واشتهرت محضرته بالتركيز على تدريس القرآن الكريم وعلومه وعقيدة أهل السنة. وكان رحمه الله معتصما بالكتاب والسنة واقفا عند حدود الشرع متمسكا بمذهب السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك، فقد كان يدين الله عز وجل على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه على حد قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

وكان يقول إن الصحابة والتابعين كانوا جميعا يثبتون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ويقولون أمروها كما جاءت وامتنعوا عن التأويل وهم أتم نظرا ممن جاء بعدهم، لذلك قال مالك رحمه الله حين سئل عن الاستواء في قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى" كيف استوى؟ فرد بقوله: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة". وقال الشافعي رحمه الله: "آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الإدراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك". ومثل ذلك قاله أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهم الله وأهل الحديث قاطبة..

وكان رحمه الله محييا للسنة محافظا عليها مقدما لأقوال الصحابة رضي الله عنهم على أقوال من جاء بعدهم ويعرض آراء العلماء على الكتاب والسنة، فما وافقهما أخذ به وما خالفهما طرحه. واشتهر رحمه الله بالمواظبة على تلاوة القرآن والعبادة والزهد على طريقة السلف الصالح، وقد نبذ البدع ونقدها بطريقة علمية وهادئة. وظل رحمه الله على هذا المنهج داعيا إليه ناصرا للسنة مدافعا عنها وواقفا عند حدودها لا يتساهل في أي بدعة مهما صغرت عند الناس حتى توفي رحمه الله تعالى.[1]

وعلى أي حال فإن تأثير الشيخ سيديّ بابّ وتأثير طلابه وكتبه في المدارس الإسلامية أمر ملموس في داخل البلاد وخارجها. وقد ذكرتُ في السلفية وأعلامها في موريتانيا أمثلة من الفقهاء الذين تأثروا بدعوته ومنهجه في تجديد الفكر الإسلامي داخل المحاضر الموريتانية إما بطريق مباشر أوغير مباشر[2].

الخاتمة: الحمد لله الذي بفضله ونعمه تتم الصالحات والصلاة والسلام على من أكمل الله به الرسالات، محمد بن عبد الله خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله وعلى آله وصحبه أولي الفضل والكرامات وبعد،

فإني أشكر الله عز وجل على نعمه التي لا تحصى، وأشكره أن من علي بإنجاز هذا العمل وآمل أن أكون قد وُفّقت فيما أردت من تحقيق هدف البحث في الوصول إلى الفائدة العلمية المنشودة.

وفي ختام هذه الدراسة أود أن أضع بين يدي القارئ الكريم أهم ما توصلت إليه من نتائج في النقاط

---

[1] - مقابلة أجريناها مع الشيخ محمد محمود بن أحمد يور بتاريخ 8/ 7/ 1412هـ انظر السلفية وأعلامها في موريتانيا ص330.

[2] - للتوسع في هذا الموضوع راجع السلفية وأعلامها في موريتانيا ص 331- 332.

التالية:

– ظهر من خلال البحث أن الإمام الشيخ سيدي باب عاش حياته للعلم دراسةً وتدريسا وتصنيفا حتى أصبح مجدد عصره، ومن أعيان العلماء الذين برعوا في شتى العلوم والمعارف الإسلامية وكان يقرر ما يراه في ضوء النصوص الشرعية بعيدا عن التعصب الأعمى والتقليد المذموم.

– أن العلامة الشيخ سيدي باب كان من أصحاب الاتجاه السني المعارضين لعلم الكلام المناوئين لأهله ومن أشهر العلماء الذين درسوا العقيدة على نطاق واسع وردوا على المبتدعة والمنحرفين عن نهج السنة وساعده على ذلك وفرة المصادر الإسلامية التي استجلبها من الآفاق النائية بالأثمان الغالية.

– أن مدرسة الشيخ سيدي باب أصّلت للتصوف الصحيح وفق الضوابط المنهجية عند أهل السنة فقبلت ما يوافق الكتاب والسنة واعترضت على ما يخالفهما كما هو شأنها في مجالات الدين الإسلامي الأخرى.

– أن من أبرز سمات التجديد في هذه المدرسة عرض آراء الفقهاء على الأدلة الشرعية، فما كان موافقا لها قبلته وما خالفها اعترضت عليه وردته أيا كان قائله ومهما كانت منزلته من العلم والعمل.

– أن مدرسة الشيخ سيدي باب تخرّج فيها علماء أجلاء تأثروا بفكر شيخهم وتابعوه في منهجه ونشروا علمه وفكره في الآفاق ونصروه ودافعوا عنه بقوة وشجاعة.

– أن هذه المدرسة كان لها تأثير ملموس في الساحة العلمية بوجه عام وفي الساحة العلمية الموريتانية بوجه خاص، فقد تأثر بها جم غفير من فقهاء هذه البلاد وطلاب العلم فيها إما عن طريق مباشر أو غير مباشر.

وأخيرا فإن العمل البشري عرضة للخطأ والزلل وصدق الله تعالى إذ يقول: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا". هذا وإني أوقن أنما سطرته في هذا البحث إن يكن صوابا فمن الله سبحانه وتعالى وإن يكن غير ذلك فمني أو من الشيطان وأستغفر الله عز وجل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله العلي القدير أسأله أن يتجاوز عن الزلات ويرزقنا المغفرة والإخلاص في القول والعمل وأن يسلك بنا طريق العلم النافع والعمل بما علمنا وأن يجعلنا هداة مهتدين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التجديد الديني لدى الشيخ بابَ بن الشيخ سيديَّ من خلال شعره التوجيهي

الشيخ محمد الحافظ بن أحمدُّو يحيى بن أبنُو

الشيخ بابَ بن الشيخ سيدي من الأفراد القلائل، على مدار التاريخ، الذين جمعوا كل خصال الكمال وولجوا ساحة الخير من كل أبوابها. فهو بحق من الرواحل الذين يشير إليهم الحديث الذي أخرجه البخاري: ""تجدون الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة". ويصدق فيه ما قاله النسائي في الإمام عبد الله بن المبارك: "ما نعلم في عصر ابن المبارك أجل منه ولا أعلم ولا أجمع لكل خصلة محمودة".

وشخصية هذه طبيعتها يقف المرء حين يريد الكتابة عنها حائرا مترددا لا يدري من أي جانب يتناول الحديث عنها ولا من أين يبدأ ولا إلى أين ينتهي.. على أن ما يظهر لي من خلال ما تعرفت عليه من تراث الشيخ باب وما اطلعت عليه مما كتب عنه، أنَّ أخَصَّ سمات الشيخ أنه: "مجدد في الدين في القرن الرابع عشر الهجري وراند في الإصلاح".

من هنا رأيت أن تنصب مساهمتي هذه المتواضعة ضمن ندوتكم المباركة، في تسليط الضوء قدر المستطاع على منحى التجديد الديني لدى الشيخ باب، مستلهما المعاني الإصلاحية عنده من بعض مقطوعاته الشعرية التوجيهية. تلك المقطوعات التي لم تُعطَ من الباحثين – حسب علمي – ما تستحق من الدراسة والتحليل والاستنباط والتي كان لطبيعتها الشعرية وسلاسة عبارتها الأدبية وجمالها الفني ما مكنها من التأثير في المجتمع وعامة الناس بما يعجز عن التأثير به الكتبُ المتخصصة والأنظام العلمية!.

وقد كانت معالجة الموضوع وفق الخطة الآتية: – مفهوم التجديد الديني – التجديد الديني لدى الشيخ باب – تجديده في أصول الدين من خلال شعره – تجديده في مجال السلوك من خلال شعره – خاتمة.

أولا مفهوم التجديد الديني: يقول ابن منظور: *"الجدة نقيض البلى واجلّه وجدّده واستجدّه أي صيّره جديدا. ويقال: كَبُرَ فلان ثم أصاب فرحة وسرورا فجد جده. كأنه صار جديدا"*. واضح من كلام ابن منظور أن التجديد لا يعني الاستعاضة عن القديم بشيء مستحدث كما لا يعني التغيير في طبيعته، بل إن التجديد للشيء هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد. وبهذا نفهم معنى التجديد الديني الذي جاء التنويه به، والبشارة باستمراره في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" بأنه إنما هو استعادة ما أهمل من شرائعه، وإحياء ما اندرس من معالمه. وهذا ما بينه المناوي – رحمه الله – في شرحه للحديث الآنف الذكر، حيث فسر المجدد، من يجدد الدين: *"بأنه يجدد ما اندرس من*

أحكام الشريعة وما ذهب من معالم السنن وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة وهذا التجديد ذو شقين: تجديد علمي يظهر في إحياء العلم الشرعي المستمد من الكتاب والسنة الصافي من البدع والآراء المذمومة، وتجديد عملي يظهر في العمل على تجسيد أحكام هذا الدين وشعائره في واقع الأمة".

وإذا كان بعض العلماء قد فهموا من الحديث السابق، كون المجدد فردا، حتى حَدَا ذلك بالسيوطي إلى أن يحدد بالأسماء قائمة المجددين على مدى كل قرن وصولا إلى القرن الذي عاش فيه (القرن التاسع) مدعيا لنفسه أنه المجدد فيه، فإن الظاهر من كلمة "مَنْ" – التي هي اسم موصول مشترك يصدق على المفرد والجمع – عدم انحصار المجدد في واحد، بل قد يكون جماعة. وهذا ما ذهب إليه الحافظ الذهبي، مقررا أن "مَنْ" هنا للجمع لا للمفرد، فتقول مثلا إن المجددين على رأس الثلاثمائة هم: ابن سريج في الفقه والأشعري في الأصول (أصول الدين) والنسائي في الحديث...

وهكذا وعلى هذا يصح أن نصف بالمجدد، كل من دعا إلى الإصلاح وقام به في جانب من جوانب الدين، كما لا يشترط أن يعم جهده الأمة كلها ولا أن يؤثر فيها جميعا. وبذلك يكون الشيخ باب مجددا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري كما سنوضح، بحول الله، في الفقرة الموالية:

ثانيا: التجديد الديني لدى الشيخ باب: إذا كانت بلاد شنقيط (موريتانيا) قد شهدت دعوات إصلاحية عديدة بعد النهضة العلمية التي شهدتها البلاد، بدءا من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان من أبرزها: دعوة الإمام ناصر الدين للتمسك بالدين وتحكيم الشريعة، ثم ما تلاها من دعوات لبعض العلماء كدعوة المجيدري بن حبيب الله للأخذ بعقيدة السلف الصالح ونبذ علم الكلام، ودعوة الشيخين الكنتي والمامي إلى الاعتماد في الاستنباط على الكتاب والسنة وترك التعصب للفروع، والتقليد الأعمى للمتأخرين.. فإن ميزة ما قام به الشيخ باب، أنه لم يقتصر في جهده الإصلاحي على جانب واحد كما هو شأن من سبقه، بل ظل يعمل للإصلاح على شتى الجبهات:

فسعى إلى تحرير الفقه من إسار الجمود بدعوته إلى الاجتهاد والنظر في الأدلة الشرعية والاستفادة من سائر المذاهب الفقهية المعتد بها، كما عمل على إحياء عقيدة السلف الصالح ومنهجهم في السلوك، بعيدا عن انحراف المتكلمين وتعقيد الناطقة وشطح متأخري الصوفية وابتداعهم في الدين.. ثم كانت له إلى ذلك رؤيته في الإصلاح الاجتماعي والسياسي. وقد عمل على تنفيذ هذه الرؤية المؤسسة لديه على قواعد الشرع وأصوله..

إن الإصلاح الديني لدى الشيخ باب لم يكن تصرفا عابرا ولا أقوالا تؤثر عنه في هذا الموضع أو ذاك من كتبه وكلامه، وإنما هو جهد متواصل متراكم متكامل وعمل مستمر طبع حياته كلها بطابعه حتى استحق بذلك أن يوصف بأنه مجدد بما للكلمة من معنى. وقد استوعب في عمله الإصلاحي جهود من سبقوه من أعلام الإصلاح في البلاد وأربى عليهم بما خاص إليه من دقائق العلوم وأحكمَ من لطائف المعارف وبما تيسر

له من اطلاع على نفائس كتب التراث الإسلامي، مما أهله للريادة في التجديد الديني في البلاد، فكانت له اليد البيضاء والأثر البين على كل من جاء بعده من المصلحين إن لم نقل إن كل من جاء بعده عالة عليه.

إن عمل الشيخ باب لا يقل شأنا عن أعمال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعيد النورسي وغيرهم من أعلام النهضة الإسلامية ورواد التجديد الديني في هذا العصر في دعوتهم للعودة إلى الكتاب والسنة وتنزيل أحكامهما على واقع الأمة، وتنقية التراث مما علق به من شوائب والخرافات، بل إني أجزم بأن الشيخ باب كان أكثر أصالة في منهجه، لما فاقهم به من تمكُّن في علوم الشرع مما جنبه الوقوع فيما وقعوا فيه من هنات... كل ما في الأمر أن الوظيفة الإعلامية والتنويرية التي كانت تؤديها المقالات الصحفية في أغلب بلدان العالم، بما فيه العالم الإسلامي، في ذلك الوقت، كانت لا تزال تقوم بها في بلادنا القصائد والمقطوعات الشعرية التي كانت تسير بها الركبان وتطبق الآفاق، ويتداولها المثقفون كما تجد صداها لدى عامة الناس. فلا غرو إذن أن يختار الشيخ باب المقطوعات الشعرية أسلوبا لبث دعوته الإصلاحية، ويتخذها قالبا يضمّنه فكره التجديدي الأصيل. وهذا ما سيتبين في الفقرات اللاحقة.

ثالثا: تجديده في مجال أصول الدين من خلال شعره: ظل المنهج السائد في العقيدة في بلادنا شأنها في ذلك شأن سائر البلاد الإسلامية في القرون المتأخرة هو منهج متأخري الأشاعرة كما يعبر عن ذلك بيت ابن عاشر الذي يحدد فيه منطلقاته المعرفية في منظومته الفقهية: (رجز)

في عقد الأشْعَري وفقه مالكْ وفي طريقة الجُنَيْد السالكْ

هذا المنهج الذي غلب عليه الجدل الكلامي والاصطلاحي المنطقي، مما انحرف به في بعض المسائل عما كان عليه اعتقاد السلف الصالح، ومن أبرز تلك المسائل: مسألة تأويل صفات الباري، يعبر عن ذلك قول المقري في الإضاءة: (رجز)

والنص إن أوهمَ غيرَ اللائق فاصرفْهُ بالله كالتشبيه بالخلائق
عن ظاهره إجماعَا واقطعْ عن الممتنع الأطماعَا

ولم يزل الأئمة المجددون ينكرون عليهم هذا التوسع في التأويل ويبينون أنه خلاف نهج السلف الصالح. فهذا الحافظ ابن عبد البر يقول: *"أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك"*.

وقد بسط الحافظ ابن حجر أقوال السلف الدالة على تفويضهم في الصفات وتحذيرهم من التأويل، ليصل إلى أن القرون الثلاثة الأولى أجمعوا على هذا النهج، وهو نهج أبي الحسن الأشعري نفسه الذي قرره في جل كتبه كالإبانة عن أصول الديانة ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ورسالته إلى أهل الثغر.

وعلى هذا النهج يسير الشيخ باب آخذا على نفسه بيان الحق فيه أداء للعهد الذي أخذه الله على العلماء

وحذرا من الوعيد الشديد في كتم الحق: ((إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)). فيقول في منظومة له: (رجز)

مـــا أوْهَـــمَ التَّـــشبيهَ في آيـــات ... وفي أحاديـــثَ عـــن الثِّقـــات
فَـــهْوَ صِـــفاتٌ وُصِـــفَ الرَّحمـــنُ ... بهـــا وواجـــبٌ بهـــا الإيمـــانُ
ثُـــم علـــى ظـــاهرها نُبْقيهـــا ... ونَحْـــذَرُ التأويـــلَ والتَّـــشْبيهـــا
قـــال بِـــذا الثلاثـــةُ القُـــرونُ ... والخـــيرُ بـــاتِّبَاعـــهم مَـــقْرُونُ
وَهْوَ الـــذي يَنْـــصُرُه الـــقرآن ... والـــسُّنَنُ الـــصِّحاحُ والحـــسانُ
وكـــم رآه مـــن إمـــامٍ مُـــرتـــضَى ... مـــن الخـــلائف بنـــاظرِ الرِّضـــا
ومَنْ أجـــازَ منـــهم التأويـــلا ... لم يُنكـــروا ذا المـــذهبَ الأصـــيلا
والحـــقُّ أنَّ مَـــنْ أصـــاب واحـــدْ ... لاســـيَّما إنْ كـــان في العقائـــدْ
ووافـــقَ الـــنصَّ وإجمـــاعَ الـــسلفْ ... فكيف لا يَتْبَـــعُ هـــذا مَـــنْ عَـــرفْ

إن هذه المقطوعة تلخص عقيدة السلف في الصفات مؤيدة بالحجج القوية: فهم السلف والإجماع وظواهر النصوص، دافعة الرأي القائل بالتأويل لدى المتأخرين موهنة له بأسلوب علمي حجاجي محكم مما هيأ لها أن تقنع الكثير من العلماء بالعدول عن التأويل وتُتلقى بالقبول في الوسط العلمي الحلي حتى وجدنا الشيخ محمد سالم بن عبد الودود حفظه الله حين أراد تقرير عقيدة السلف يعتمد على هذه القطعة مؤيدا بها تقريره يقول: (رجز)

الظـــاهر الـــذي عليـــه نبقـــى ... مـــوهم تـــشبيـــه لـــرب الخلـــق
هـــو الـــذي أهـــل اللـــسان فهمـــوا ... إذ نـــزل الـــوحي بـــه علـــيهمُ
فـــلا أبـــو بكـــر لخـــير الرســـل ... يقـــول أشْـــكَلَ علـــيَّ اشْـــرَحْهُ لِـــي
ولا أبو جهل يقـــول: اختـــلـــفا ... أثبتَ مـــا مِـــنَ التماثـــُـــل نفـــيَ
وهْـــو الـــذي في قـــول بـــاب المرتـــضى ... سيفِ الهدى العِـــضْبِ الحُـــسامِ المنتـــضَى
مـــا أوهـــم التـــشبيه في آيـــات ... وفي أحاديـــث عـــن الثقـــات
فَهْـــوَ صـــفاتٌ وُصِـــفَ الـــرحمنُ ... بهـــا وواجـــبٌ بهـــا الإيمـــانُ
ثم علـــى ظاهرهـــا نبقيهـــا ... ونـــحذر التأويـــل والتـــشبيها
والظاهرُ الَّـــذْ صرْفُـــه عنه يجـــب ... هـــو الـــذي يفهمـــه مـــن قـــد حجـــب
فهـــو يـــسير في الظـــلام الـــدامسِ ... وسط مـــوامي الفِـــتَـــنِ الطـــوامسِ

رابعا: تجديده في مجال السلوك من خلال شعره: أنزل الله كتابه وبعث رسوله هداية للناس وتزكية للنفوس وتطهيرا للقلوب وتقريرا لمكارم الأخلاق.. قال تعالى: ((يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من

ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)). وقال جل من قائل: ((هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)). وفي الحديث: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" وكما يقول سعيد النورسي فإن "نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة، هي تسع وتسعون بالمائة"

ولهذا فقد كان متقدمو الصوفية محقين إلى حد بعيد في تركيزهم على العناية بإصلاح القلوب وتزكية النفوس وتهذيب السلوك، حين ضعفت هذه الجوانب في حياة الأمة بعد انصرام عصر السلف وقل اهتمام الفقهاء بها، وبهذا ساغ اختصاص الصوفية بهذا النوع من العمل الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات. وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها..

غير أن التصوف داخَلَهُ مع مرور الزمن، كثير من الانحراف والابتداع وعلق به ما علق من الشوائب مما تطلب من العلماء المجددين في كل قرن محاربة هذه الانحرافات والسعي إلى تنقية الدين من تلك الشوائب، كما قام به ابن الجوزي والقرطبي وابن تيمية والشاطبي وغيرهم، بل إن أعلام التصوف المحققين قد نهضوا بهذه المهمة كما هو صنيع بن السراج في كتابه "اللمع" والقشيري في "الرسالة" والهجويري في «كشف المحجوب"... إلخ وامتدادا لعمل هؤلاء المصلحين جاءت دعوة الشيخ باب لإخلاص التوحيد والتمسك بالسنة ومباعدة الابتداع في الدين، من ذلك قوله: (رجز مجزوء)

آمِنْ أُخَيَّ واستَقِمْ ... ولَهْجَ أحْمَدَ التَزِمْ
واجْتَنِبِ السُّبُلَ لا ... تَغُرُّكَ أضْغَاثُ الحُلُمْ
لا خيرَ في دينٍ لَدَى ... خيرَ القرونِ قد عُدِمْ
أحْدَثَهُ مَنْ لَمْ يَجِبْ ... قَطْعٌ بِأنَّهُ عُصِمْ
مِنْ بَعْدِ ما قَدْ أنْزِلَتْ ... اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ
وبَعْدَ ما صَحَّ لَدَى ... جمعٍ على غديرِ خُمْ
وادعُ إلى سبيلِهِ ... وخُصَّ في الناس وعُمْ
وقُلْ إذا ما أعْرَضوا ... عَليكُمُ أنفُسَكُمْ

وفي أرجوزته التي اختيرت فيما بعد لتكون هي النشيد الوطني للبلاد، يشتد انتقاده لما شاع في المجتمع من انحراف عن حقائق التوحيد وانجراف في مهاوي البدع: (رجز مجزوء)

كُنْ لِلإلهِ ناصِرا ... وألكسرِ الْمَنَاكِرَا
وكُنْ مَعَ الحقِّ - الذي ... يَرْضاهُ منْكَ - دَائِرَا
ولا تَعُدَّ نافِعًا ... سَوَاءَهُ أوْ ضَائِرَا

واسْـــلُكْ سَـــبيلَ الْمُـــصْطَـفَى ... وَمُتْ عليه سَـــائِـــــرَا
فـــمـــا كَـفَـــى أوَّلَـــــا ... أَلَـيْـسَ يَكْـفِـــي الآخِـــرَا؟
وكُـــنْ لِـــقَوْمٍ أحْدَثُـــوا ... في أمْـــرِهِ مُهَـــاجِرَا
قـــدْ مَـــوَّهُوا بِـــشُبَهٍ ... واعْتَـــذَرُوا مَـــعَـــاذِرَا
وزَعَـــمُوا مَـــزَاعِـــمًا ... وسَـــوَّدُوا دَفَـــاتِرَا
واحْـــتَـــنَكُـــوا أهْـــلَ الْـــفَلاَ ... واحْـــتَـــنَكُـــوا الْحَوَاضِـــرَا
وَأوْرَثَـــتْ أكَـــابِرٌ ... بِدْعَتَهَا أصَـــاغِـــرَا
واحْـــكُمْ بِمَـــا قَـــدْ أظْـــهَرُوا ... فـمَا تَـلِي السَّـــرَائِـــرَا
وإنْ دَعَـــا مُجَـــادِلٌ ... فـــي أمْـــرِهِـــمْ إلى مِـــرَا
فَـــلاَ تُمَـــارِ فِـــيهِمُ ... إلاَّ مِـــرَاءً ظَـــاهِرَا

إن هذه الأرجوزة وكذا التي قبلها هي دعوة صريحة إلى تحرير العقول من مظاهر الخرافة وألوان الشرك الخفي والجلي وربط القلوب بالله بمباشرة التلقي لوحيه وإخلاص التوحيد له سبحانه وتحلية الجوارح بسلوك السنة والتزام أحكام الشريعة. وقد طفحت الأرجوزتان بالدعوة إلى إنكار المنكرات ومحاربة البدع والتشنيع على أصحابها. وهو يشير بذلك إلى التحذير من الانحراف الذي وقع فيه بعض المتصدرين للمشيخة في التصوف وأوقعوا فيه أتباعهم. وقد وجدناه يصرح بالتشنيع على هؤلاء الشيوخ الذين يصدون الناس عن الحق ويصرفونهم عن الدين القويم ويأكلون أموالهم بالباطل يقول: (سريع)

آكِـــلُ مـــالِ النـــاسِ بالباطـــلِ ... مزخـــرفُ القـــولِ بِـــلاَ طائـــلِ
مُمـــيلُهمْ عـــنْ ســـنة المـــصطفَى ... إلى ســـبيل البـــدعة المائـــلِ
عجـــلان في حـــظ لـــه عاجـــل ... كـــسلان في منفعـــة الآجـــلِ
محـــصلُ المـــالِ بـــلاَ فتـــرةٍ ... في جمعـــهِ المـــانعُ للحاصـــلِ
هـــذا الـــذي يُعـــرفُ في عـــصرنا ... بـــينَ الـــورى بالعـــارفِ الكامـــلِ
يـــصبو إلى زُخْرفـــه عاقـــلٌ ... كأنـــه مَـــنْ لـــيس بالعاقـــلِ
ووقْعـــةُ العالـــمِ في فَخِّـــه ... شـــبيهةٌ بوقعـــة الجاهـــلِ
اتَّسَعَ الخَـــرقُ علَى راقـــعٍ ... واخـــتلطَ الحابِـــلُ بالنَّابِـــلِ
هذا وذُو الـــتـــوحيدِ عُـــنـــوانُه ... إسْـــنادُهُ الفِعْـــلَ إلى الفاعـــلِ

ونلاحظ في هذه القطعة، أنه كما يعيب سلوك الانحراف على بعض شيوخ زمانه، يستغرب على بعض العلماء متابعة هؤلاء الشيوخ، متخلين بذلك عن وظيفتهم في بيان الحق وهداية الناس... ولا يفوتنا أن نُنَبِّهَ على الأسلوب الساخر الذي كان يطبع إنكار الشيخ على هؤلاء الشيوخ المدعين لما لم يتحققوا به

والمتصدرين لما لم يتأهلوا له. وهو يستخدم هذا الأسلوب للتهوين من شأنهم وإزاحة هالة التقديس التي أحاطت بهم من ذلك قوله: (رجز)

الشيخ لفظٌ وحدَهُ لا يُجْدِي وإنما التَّقْوَى مِلاكُ المَجْدِ

أمَا رأيتَ الشيخ قبل التَّجْدِي

وبالجملة فقد كان لقصائد الشيخ باب ومقطوعاته أشد الوقع في محاربة البدع والخرافات ونصرة السنة وتقرير التوحيد الخالص.

خاتمة: لم يقتصر جهد الشيخ باب التجديدي على مجالي العقيدة والسلوك، وإنما امتد إلى مجال الفقه، داعيا إلى الاعتماد في مسائله على ما يقتضيه الدليل الشرعي، منفرا من الجمود والتعصب، منفتحا في اجتهاده على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة. ولهذا فقد عده الشيخ بداه ـ حفظه الله ـ في كتابه "أسنى المسالك" ضمن العلماء الموريتانيين الذين حاربوا الجمود وقالوا بتقديم الراجح على المشهور. وبهذا يتبين شمول التجديد عند الشيخ باب لكل جوانب الدين مما ميزه عن سائر العلماء الذين سبقوه أو عاصروه في بلاد شنقيط فهو بذلك يستحق أن يوصف بأنه مجدد الدين في القطر الموريتاني.

الشيخ سيدي المختار[1] ولد الشيخ سيديّ.. الأبعادُ الشـــخصية

الأستاذ الباحث/ الحسين ولد محنض

بسم الله الرحمن الرحيم

أشكر مؤسسة الشيخ سيدي الإسلامية والثقافية ومؤسسها الدكتور إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ سيديّ على تمكيني من القيام ببعض واجبي تُجاه هذا الفرع الكريم من أسرة آل الشيخ سيديّ المحترمة، ألا وهـــو فرع الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديّ (أبّاهْ علما). ذلـــك أنـــني درســـت وتعلمت لسنوات عديدة في محضرتهم ـــ محضرة الشيخ يحيى بن أباه، بقيةِ العلماء الأعلام والأولياء الزهاد. فأنا هنا الآن في الحقيقة إنما أرد إليهم بعض بضاعتهم.

غير أني أعتب على أني لم أشرك في الحديث عن الشيخ سيدي الكبير، وأنا الذي لَجَلَتْني أسرة ما أعلم أسرة تعلم من تاريخ الشيخ سيدي وأسرته ما تعلم. وأنا الذي غَذَاني طرفاي الأبوي والأموي بما لا أظنه غـــذي به أحد غيري من أمجاد هذه الأسرة الكريمة.. أنا الذي كثيرا ما سمعت شيخي محنض بابه بن أمين يقول إنه ما دخل القطر الموريتاني بعد الشيخ سيدي المختار الكنتي كالشيخ سيدي..

أنا الذي كنت أسمع في بيتنا أن الزوايا ما كافئوا إخوانهم من العرب إلا بعد ظهور علماء أجلاء من أمثال محمد اليدالي الديماني والمختار بن بونه الجكني وولد رازكه وحرمة بن عبد الجليل وبابه بـــن أحمـــد بيبـــه العلويّين والشيخ محمد المامي ومحنض بابه بن أعبيد ولمرابط محمدن فال ولد متالي وغيرهم، غير أنه بظهـــور الشيخ سيدي زادت رتبة الزوايا عند إخوانهم من العرب درجة...

الشيخ سيديّ الذي وجد الأسَر مفكّكة فجمعها والأفخاذ متناحرة فوحدها والقبائل متحاربـــة فـــصالحها والإمارات متعادية فصادقها..

الشيخ سيديّ الذي لم يجمع الأمراء المتناحرين علي مائدة واحدة سواه، كما فعل في تندوجـــه... الـــشيخ سيديّ الذي لم يجرؤ أحد على الجمع بين الرجل وقاتل أبيه سواه.. الشيخ سيدي الذي لم يَغِض هذا الجمع من مَعينه إلا كما يغيض المغترف بيده من البحر.

وأعتب كذلك لأني لم أشرك في الحديث عن نجله الشيخ سيدي محمد الذي حجب الناسَ شعرُه عن مقامـــه في العلم والذوق، مع أنه هو نفسه عبر عن حاله لوالده الشيخ بقوله: (رجز)

أمـــي فِـــداكم بعـــدَ أنْ يُبـــدأ بِـــي وبـــأبي لـــو أنَّ غيرَكـــم أبِـــي

الشيخ سيدي محمد الذي كثيرا ما كنت أسمع أنه، وإن كان ولد الطلبة اليعقوبي ولد رازكه العلـــوي قـــد

[1] الملقب اتّـاه بتفخيم الباء

نقلا الشعر وعرباه وولد محمدي كشعراء الحسنيين قد روضه وهذبه، فإن الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي قد طوعه وقربه وألين له الشعر كما ألين الحديد لداود. الشيخ سيدي محمد الذي كثيرا ما قيل فيه إن الإبل لا تستجيب في هذه الأرض لحاد لا يحدو بشعر الشيخ سيدي محمد.

وأعتب وأظن أني حقيق بأن أعتب لأني لم أشرك في الحديث عن الشيخ سيدي باب، محيي السنة وقامع البدعة ومجدد العلم، وكيف لا أشرك في التحدث عنه وله الفضل في كل ما دخل بيتي من هدي وسمت وعلم؟ باب الذي يقول فيه جدي محنض الفغ الذي ما سمحت له نفسه أن يزور والدته إلا لماما، من فرط تعلقه به وجسد ذلك في قوله: (بسيط)

لا الرُّوحُ تَظْعَنُ إنْ جثمانُها ظعنا كلاّ ولا القلب يسلو من هنا قَطَنا
ولا أراني إذا يَمّمت أرض بني ديمانَ ترتاح نفسي عنكم زمنا

وما سمحت له نفسه بالموت والدفن إلا حيث شيخه. ووددت كذلك لو أن أتيحت لي الفرصة من أجل التحدث عن أبنائه الألى: (بسيط)

مَنْ تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

سواء تعلق الأمر باينه الخليفة محمد، الذي عاش بعده ثلاثة أعوام حافلة، أو بابنه عبد الله أمير المؤمنين علما في هذه الربوع أو ابنه إسماعيل القاضي أو ابنه هارون المؤرخ أو ابنه إبراهيم الشهميم اللهميم مروي الهيم ومشبع المناهيم أو ابنه سليمان حاتم زمانه أوغيرهم من أبنائه. (بسيط)

ضربٌ لواحدهم ضربٌ لسائرهم كانت لهم مثلا فلتعرف المثلا

كما أني كنت أود لو شاركت الحضرات الروحية الأخرى سواء منها تلك التي تكلمت في هذا المحفل كآل أباه وآل حبيب الرحمن، أو تلك التي لم تتكلم كآل الشيخ أحمدو بن سليمان صفي الشيخ سيدي ومقربه، وآل الشيخ محمد فاضل أو آل الشيخ سعد بوه وآل الشيخ ماء العينين. وإنما هم كما قال والدي المختار ولد حامدن في رثاء زينب بنت باب بن الشيخ سيدي: (وافر)

هذا البيت ببابٌ فاضلي وكان أقام فيه بابَ بابا

لقد رويت أنه كان للشيخ سيدي أحوال وليس له حال إلا ورثه عنه ابن له أو تلميذ. وقد كانت له في الجود مذاهب فكان أحيانا يسخو ويعطي ويدبر، وورث عنه هذا الحال حفيده باب وعدد من أبنائه وكان أحيانا يعطي ولا يستبقي كأنه ينفق من الغيب وورث عنه هذا الحال حفيده يعقوب بن باب الهائم في جلال الغيب، وكان أحيانا يعطي ويعطي ويضعف فيخلف الله له، وورث عنه هذا المقام حفيده الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد وورثه عنه عبد الله بن باب وورثه عن عبد الله سليمان. (كامل)

أكـــرِمْ بمـــن للـــشيخ ســـيديٍّ انتمـــى لقـــد انتمـــى لرضًـــى سَـــما وتفـــرُّدا
ورَنـــا إلى عـــز رمـــى بجرانـــه وهفـــا إلى مجـــد لـــوَى وتوطَّـــدا
وتـــددت أفنائـــه وتـــشابكت أغـــصانه والفـــضل فيـــه تجَـــدَّدا
وزَكـــتْ أرومتُـــه وجُـــوِّدَ غرسُـــه بَـــدءًا فـــأزهرَ نَـــوْرُه وتـــورَّدا

ونعود إلى الشيخ سيدي المختار بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديٍّ فنقـــول:

ولد الشيخ سيدِي المختار بن الشيخ سيدِي محمد بن الشيخ سيديٍّ يوم عاشـوراء 1279هـ عنـد تامرزكيت (ميمونة السعدى)، التي يقول فيها الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي: (طويل)

لعمرك مـا ترتـاب ميمونـة الـسُّعدى بأنـا تركنـا الـسعي في أمرهـا عمـدا

وسمَّاه الشيخ سيدي على شيخه الشيخ سيدي المختار فلذلك لا يفارق آله قبس من تلك الحضرة المباركة.

وأدرك الشيخ سيدِي المختار حضرة الشيخ سيديٍّ وهي ما تزال قائمة عامرة، فنهل من معين كبار طلبـة الشيخ سيدي وروى عنهم جميعا ودرس على من شاء منهم، فكان ممن درس عليه منهم: أمود بـن محمـد المصطفى، درس عليه أكثر القرآن وكان آية في الحفظ والاستظهار، فيسر الله له حفظ المتـون في أوجـز وقت. وأخذ أيضا عن الشيخ أحمدُّو بن اسليمان وعن الشيخ أحمد بن المختار بن أزوين وعن الـدَّوَّ بـن غَيْمورْ وغيرهم.

وهو معروف بالضبط والإتقان وكانت له مكتبة عظيمة.. جمع الشيخ سيدي المختار كل خـصال الخـير، فكان العالم الذي يطارح العلماء.. والأديب الذي ينتهي إليه أدب الأدباء. وكان المرشد والمربي والزعيم.

وكان رجلا فاضلا كريما جوادا، أجود بالخير من الخيل المرسَلة! ممدَّحا من طرف الـشعراء والأدبـاء... مدحه شعراء الآفاق وفطاحلتهم من الحسنيين والتندغيين، ورثاه الأدباء والعلماء، فممن مدحـه أو رثـاه والدايَ المختار بن حامدن ومحنض ألفغ ومحمد بن أبي مدين والحسن بن أبا الجكني والقاضي محمـدن بـن أحمد فال، كما مُدح بفنون الأدب الحساني مدحا كثيرا ينم عن عظمة مكانته في النفوس وشـدة سـخائه وفضله فما هو إلا كما قال فيه والدى المختار بن حامدن: (بسيط)

لو أنهم ظـهَـروا المرِّيخَ أوْ زُحَـــــلا لَمْ يُدْرِكُوا رجـلا بـالأمس قـد رَحَـلا
لا حُسْنَ دينٍ ولا سَمْـــتًا ولا أدَبًـــا ولا وَقـــارًا ولا طَبْعًـــا حَـــلاَ وَحُلَـــى
ولا نَدًى وجَـــدًى ولا وَفـــاً وصَـــفًا ولا تُقًـــى ولَقًـــا ولاَ عُـــلاً وَإلى
ولا جميـعَ خِـصَالِ الخـيرِ مـا رجُـلٌ فيها يُشَـاكِـلُ يَوْمًا ذلـك الرَّجُـــلا
إلاَّ ابنهُ ابن جَلاَ وابـنُ ابنـه ابـنُ جـلا ياحبَّـذا ناجِـلٌ منـهم ومَـنْ لُجِـلاَ
ضَـرْبٌ لِواحِـدِهِمْ ضَـرْبٌ لِـسائِرِهِمْ فكلُّهم في النـدَى والـسُّؤْدَدِ ابـن جَـلاَ

أو كما قال فيه ولد هدار: (لبْتَيْتْ التام)

اتْمَشَّيْتْ افْشِ تِمِشَّايْ طلْعْ ابْتَيْتْ اكْبَارْ افْشِ جَايْ
طلعْ ابْتَيْتْ أسْوَ كَاعْ اشْرَايْ هُومَ بَعْدْ اَلّا طلْعْ اكْبَارْ
أو وَسَيْتْ البرَّاوِ رَايْ اَرَايْ عَنْدْ ذاكْ اَلْدُورْ يحْرَارْ
البرَّاوِ إيلَ عَاذْ ال رَّايْ البرَّايْ إعُودْ البرَّاوِ حَارْ
ماهْ اعْلِيهْ الْمَدَارْ الْجُودْ مِرْكَبْ سِيدِ الْمُخْتَارْ الْدَارْ
ويلَ دَارْ دَوَّارْ إكُودْ ويلَ دَارْ افْسِيدِ الْمُخْتَارْ
الدَّوَّارْ الّ دَارْ إعُودْ إلّ دَارْ اعْلِيهْ الْمَدَارْ
رَاهْ اصّ لَعْبَاذْ الْعْبَاذْ مَا تَعْطِ شِ كُونْ إيلَ رَاذْ
لكْرِيمْ الْقَهَّارْ الْجَوَّادْ مَعْطَ دُونْ الْقَهَّارْ اخْبَارْ
ذاكْ الّ اَلْرُ شِ بَاطِلْ عَاذْ رَاسِلْ بِيهْ الرَّبْ الْقَهَّارْ
امْعَ عَبْدُ غِيرْ اَلْرُ زَادْ رَسَّالْ امْعَ سِيدِ الْمُخْتَارْ

بلغ من كرمه وسخائه أنه قال يوم مجيء وفد الترارزة: أنـا أعطي **2000** أوقية وكانت يومئذ ثمن أكثر من **100** من الإبل، فقال له أحمد سالم ولد إبراهيم السالم: *حلفت لا يستطيع أن يقولها رجل سواك ولو كان كاذبا*.

وكان لا يسأله أحد شيئا كائنا ما كان إلا أعطاه إياه أو تحمله له. وكثر منه تحمل الحوائج للناس أعوام الشدة، حتى شق ذلك على بعض أقاربه فلم يزده على قوله تعالى: «وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا». وكان يهش للبذل ويحن للعطاء: (طويل)

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

سألته امرأة كانت تعيش على لبن بقر الوقف ليلة لبن الإبل، فأرسله إليها وجعل ذلك دينا لها عليه طيلة ثلاثين سنة فلما توفي قالت: *"اللهم إنك تعلم أنه قد كفانا مؤونة الدنيا فاكفه مؤونة الآخرة."* وكان رجلا ميسورا على إنفاقه وبذله.. وكان لا يجد غريما إلا أدى عنه مغرمه ولا عابر سبيل إلا أرفده ولا غارما إلا فداه ولا متخاصمين إلا سوّى بينهما.. وكان وجيها كثير الشفاعة في الخلق. وربما احتال للمحبوس عند النصارى فأطلقه. وقد يدفع فيه حرائر الخيل وآلاف النقود وذلك في دهر كان الجمل فيه ب **20** أوقية. فعل ذلك مع الترجمان ألمين تنديا وغيره.

وكان الشيخ سيدي المختار يستكثر من الطرف، ثم لا يلبث أن ينسلخ عنها ويعطيها على كثرة ما دفع فيها من شدة كرمه، فمن ذلك أنه وجه محمد ولد أحمد الكصري ليشتري له فرس زعيم اشراتيت، المعروفة بالحمامة، فكان كلما بذل له ولد الكصري فيها ثمنا زاد زعيم اشراتيت من ثمن الفرس فيزيد ولد

الكصري ما سيدفع فكان زعيم اشراتيت يقول لولد الكصري: *ما أعجب لك شيخك*، فيرد عليه ولد الكصري: *"أما إنه لن يخيب لك فيه ظن"*. كأنه يلمح له إلى قول الشاعر: (بسيط)

كانت مساءلة الركبان تخبرنا ... عن جعفر بن فلاح أطيبَ الخَبَرِ
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ ... أذني بأحسنَ مما قدْ رأى بَصَري

وكان مع اشتهاره بالمروءة والكرم أوابا حليما صالحا، رأى في النوم أنه جيء بإبراهيم عليه السلام محمولا إلى مدفن البعلاتية فدفن بين يدي باب، فقص رؤياه على الشيخ محمد عالي بن عدود فقال له: خير تلقاه وشر تتوقاه، وحزن محمد عالي عليه، فلم يلبث أن توفي سيدي المختار فجيء به محمولا إلى البعلاتية فوجدوا الناس وقد حضروا له، فسار القاضي إسماعيل بن باب بن الشيخ سيدي والشيخ عبد الله بن داداه حتى وقفا بين يدي باب فأمرا بأن يدفن هناك، فقال قائل لمحمد عالي ولد عدود كيف عرفت تأويل رؤيا سيدي المختار، قال: *كان الله يصف إبراهيم بالحلم وكان الناس يصفون سيدي المختار بالحلم. والسنة الخلق أقلام الحق.*

توفي عن **92** عاما سنة **1370**هـ بضواحي بوتلميت فحزن عليه الناس حزنا شديدا رغم أنه رزق العمر لكثرة ما عرفوا فيه من البر، ورثي مراثي لا تحصى. وأرخ له الشيخ عبد الله بن داداه بقوله: (رجز)

سيدنا المختارُ للحُسْنى ذهَبْ ... في ثالث العشرين من شهر رجبْ
طلوع فجر أهونٍ عامَ شَسَعْ ... عنه المخوفُ والعناءُ والفَزَعْ
أمَّنَهُ لِمَا اخْتَشَى الرَّحْمَنُ ... فَلِلأنامِ عُمْرُهُ أمانُ

وأرخ له والدنا محنض أشفغ بقوله: (خفيف)

لثمانٍ بَقينَ مِنْ رَجَبٍ الفَرْ ... دِ دَنا لِلْجِنانِ بحرُ العَطَاءِ
رَحِمَ اللهُ خيرَ مُرْوٍ فأرخ ... بدعائي لعام فقْدِ السَّخَاءِ

ترك أبناء وبنات سادات وسيدات يعرف ذلك من يعرف: (البَيتْ التام)

عَنَّكْ كُولْ الْسِيدِ الْمُخْتَارْ ... وَخْيَرْتْ ابْمُحَمَّدْ فَطَارْ

كما شهد عليه خاتمة الأتقياء العباد والصالحين الزهاد والأولياء الأخفياء الأنقياء الأزكياء شيخنا البشيخ يحيى بن اباه. وأكتفي الآن بهذه الكلمة الموجزة التي اخترت أن تكون مرتجلة لأني أرى أن ذلك أنسب في هذا المقام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الشيخ سيدي المختار ولد الشيخ سيديّ.. ترجمة عـــامة

الأستاذ الأديب/ عبد الله ولد سيدي عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وسلم

ولد الشيخ سيدِي المختار ولد الشيخ سيدِي محمد ولد الشيخ سيديّ (أبّـــاهْ) يوم الجمعة عيدَ عاشوراء سنة **1279**هـــ عند تامْرِزْكيتْ. وهي بئر لآل الشيخ سيديّ تقع شمال بوتلميت معروفة في شعر والديـــه بميمونة السُّعْدَى[1]، وذلك بعد مولد أخيه الأكبر الشيخ سيديّ بابَ بزهاء سنة.

وما يدريك بمن كانت تنشئته على يد جَدٍّ مثل الشيخ سيديّ الكبير وأبٍ مثل الشيخ ســيدِي محمــد وفي محيط كمحيطهما؟ فكان كما قال حسان رضي الله عنه: (كامل)

إنّ ابـــن جفْـــنَـــةَ من بقية مَعــشرٍ لم يَغْـــذُهُمْ آبـــاؤُهُ باللُّـــــــومِ

لقد بدأ الشيخ سيدِي المختار دراسته مبكرا في محظرة أهله وعلى كبار أساتذتها. ومن بين من درس عليهم: الشيخ أحمد ولد المختار ولد ازوينْ والشيخ أحمدُّو ولد سليمان والشيخ محمدُّو ولد حنبـــل والـــدَّوّ ولـــد عيمور وامُّودْ ولد محمد المصطفى وغيرهم، فاستكمل الدراسة المحظرية فيها بإتقان وهو لا يـــزال حـــديث السن. وأخذ سند القادرية عن الشيخ أحمد ولد المختار ولد ازوينْ فكان الشيخ سيدي المختـــار معروفـــا بسرعة الفهم وحضور البديهة والضبط وقوة الذاكرة وهي أمور قل أن تجتمع في شخص واحد.

ومما زاد في تكوين الشيخ سيدِي المختار العلمي خزانة الكتب التي وجدها مهيأة أمامـــه والـــتي أعـــدها واستجلبها من كل أرض واستنسخها من كل أصل والدُهم الشيخ سيديّ الكبير الذي يقول فيه العلامـــة باب ولد أحمد بَيْبَ: (طويل)

وجئتَ بكُـــتْبٍ يُعْجِزُ العِـــيسَ حَمْلُهـــا وعنـــدكَ عِلْـــمٌ لا تحـــيط بـــه الكتْـــبُ

وكان للشيخ سيدِي المختار اهتمام بالكتب وتنظيمها ومطالعتها واقتناء كل ما جد منها، فكانت مكتبتـــه من أغنى المكتبات، يطالعها ويطالع فيها الناس ويستعيرون منها الكتب.. وربما وهب النسخ الزائدة لينتفع بها الناس وتُتداول في المحيط المعرفي.

ويكفي ابنَي الشيخ سيدِي محمد فضلاً أنهما ـــ على حداثة سنهما إبان وفاة والدهما ـــ لم يتنازلا عن قيـــد أنملة مما كان عليه سلفهما فشكلا حلقة ربط لا انفصام فيها مع السلف.. وهو أمر بالغ الصعوبة والأهميـــة

[1] يقول الشيخ سيديّ الكبير: أمعالمُ الميمونة السُّـــعـــدى ذِهِ أم انتَ ناظرُها بمُقلة أمْـــــرَهِ
ويقول الشيخ سيدي محمد: لعمرك ما ترتابُ ميمونة السُّعدى بأنا تركنا السعي في أمرها عمدا

معا حتى أن الناس لم تشعر بفقد أي شيء مما كان عليه العملاقان: الشيخ سيديّ الكبير والشيخ سيدي محمد. يقول في ذلك المعنى العلامة محمد المصطفى ولد الطالب في قصيدته التي مطلعها: (طويل)

مغانٍ بذات الضال أقوين والسِّدْرِ ... بمُنهَمِر المُزن السَّحوحِ وبالقَطْرِ بقايا
تلوح ولَأيًا ما تلوح كأنها ... زَبور لا لحات على السَّطْرِ

إلى أن يقول:

إلى الآمرينَ الزاجرينَ عن الخَنا ... إلى الراكعينَ الساجدينَ على طُهْرِ
إلى أسرة اللاَّجي وعِتْرَته التي ... هي العُروةُ الوُثقى إلى آخر العصرِ
بنو الشيخِ حقًّا والشيوخُ سواهمُ ... سرابٌ بِقاعِ الأرضِ يَبدو لِمُغتَرِّ
فما منهمُ إلا أغَرُّ سَمَيْدَعٌ ... كريمُ المَساعي مِن أساتذةٍ غُرِّ
صَبورٌ على عَضِّ الزمان ومَضِّه ... وللصَّبْرِ شِبْهٌ واشتقاقٌ منَ الصَّبْرِ
رَوِيَّتُهُ في الحادث الإدِّ إنْ دَهَى ... رَوِيَّةُ عَمْرٍو ذي الدَّهاءِ أوالقَسْرِي
وليس بِنَظَّارٍ إلى جانبِ الغِنَى ... إذا كانت العَلياءُ في جانبِ الفَقْرِ
فَزُرهمْ أسيرًا أو كسيرًا فكلُّهُمْ ... على صِغَرٍ يدعونه جابرَ الكَسْرِ
إذ بَلاغتُهُمْ تُزْري بِسَحْبَانِ وائلٍ ... إذا نَطقوا أو أرْعَفُوا قلمًا مَبْري
وقُسًّا فمَنْ قاس الجميعَ بلاغةً ... بقُسٍّ وسَحْبانٍ فَذا القِيسَ لا يَدْري

كما عبر عن ذلك العلامة محمدُ الثَّانّ بن المُعَلَّى بطريقته حيث يقول في قصيدته التي يمدح بها الشيخ سيدي باب. ومطلعها: (وافر)

أَرِقْ مِنْ عينكَ الدَّمعَ الهَتُونَا ... بما فتنوكَ إذ شحطوا فُتونا

إلى أن يقول:

بهذا الشيخ فازدهرْ ازدهارا ... فهُو سماءُ مجدِ الأكْرمينا
وأهلَ البيت ذاكَ السِّبْ إليهمْ ... فإنهمُ كِرامٌ طيِّبونا
أشِد بحلاهمُ في كل نادٍ ... وأكرِمْ بالأخينَ وبالأبينا
وأحسنَ ما يقال اتبعْهُ فيهمْ ... وذرني واقتناءَ الكاشحينا
فكلهمُ حقٍ تبدأ وتختمْ ... بصالحةٍ تجدهُ بها قَمينا
تجدْ يُمْنى سواه لهُ يسارا ... ويُسراهُ له جُعلتْ يمينا

والحديث عن شخصية الشيخ سيدي المختار (أباه) يتطلب الكثير من الجهود والوقت لتعدد جوانبها. فهو شخصية دينية فائقة وشخصية علمية متفوقة وسياسي محنك ومصلح موفق ومنفق متفان وحليم مُغْضٍ

وجواد متلف وكعبة حاجات يؤمها القاصي والداني وثري مُبَجَّل إلى غير ذلك من الخصال التي لا يتأتى حصرها. وسنوجز منها ما سمح به الوقت والجهد.

أولا: الشيخ سيدي المختار.. شخصية دينية وعلمية: كما أسلفنا فقد درس الشيخ سيدي المختار في محظرتهم جميع العلوم والفنون التي كانت تدرس آنذاك وأتقنها إتقانا فائقا مع فادح التأهيل لذلك، كما أخذ طريقة القادرية التي كانت عند أسلافه، فكان بذلك شيخ تربية من كبار أرباب السلوك وعالما ربانيا ومعلما تستنير الناس بعلومه وآرائه وسلوكه وآدابه. وقد نفع الله بذلك خلقا كثيرا.

وكانت في حضرته محظرة علمية يقيم فيها الكثير من العلماء والأدباء والقراء والفضلاء يلتفون حوله كمجلس علم وفتوى وتعليم وإرشاد، مثل العلامة الشيخ عبد الله بن داداه ومحمد محفوظ بن ألفق المصطفى والمصطفى ولد الدوله ومحمد المصطفى ولد أبنو ومحمد المصطفى ولد الطالب وأحمد ولد المختار فال وسيدي ولد عبد الله وغيرهم. وكان يوفر للوافدين من خارج الحضرة الظروف الملائمة للتعلم وينفق عليهم من خالص ماله، كما يوفر المراجع المطلوبة في كل فن. وله آثار علمية نذكر منها على سبيل المثال: تفسيرا رائعا لسورة الفاتحة ورسائل هامة وتقييدات تشمل كثيرا من الفوائد.

وكان أغلب من تصدر على يده في الطريقة من الزنوج الأفارقة المقيمين خارج البلاد، وذلك نظرا لعدم قبوله للمريدين المحليين الذين كان يوجههم إلى أخيه الأكبر الشيخ سيدي باب، فكون الشيخ سيدي المختار جيلا من علماء ومربي الزنوج أسهم إسهاما كبيرا من خلاله في نشر العلم والدين في هذه القارة، ونذكر من بينهم:

1ـــ محمد با فودَ وهو عالم كبير ومؤلف وشاعر، يقول في إحدى رسائله الشعرية الموجهة إلى شيخه: (بسيط)

وإن همُ سألوا عني فقل لهمُ ... غادرتُه بينَ أكّاتٍ ورَكّاتِ

تَميلُ نحوكمُ شوقًا جوارحُه ... كما تُميل الصَّبا أغصانَ بَانَاتِ

وسنذكر نموذجا من شعره في باب المدائح بحول الله. من تآليفه: نصيحة الإخوان. وقد حاول فيه تصحيح وتقويم بعض العادات الزنجية على أساس الشريعة، وحظي هذا الكتاب بترحيب خاص من قبل علمائنا الموجودين آنذك، فسلموه وقرظوه، مثل محمد عالي ولد عدود ومحمد ولد أبي مدين الذي يقول في تقريظه: (طويل)

كتابٌ به مُرْصاصُ عن كل بلدة ... سوى الحرمين الآمنين تُقَدَّمُ

والدنبجه ولد معاويه الذي يقول كذلك في تقريظه: (طويل)

فرحنـــا بـــــها لمـــا رأينـــا نُقولَهـــا تقبَّـــلها منَّـــــــا الجهابـــذةُ الـــشُّمُّ

ومحمد ولد محمذ فال وغيرهم.

2 ــ محمد الأمين اسوانا من كازاماص.

3 ــ با كُتب مرصاص

4 ــ محمدُ كَبَ. وكلهم علماء مربون ودعاة لنشر الدين.

للشيخ سيدي المختار كذلك كرامات وخوارق لا تعد ولا تحصى، إلا أننا سنذكر منها نماذج ثبتت بالتواتر وحسب درجة المصادر, لقد كان مجابَ الدعوة وكان يُروى أنه أكثر الأسرة خوارق.

من ذلك أن شخصين من مقربيه جاءا يطلبان بقرة حلوبا بعين ذاتها فعرض عليهما أن يأخـذها أحـدهما ويعوض هو للآخر بقرة أخرى، فرفض كل منهما التنازل فسأل الله الأصلح فيها فوجدوها ميتة,

ومن خوارقه أنه ترك متاعه ذات ليلة عند إحدى بناته وخرج لاستقبال بعض الزوار وأمرها أن لا تـبرح المكان حتى يرجع، فاستطالت الفترة وخرجت فإذا ببقرة تطاردها فرجعت، ثم خرجت ثانية فطاردتها البقرة حتى أسقطتها في أغصان من القتاد يصعب التخلص منها، ثم لدغتها عقرب فجاء مسارعا وذكرهـا بمـا أمرها به وحمد الله على أن لم يتجاوز الضرر هذا الحد.

نذكر كذلك قضية مترجم زنجي اسمه هارونا كان يترجم بينه وبين الحاكم الفرنسي فأخبره أحد الحاضرين أن المترجم حرف كلامه، فقال: بلغ ذلك مني مبلغا لا يمر عادة هكذا، فسقط المترجم مغشيا عليه ورفـع إلى بودور حيث توفي في نفس المرض.

نُمي الشيخ سيدي المختار كذلك أحد رعاة إبله عن ركوب جمل معين فركبه خلسة، فلم يستطع الـنزول عنه بأية صورة حتى دخل الحي وشهد عليه الجميع,

رأى الشيخ سيدي المختار قبل موته في المنام أن إبراهيم عليه السلام توفي هنا ودفن قرب باب في المكـان الذي دفن هو فيه لا حقا، فلما قص الرؤيا على محمد عالي ولد عدود دعا له الله بطول العمر وقـال:"إن كان إبراهيم عليه السلام في هذه الأرض فهو (أباه)". و قد سمع أباه قبلُ في نفس البلد هاتفا يقول:"بلـدة طيبة ورب غفور" وذلك حينما كانوا يدفنون أحد أفراد الأسرة: فاطمه امْباركَه بنت عبد الفتاح (النانَ).

ثانيا: الشيخ سيدي المختار.. شخصية سياسية: تتجلى حنكة الشيخ سيدي المختار السياسية وحكمته في المحيط الضيق كما تتجلى في المحيط العام. وسنذكر أوجها من ذلك:

1 – سياسته الأسرية: كان الشيخ سيدي المختار يقول إنه أخذ على نفسه العهد أن لا يقع خلاف في أهله مدة حياته وأن لا يختل شيء في منهجهم مع الناس. وكان وفيا لهذا العهد حيث ظل يقدر أخـاه الأكـبر

ويجله رغم ضئالة فارق السن بينهما، فكان لا يخاطبه إلا بـــ "الشيخ " ولا يرفع فيه وجها ولا يعقب له أمرا وكان باب تارة يمازحه فيضحك ولا يرد عليه بالمثل. وقد وافق آباهُ على جميـــع المواقـــف الـــسياسية والاجتماعية والدينية التي أخذها باب وكان لا يقبل التلاميذ المخلين مدة حياة باب كما كانت سياسته بعد وفاة أخيه الحفاظ على تماسك الأسرة والتنازل عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى خلافها وقد ظل محافظـــا على منهجها مع الناس ودورها الاجتماعي، من إصلاح وإنفاق وتوطيد علاقات.

2 – سياسته القبلية: لقد تولى الشيخ سيدي المختار زعامة قبيلته فترة طويلة وحقق لها الكثير من المكاسب ورد عنها الكثير من المظالم ورفع من شأنها في شتى المجالات، نذكر من ذلك على سبيل المثال:

ـــ أنه كثيرا ما دفع عنها اللوازم الضريبية من خلص ماله. وذلك أن الإدارة الفرنسية في ذلك الوقت ربما منحت أجلا لا يكفي للاتصال بشتى بطون القبيلة الذين يتفرقون في بعض فصول السنة للانتجاع، فقـــد توصل مرة برسالة من الحاكم الفرنسي تمنح أولاد أبيري أجلا لا يتجاوز ثلاث ليال لدفع 140 ركوبـــا و50 مزادة و 8 حداة، فدفع كل ذلك ولم يطلب عنه أي تعويض. وذلك ما عبر عنه نزيلُ في قـــصيدته التي سنذكرها لا حقا.

ـــ تدخله في مشاكلها مع الإدارة الفرنسية. كان الشيخ سيدي المختار كلما سجن الفرنسيون أفرادا مـــن القبيلة تدخل لتسوية مشكلتهم ودفع عنهم الغرامات المترتبة. وقد استعصت عليه مـــشكلة معينـــة مـــع الإدارة لاتسامها بطابع جزائي، فخير في حلها بين فرس معروفة (اغويصبتهم) وبين مبلغ نقدي يقـــدر الآن بحوالي 30 مليون أوقية، فرجح الخيار الأخير فحلت القضية... إلخ

3 – سياسته مع الإدارة الفرنسية: كان الشيخ سيدي المختار أول من التقى بالفرنسيين من الأسرة وناقش معهم في السينغال وهو الذي شرح لباب أخبارهم وهيأ الاتصال بينه وبينهم, وبعد الاتفاق جال معهم في البلاد حوالي سنة للحد من إضرارهم بالمسلمين. وقد استبطاه باب وتلقاه في ركـــب احتفـــاء برجوعـــه. وكانوا يحيطونه بمكانة خاصة ويقبلون وساطته في شتى الأمور العامة. وكانت صورته الموجودة في الأرشيف الفرنسي مكتوبا عليها زعيم القبيلة وابنه.

طُلب منه مرة الحضور لاجتماع عام مع وزير المستعمرات، فعزم على أن يطرح عليهم قضيتين: إحـــداهما عزل حاكم دائرة الترارزه (أرشنار). والثانية الإذن للشيخ أحمد بمب في العودة إلى أرضه, فلما استـــشار باب في ذلك أمره أن يترك الأولى للأمير أحمد سالم ولد إبراهيم السالم وأن يطرح عليهم القـــضية الثانيـــة فامتثل فنجحت المهمتان,

4 – سياسته مع الآخرين: كان الشيخ سيدي المختار ذا علاقة واسعة مع جميع الناس، قوامها الثقة المتبادلة وحسن المعاملة, ولم تطرح عليه أي جهة مشكلا أو يحصل به له علم إلا حاول حله. من ذلك أن رئـــيس إحدى القبائل المجاورة قد ألزمه الفرنسيون 60 رأسا من الإبل في أجل يومين. وكانت آبال قبيلته بعيـــدة

في ذلك الوقت فأخبر أباهُ فأعطاه 60 رأسا ومن يبلغها للإدارة ولم يقبل منه لاحقا تعويضها.

ومنه أن الأمير أحمد سالم ولد إبراهيم السالم جاءهم بسيدي ولد سيدي ليسلم عليهم إبان رجوعه من مهجره فقال له أباه ستعينك الأسرة بألفين وهو مبلغ خيالي آنذاك، فحلف الأمير أن ليس بإمكان أي رجل في ذلك الوقت التفوه بها فأحرى فعلها سوى أباه، والشيخ أحمد بمب إلخ.

ومن ذلك قضيته مع العلامة التنواجيوي افّاهْ و لد الشيخ المهدي الذي جاء به المستعمر ليسجن في أبي تلميت، فطلب منهم أباه أن يتركوه في إقامة جبرية معه وبضمان منه، فقبلوا ذلك حيث مكث معه زمناً طويلا في حسن ضيافة وإكرام نوه بهما أفاه فيما بعد.

ثالثا: الشيخ سيدي المختار.. مصلح اجتماعي: لقد سخّر الشيخ سيدي المختار الكثير من الجهود والوقت للإصلاح بين الناس، فكان لا يعلم بأي خلل بين جماعة أو قبيلة أو مجموعات أو قبائل إلا بادر لإصلاحه مهما كلفه ذلك من مال ومشقة. والأمثلة على ذلك كثيرة، إلا أن الوقت وخوف الإثارة يحولان دون نشرها. ومن مظاهر إصلاحه إكثاره من فداء المغارم. وذلك أن ذوي الشوكة في الماضي كانوا يفرضون مغارم على بعض المجموعات و في مرحلة لاحقة تحاول هذه المجموعات التملص من ذلك، فيشب بينهما نزاع. وقد بحث هذا النوع قديما وطرق التدخل فيه شرعا من طرف العلماء أمثال الشيخ سيدي ومحنض باب وغيرهم.

وكان أبّاهْ كلما علم بنزاع من هذا القبيل تدخل وافتدى المجموعة الغارمة بماله وفض النزاع حتى طالت فداءاته حولي 30 مجموعة، لا تزال وثائق فدائها موجودة حتى الآن. وكان كلما افتدى مغرم مجموعة معينة يقول: لها هذا لوجه الله تعالى فإن شئتم امكثوا آمنين وإلا فاذهبوا حيث شئتم. ومن ذلك كثرة ما أعتق لوجه الله تعالى فقد قدر معتقوه بمئات البشر.

رابعا: إنفاقه وكرمه وحلمه: لقد اجتمع في الشيخ سيدي المختار من هذه الخصال ما لفت انتباه محللي شخصيته عن الجوانب الأخرى حتى كادت تطغى على كل من تعرض له أو مدحه أو رثاه.

شيخٌ كساه حلمُه وكمالُه ... حلَلَ القبول وخشيةُ الجبار

الشيخ عبد الله ولد داداه (كامل)

حلومهم تحكي الجبال رزانةً ... وأخلاقهم تحكي الرحيق المشعشعا

ولد الطالب

(طويل) إلخ

فكان يقول إنه يخشى أن لا يثاب على الصبر لأنه لا يكلفه ولم يستفزه أي أمر من أمور الدنيا وكان ذوو الحاجات يوردون فيه: (طويل)

تـــــراهُ إذا مـــــا جئتَـــــهُ مُـــــتَهَلِّلاً كأنـــكَ تُعطيـــهِ الـــذي أنـــت ســـائله

زهير في هرم بن سنان

لقد وفّر الشيخ سيدي المختار لأهل "لحواش" النفقة والكسوة عشرات السنين. وكان القاضـــي العلامـــة إسماعيل يقول إن"«أباه" اقـــتدى في ذلك بالشيخ سيدي فاقتدى عبد الله ب "أباه" واقتدى سليمان بعبـــد الله، فلكل منهم أجر خلَفه: وكان يوزع على الناس مئات الأضاحي ومئات الحلائب، كما كـــان يتـــولى تكاليف المناسبات الاجتماعية التي تقع في حيه كلاًّ أو جُلاًّ، كما كانت جماله توزع يوم الرحيل على الناس للركوب وحمل الأثقال. وقد ناهزت مرة مائتي جمل.

ومن نوادره أنه سمع أن إحدى قريباته استحسنت جملا أبيض فوزع عليهن اثنين وستين جملا أبيض في يـــوم واحد, ومنها أن إحدى جاراته أرسلت تريد طعاما لضيوف نزلوا عندها فلم يبرح يرسل إليها نفس الطعام في نفس الوقت مدة 25 سنة حتى ارتحلت عن حيه. كما أرسلت إليه إحداهن ليلة تريد اللبن فلم يـــبرح يوفره لها كل ليلة لمدة تسعة أشهر حتى أخبرته باستغنائها عنه. وكان إذا سأله أحد العيال شيئا فـــتح لـــه المخزن والتفت عنه ليأخذ مايريد من غير رقيب. وقد حدَّث عنه أحد جلسائه أنه كان معه في سنة شـــهباء فأرسل إليه أفراد متفرقون بحوائج شتى فقضى ما تيسر منها ووعد الباقي بأنه ســـيبحث في الحـــال عـــن حوائجهم فخطر بالجليس أن "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها فرد أباه: "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورا".

ومن نوادره كذلك أن إحدى جاراته مرضت مرضا عقليا فاكتئب لها راقيا وطبيبـــا وتـــولى تكاليفهمـــا، فوصف الطبيب علاجها في توفير الذرة ولحم صغار المعز مدة ستين يوما، فأعطاها أباه كمية كـــبيرة مـــن الذرة وستين جذعة معز. وقد أرسل إليه أحد أصدقائه مرة ابنه حافيا في يوم حـــر فلمـــا أراد الابـــن أن ينصرف بحث له أباه عن نعلين فلم يجدهما فوهبه فرسا مكانهما.

خامسا: ثراؤه واستغلاله: كان الشيخ سيدي المختار ذا ثروة هائلة صرفت كلـــها في تقـــوى الله ومعـــالي الأمور، فكان لديه ما لا يحصر من الماشية والزرع والنخل والنقد... فكان يقال إن مماليكه تجاوزت الألف وجماله ناهزت المائتين وقطعان حلائب الإبل تجاوزت أربعة.. أرسل مرة إلى رعاة البقر يريد ما يكفي مـــن الحلائب للعيال والجيران والضيوف فأرسلوا إليه مائة فاستقلها فردوا عليه بأن ليست فيها مسنة ولا بكر، كما أرسل إلى أهل الغنم يريد الحلائب والذبائح ولم يزل يستزيدهم حتى أرسلوا له ستمائة حلوب ومائتي ذبيحة فقال هذا لا يكفي لكن الرسل تعبوا. وكان منحارا فقد ذبح في يوم واحد سبع بقرات سمان ووزع لحمها وذلك في سنة شهباء فأنشد فيه ابن أخيه محمد: (طويل)

فـــتىً لـــيس بالرَّاضـــي بـــأدنى معيـــشةٍ ولا في بيـــــوتِ الحـــــيِّ بـــــالمُتولِّجِ

سادسا: الشيخ سيدي المختار مُمدّحا ومبجلا. كانت الخصال الآنفة الذكر والموروث المعنوي وشخصية الرجل كلها عوامل جعلت منه كعبة للشعراء والمداح والمبجلين، فكان من أكثر الناس مدائح وكانت مدائحه في مجملها مدائح نخبة.. وكانت رائقة لتوفر مقومات المدح فيه: (طويل)

ولا يَحسُنُ العِقْدُ النفيسُ جواهرًا إذا لم يكنْ في جيدِ غانيةٍ تَلْعا

وكما قال أيضا: (وافر)

ولَمْ أمدَحْ لأرضيه بشعري لَئيمًا أنْ يكونَ أصابَ مَالاَ
ولكنَّ الكرامَ لهمْ ثَنائي فلا أَخْزَى إذا ما قيلَ قَالاَ

وكانت هذه المدائح ذات سمات مشتركة تنوه بخصال الرجل وأخلاقه وفعاله... وقد جاءت من جهات متفرقة وعلى أوزان مختلفة وألوان أدب متعددة، مما يعطيها طابعا جماليا خاصا ورونقا أدبيا براقا. فقد تلاءم فيها الشعور والسَّبْك وجسامة المعاني وجزالة الألفاظ وخصوبة الخيال وصدق العاطفة.. فتارة تأتي لتخليد حادثة معينة وتارة تأتي تنويها بشمولية شخصية الممدوح وتارة تنبعث من تأثر روحاني عميق.

وقراءة خاطفة في هذه المدائح تعطي صورة واضحة عن مختلف جوانب شخصية الرجل وتكرس ما نثرنا بعضه في هذه الترجمة. وإليكم نماذج من هذه المدائح.

أ – الشعر الفصيح:

1– العلامة والأديب محمد فال ولد عينين الحسني: وهو شخصية علمية وأدبية مرموقة. وقد جادت قريحته بهذه القصيدة وهي من شموليات المدح، نوّه فيها بالممدوح وسلفه ودينه وخلقه وكرمه، مطلعها: (بسيط)

يا دارَ مَيٍّ سُقيتِ الغيثَ مِنْ دَارَهْ سُقيتِ غيثًا كَمِيرَ الماءِ مِدْرَارَهْ
سُقيت غيثا على الأشراط مُنهمرًا بالماءِ مُرخٍ على الآفاق أسْتارَهْ
لله دهرُكِ – إذْ مَيٌّ تُساعدُنا – كأنها جَيْلَمٌ حَفَّتْ به دارَهْ

ثم يصل إلى وصف الناقة ليتخلص منه إلى المدح:

تُبذّرُ الصخرَ بالصُّمِّ الخِفافِ كما يُبذّرُ السيدُ المختارُ دينارَهْ
فإنه السيدُ المختارُ خيرُتُنَا مَنْ خارَهُ اللهُ قِدمًا وابنُ مَنْ خارَهْ
هو التقي الذي مازال مُبتهلاً لله مُستغرقا في الدين أوْطارَهْ
هو الظريف فلا يَشقى الجليسُ به كمْ نال مَنْ جالسَ العَطّارَ أعْطارَهْ
هو الذي تَخْلُفُ الأمطارَ راحَتُه إن أمسك المزنُ في اللّأوَاءِ أمْطارَهْ
إني سأذكرُ مِنْ أخباره جُمَلاً إنّ الكريمَ تُحببُ الناسُ أخبارَهْ

2 – العلامة الأديب محمد المصطفى ولد الطالب: وهو كذلك عالم وأديب، له مدائح عدة في الشيخ سيدي المختار، نذكر نموذجا من شموليتها ونموذجا من الصنف المخلد لأمور معينة. من النموذج الأول: (طويل)

أثار دفينَ الشوق مِنْ أمِّ قاسمِ ... زمانَ الصِّبَا هَبُّ الرياحِ النَّواسمِ
بجَنْبَةِ ذاتِ الجِنِّ إذْ أنَسا يافِعٌ ... بلادٌ بها نِيطَتْ عَليَّ تمائمي

إلى أن يقول:

فبالسيدِ المختارِ حَسْبِي فإنه ... لَأَغْنَى وأقْنَى مِنْ عَدِيٍّ وحاتِمِ
إمامٌ يَرى الحقَّ الذي ليس لازمًا ... أحقَّ لديه مِنْ حقوقٍ لَوَازِمِ
هو الذائدُ الحامي الذِّمارَ عنِ الوَرَى ... هو القائدُ الكافي هجومَ العظائمِ
هو السَّلْسَلُ العَذْبُ المذاقِ لدَى الرِّضا ... وأَهْيَبُ مِنْ لَيْثٍ عَبَنَّ ضُبارِمِ
وما جامدُ الكفِّ الضَّنينُ بمالِه ... كمَنْ عَوَّدَ السؤالَ كثرةَ الدراهمِ
بقيتَ قريرَ المجدِ قَرْنًا مُؤَمَّلاً ... بِجُلِّي وإنْ جَلَّتْ وَرَدِّ المَظالمِ
ولازلتَ في أمنٍ ويُمنٍ ونعمةٍ ... تُحَيَّى بقبولِ الزائرينَ: ألاَ عِمِ

ويقول في نفس المنوال: (بسيط)

يا مَنْ تَسامَى فلا طَوْدٌ يُطاوِلُهُ ... عند الفَخارِ إذا ما كَعَّ فاعِلُهُ
يا حاملَ الكَلِّ عنْ كلِّ الأنام ويا ... مَنْ لا يَكِلُّ لِحَمْلِ الكَلِّ كاهِلُهُ
حَلَّيْتَ دَهْرَكَ شَذْرَ الصِّيتِ مُدَّرِعًا ... حتى تَحَلَّى بشَذْرِ الصِّيتِ عاطِلُهُ
في حسنِ سَمْتٍ وجودٍ لوْ أُزِيحَ بهِ ... رَيْبُ الزمانِ لما خِيفَتْ زَلازِلُهُ
تَفْدي نُفوسُ طَغامٍ لا خَلاقَ لها ... نفسَ الهُمامِ الذي تُرْجَى نَوافِلُهُ
بِمَأْتَمٍ وضيوفٍ نُزَّلٍ وذَوِي ... بأسٍ وأرملةٍ خُفَّتْ مَنازِلُهُ
وكُلِّ صِنْفٍ بِلا مَنٍّ ولا مَلَلٍ ... بما يُناسِبُ مِنْ صُنْعٍ يُعامِلُهُ
هَذي مكارِمُ أخلاقٍ حَظِيتَ بها ... وذا المديحُ وما أطْراكَ قائِلُهُ

أما تخليده لبعض أموره المعينة، فنذكر منه أن الشيخ سيدي المختار أبطأ مرة في السنغال، فأرسل إليه الشاعر بهذه الأبيات: (بسيط)

يا مَنْ بأخْمَصِهِ هَامَ السُّهَى يَطَأُ ... يا مَنْ هُوَ المَلجأُ اللاَّجِي لَهُ المَلأُ
يا مَنْ يَسُحُّ إذا شَحَّ الكرامُ يَدًا ... يا مَنْ يَصِحُّ إذا يُعْزَى لَهُ النَّبَأُ
تاهتْ بكمْ سِينغالُ العامَ وارتفعتْ ... على البلادِ فما سَلْمَى وما أجَأُ؟

هـــذا ولا زال روضٌ نحـــوَكمْ عَطِـــرًا ... يُرْعَىَ بـــهِ الحمـــدُ لا يُرعَـــى بـــه الكَـــلأُ

كما يقول في التنويه بالخيمة البيضاء التي كان الشيخ سيدي المختار يستقبل فيها الناس ويضيف فيها كبار الشخصيات وذوي الحاجات: (طويل)

أيـــا خيمـــةً بَيْـــضَـــا أضـــاءَ بَياضُـــها ... ســـوادَ ليـــالي الهَـــمِّ حـــتى تَقَـــشَّعَا
تَفَيَّـــأُ في قَـــيظِ الـــسَّموم ظِلالُهـــا ... تَفـــيءُ إليهـــا النـــاسُ مَثنَـــى ومَربَعَـــا
تَبَوَّأهـــــا دارًا كـــــرامٌ أعـــــزَّةٌ ... فما نطقوا العَـــوْرَا ولا الفُحْـــشَ أجْمَعَـــا
حُلُـــومُهُمُ تَحْكـــي الجبـــالَ رَزانـــةً ... وأخلاقُهُـــمْ تَحْكـــي الرَّحيـــقَ المُشَعْـــشَعَا
فلستَ تَرَى مِـــنْ زاجـــرٍ عـــنْ وُلوجِهـــا ... ولا مُكْفَهِرٌ الوجـــهِ في وجـــهِ مَـــنْ دَعَـــا
فَـــدَتْكِ وقَلَّـــتْ في فِـــداكِ عَواصِـــمٌ ... عَـــصَمْنَ مِـــنَ الآفـــاتِ كِـــسْرَى وتُبَّعَـــا
وجادكِ مِـــنْ نَـــوْءِ الـــسِّماكِ غَمَـــائِمٌ ... أَبَـــانَ خَطيـــبُ المُـــزْنِ فيهـــا فأَسْـــمَعَا

3- العالم الجليل والشاعر المُجيد عبد الودود ولد سيدي عبد الله: لقد كان مدح عبد الودود لأبّاهْ مـن المدح الشمولي، إلا أنه أخذ أسلوبين مختلفين: أولهما أسلوب القصيدة التقليدية. والثاني أسلوب الألفيـة. وهو ضرب استحدثه النابغة القلاوي في أرجوزته في مدح أحمد بن العاقل، فيكون شطر من إنشائه وشـطر من ألفية ابن مالك. مثال النوع الأول: (طويل)

لزينـــبَ أطـــلالٌ بِـــسَنْجٍ بَلاقِـــعُ ... كما رَجَّعَـــتْ وَشْـــمَ الـــذراعِ الخَرائِـــعُ
وبـــالغُرِّ والمُـــستَوْفِزَيْنِ مَنـــازلٌ ... لِمـــا يَعْـــرُنِي للْعـــيْنِ عنـــها أُخـــادِعُ
وبالجانـــب الغـــربي مِـــنْ زَارَ ادْؤُرٌ ... لِعِرفانِهـــا وَجْـــدًا تَـــذوبُ الأَضـــالِعُ
وبـــينَ رُبى تـــنْدَوْجَه والبُتْـــرِ أَرْبُـــعٌ ... مِـــنَ العـــارِ عنـــها أنْ تُـــصانَ المَـــدامِعُ
وَدُورٌ لَـــدَى الميمـــونِ أضـــحتْ بَلاقِعًـــا ... وأخـــرى إلى نَعْـــفِ الـــذِّراعِ بَلاقِـــعُ
ولاحـــت علـــى ميمـــونَ دورٌ كأنَّهـــا ... بَقايـــا ســـطورٍ دَثَّـــرَتْها الـــسَّماذِعُ
هنالـــك غيطـــانٌ ودورٌ وأنْجُـــدٌ ... هَواهَـــا قـــديمًا أرضَـــعَتْنا المَراضِـــعُ
ولَـــمْ تُـــسْلِنا عنـــها بـــلادٌ قريبـــةٌ ... ولَـــمْ تُـــسْلِنا عنـــها بـــلادٌ شَواسِـــعُ
وصَوْنُ الـــذي يَرعَـــى العهـــودَ دُموعَـــهُ ... عـــنْ أطلالِهـــا تَـــستَكُّ منـــه المَـــسامِعُ
ودمـــعٌ مُفـــاضٌ وَسْـــطَ دورٍ لِغيرِهـــا ... على زمـــنٍ ولَّـــى فَـــذا الـــدَّمعُ ضـــائِعُ
مَرابِعُهـــا هـــي المَرابِـــعُ والرُّبَـــى ... فَياحَبَّـــذا تلـــك الرُّبَـــى والمَرابِـــعُ
عَسَىَ مَنْ نَأَى عنْ تلـــكَ جـــسمًا وقَلْبُـــهُ ... بِهـــا مُطمئـــنٌّ تَرتَجِعْـــهُ الرَّواجِـــعُ
فيُلقِـــي عـــصا التَّـــسْيارِ عنـــدَ مُـــرَرَّإٍ ... بـــه البَـــدْأُ إنْ عَـــدَّ الكـــرامَ الأَصَـــابِعُ
هو السيدُ المختـــــارُ مِنْ كُلِّ سَـــيِّدٍ ... إذا قُرِّبَـــتْ جُـــرْدُ المعـــالي الجَراشِـــعُ

هو السيدُ المختارُ مِنْ كُلِّ سَيِّدٍ ... إذا سُلَّ للعَلْيا سيوفٌ قَواطِعُ
هو الغيث لم يَرعد هو الليث في الوغى ... إذا احمرَّ أُفْقٌ أو تَبَدَّتْ طلائعُ
على أنَّ مَرْعَى الغيث يَنْبُتُ بَعدَهُ ... وتَرْتَعُ عندَ السَّحِّ مِنْ ذا الرَّواتِعُ
ويدفعُ سيل الغيث ما كان عُدْمُلاً ... ولكنَّ هذا السيل للفقر دافعُ
ولِلَّيْثِ مِنْ خُبْثِ الطَّوِيَةِ هَيْبَةٌ ... فكانتْ لِذا جُدًّا بِها الجَدُّ شَائِعُ
لَهَيْبَتُهُ والفضلُ والجودُ والنَّدَى ... لآبائه الغُرِّ الكرامِ طَبائعُ
أولئك قومٌ كان ذا الطبعُ إرْثَهُمْ ... فَسِيان فيه شِيبُهُمْ والرَّواضِعُ
أولئك قومٌ أسس اللهُ أمْرَهُمْ ... على فعلِ ما أَهْدَتْ إليه الشَّرائعُ
كفاهُمْ بأنَّ الضيفَ منهمْ مَبيتُهُ ... يكونُ به حرصًا عليه التَّنازُعُ
ويُكْسِبُ ذاك الضيفُ مَنْ باتَ عنده ... عَلِيَّ مَقامٍ دُونَهُ البدرُ طالعُ
ويكفيهمُ فَخْرًا بأنَّ طباعَهمْ ... لها ذَمَّ عِطْرٍ مِنْ أُمَيْمَةَ ضَائعُ
ويكفيهمُ فخرًا بأنَّ أكُفَّهُمْ ... تُدَمِّي لها غُرُّ الغَمامِ الْهَوامِعُ
فلازال أصلُ المجدِ راسٍ لَدَيْكُمُ ونلتم من ... وأغصانه غُرٌّ لديكمْ يَوانِعُ
الفردوس أعْلَى جِنانِها ... إذا عَظُمَتْ يومَ الحسابِ الرَّوائعُ
ونلنا بكمْ قَصْدًا هُناك مُتَمَّمًا ... فإنا به لا غيرُ فيكم طوامعُ
صلاة وتسليم على صاحب السُّرَى ... وآلٍ وصَحْبٍ ما النجومُ طوالعُ

ويقول فيه بنفس الأسلوب: (طويل)

أَلَمَّتْ بنا وَهْنًا لدى الشام هجَّعًا ... لِمَيٍّ خيالاتٌ وَلَيْنَ رُجَّعًا
أَلَمَّتْ خيالاتٌ لِمَيٍّ فذكَّرت ... فؤادي ميًّا فاستهام وأوجعا
فبت سمير النجم أشكو بلابلي ... لذكرة مَيٍّ مستعيذا مُرجَّعًا
أسائل مني الطرف والجنب عودة ... لِمَيٍّ فيأبى أن لنوم يرجعا
ولما رأيت النوم حَرَّمَ مقلتي ... وجنبي شوقا ما تبوأ مضجعا
فصت إلى كوماء وجنا شملة ... تساوي إذا مرت دميثا وجعجعا
إلى عُبر أسفار أنيلت منا سما ... إذا لاقت الصخر الأيَرُّ تمزَّعا
كأن رنين الصخر من تحت خفها ... رنين رصاص يوم هيجاء وقعا
وتكبو إلى الرياح العاصفات، وراءها ... إذا راكب أبدى من السوط إصبعا
وهل تستطيع الريح شأو شملة ... تؤم الهمام المستماح السميدعا
وهل تستطيع الريح شأو شملة ... تؤم امرءا قد طاب مرأى ومسمعا
يداه سحاب المستنين إذا همت ... ومن وجهه بدر الدياجي تطلعا

ولا بـــرق في تلـــك الـــسحابة خُلـــب ولا بـــدر فيهـــا بـــالأفول تقنعـــا
فـــلا زلـــتمُ في الخلـــق غـــرة أدهـــم ولازلـــتمُ للحـــق كهفـــا ممنعـــا
ولازال حصن المجـد والجـود حـصنكم ولازال ذاك الحـــصن أعلـــى وأرفعـــا
كفـــاكم مـــن العليـــا بـــني محمـــد عليـــه صـــلاة مـــا هـــلال تطلعـــا

أما الأسلوب الثاني فنذكر منه ألفيتين، أولاهما: (رجز)

مـــالِيَ ســـاهرا بليـــلِ ألْيـــلِ مُـــروَّعَ القلـــب قليـــلَ الحِيَـــلِ

إلى أن يقول: (رجز)

والعـــينُ كلـــما ذكـــرتُ فـــضلهْ لها بكًـــا بكـــاءَ ذات عَـــضْلَهْ

ويقول:

ومَـــن إذا الخطـــبُ دَهـــى وجنتـــهُ تقـــول زيـــدٌ رجـــل مـــا شـــئتهُ
ومـــن إذا القحـــط تـــوالى زمنَـــا يقـــول للـــضيف هنـــا امكـــث أزمُنـــا
ومَـــن إذا أتيـــتَ بابَـــه أتـــى زيـــدٌ مُـــنيرا وجهُـــه نعـــم الفـــتى
هـــو الأمـــير إن نـــأى وإن دنَـــا ورجـــلٌ مـــن الكـــرام عنـــدَنا
ولا يَمُـــنُّ أبـــدا مـــا وهبـــا لـــو كـــان مثـــلَ مـــلْءِ الأرض ذهَبـــا

ومطلع الأخرى: (رجز)

حمدا لمـن كـــــان قـديما وتـــرا ولم يـــزل وتـــرا يحـــب الـــوترا

4 – العالم الجليل واللغوي البارز عبد الله العتيق ولد ذي الخلال: وتتناول قطعته هذه حادثة معينة، ذلك أنه وفد إلى الشيخ سيدي المختار يريد كمية من الزرع فأعطاه إياها وحملها على جمله، فلما كان في طريق العودة عَطِب جمله ومات، فأراد أن يحمل الشيخ سيدي المختار ــ بظرافة ــ مسؤولية الجمل، لأن سبب موته كان كثرة ما أعطاه من الزرع، ففهم الشيخ سيدي المختار الطرفة وعوض الجمل. والقطعة هي: (بسيط)

يـــا معمـــلا رائقـــا في الـــنص عاملَـــهُ لا يُتعـــبُ الـــنص والدِّيـــدَا عواملَـــهُ
لي بلِّغ السيـــــــــدَ المختارَ مَأْلكـــةً بعـــد الـــسلام وقبِّـــلْ لي أناملـــهُ
لا زال يـــوتي كمـــا يـــوتى ولا برحـــتْ تَخِـــرُّ مـــن هَيْبـــةٍ شـــوسُ الأنـــامِ لـــهُ
أخبره أنْ غـــالَ نـــضوي ثِقـــلُ زرعكـــمُ لـــولا الحيـــاء حبـــست اليـــوم جاملـــهُ
حـــتى يعوِّضـــني عنـــه مماثلَـــهُ لكنْ أنـــا الـــسَّمْحُ لا يـــوذي مُجاملـــهُ

أحرى إذا كان طَلْقَ الكفِّ سائلهُ يُلْفِي النَّوالَ بأطراف الثُّمام لهُ

5 – وهذه المرة مع الفتى الأديب ذي الخط الرائق سيدي ولد عبد الله: وقصيدته هذه من شموليات المدح:

(بسيط)

قد طالما ذُدتُ أفكاري عن المِدح إذْ في الأنام الدواعي اليومَ لم تُتحِ
وصنتُ عنها لساني والجَنانَ ليـ ـلاً ياتيا مَقصدا في الشرع لم يُتحِ
قالت لِيَ النفسُ والأفكارُ سابحةً من المعاني ببحر غير منتزحِ
لا تَمدحَنْ ذا جَنانٍ غير مُنْشَرِحٍ بالمدح أو ذا بَنانٍ غير مُنفَتحِ
وعندَ سَبْرِي الرِّضا المختارَ قلتُ لها لقي بُمنفتحٍ منه ومُنشَرِحِ
بطلعة السيدِ المختارِ قُدوتِنا قد راح ذا فرحٍ مَن كان ذا تَرحِ
فالآنَ فاصدعْ على رَغمِ الحَسود بما قد كنتَ جحتَهُ من مدحه وبُحِ
فهو القمين بما قد كان لَمَّقه من رائقات القوافي كل ممتدحِ
وهْو الوَهوبُ بما لا اليَمُّ واهبُهُ ولا جدى المُعصراتِ الوُطَّفِ الدلُحِ
إذا رأت شَبَحًا عيناهُ من بُعدٍ يغشاهُ بالبشر والشيزيَّة الرُّدُحِ
حتى ينالَ الغنى مما يخوِّلهُ ولم يَسَلْ أحدا عن ذلك الشَّبَحِ
غيثٌ مغيثٌ إمامٌ عادلٌ ورِعٌ سهل السجايا بغير الحق لم يبُحِ
درَّاء ذي الخطل الضِّليل دامغةٌ بفصل حقٍّ من الأقوال مُتَّضِحِ
إن يندري كان ذاك الحزم منه وإلاَّ ـا قر عينا بقانٍ منه مُنْسَفِحِ
فق ترعرع بالعلياء مغتذيا من بلْه ما نال من آبائه المِلَحِ
قد كان مصطبحا منها ومغتبقا طوبى لمغتبقٍ منها ومصطبحِ
فق لدى بابه من كل ناحية قد تلتقي طرف الغادين والروح
كل تعوَّدَ منه أن يقول لهُ نلت المؤمل أيُّنا كان فاسترحِ
وليس إنْ مسَّهُ ضرٌّ بذي جزعٍ وليس من ليله السَّرَّاءَ بالفرَحِ
يا بارك الله في الأبنا وفيه وفي جميع الأمة من دانٍ ومنتزحِ
ودام لي ولهم ما سَرَّ أنفسَنا وأنفس الأهل مِن أمْنٍ ومن فرحِ
بجاه أحمد نبراسِ الهداية مَن لولاهُ لِلعَيْنِ هذا الكونُ لم يَلِحِ
عليه أزكى صلاة لا انتهاءَ لها ما فاز بالربح منه مُبْتغى الربحِ
والآلِ والصَّحْبِ مَن مهما قرعت بهم مسدودَ بابٍ إلى الفتاح ينفتحِ
معهما سلامٌ يفوقُ المسكَ عرفُهما كالنجم عدا وكالأمطار والرِّيَحِ

6 – ويشارك الأديب الكبير والطبيب الماهر أوفى ولد محمد ولد أوفى في شموليات مدح أباه: (كامل)

سَلْ دار ميةَ واختبر اخبارها ... ريث اصطبارك ان فقدت مزارها
يوما يساعدك الزمان بوصلها ... إن السعادة في وصالك دارها
دع دارها مهما لأنك تخلصا ... تجد الفتوة يممت مختارها
إن الفتوة قبله آه لها ... خاضت بحار هلاكها وقفارها
لما غدت بلدانها وعرا غدا ... مأوى الأرامل مطلقا اوعارها
لما بدت امطار غر سحابها ... عادت يداه فيمتا أمطارها
خضعت دراهمه وفتش سرها ... ان لا تحن مفتشا أسرارها
تاوي إليه المكرمات كأنها ... دكت دعائمَه تريد عمارها

7 – كما يشارك في الشموليات الأديب أحمد ولد المختار فال بقصيدة مطلعها: (وافر)

سلام كالسلاف بلا زوال ... لهُ أرى كسنا قُننَ الجبال

إلى أن يقول:

إلى معطي العطاء على ابتهاجٍ ... إلى ليث إذا دعيت نزال

8 – وهذه المرة مع مشاركة العامل الضابط والأديب الشهير محمد المصطفى ولد أحمد ولد المصطفى (تتًا) في الشموليات حيث يقول: (طويل)

على شيخنا المختار صافي العناصرِ ... سلام يساوي صيتَه في المعاشرِ
ويزري بعرف المسك والند عرفُه ... فما هو إلا وفق ما في الخواطرِ
مبرِّز حلْبات الرِّهان إلى العلا ... يتيمةِ عقدِ المجدِ حاوي المفاخرِ
فشيمته علم وحلم وسودد ... بهجر المناهي وامتثال الأوامرِ
وأفعاله طُرًّا مَواضٍ جَوابرٌ ... فأضحت بها نهبًا جنودُ الزواجرِ
يزين سماه النظمَ إن صيغ وسْطَهُ ... فتحسبهُ دُرًّا بطونَ الدفاترِ
أطال إلهُ الناس فينا بقاءهُ ... لإحياء معروفٍ ورمسِ المناكرِ

9 – أما الصنف الثالث من المدائح وهو المنبعث من التأثر الروحاني وهو ما يعرف بمدح المريدين لأشياخهم واستعطافهم إياهم، فنعطي مثالا عليه قصيدة مريده الشيخ محمد بافودى: (كامل)

بعدُ المزار أشار بالتوقانِ ... وتذكر الأحباب والأوطانِ

يا ربَّ ليلٍ بتُّ فيه كأنني ... أرعى النجوم مسهَّدَ الأجفانِ

إن رمتُ إيثارَ السُّلُوّ يهزني ... ذكرُ المنازل قد عفتْ لحسانِ

حورٌ قضيتُ مُنى الشبيبة والصِّبا ... بربوعهنَّ مواصلَ الأغصانِ

أختال في برد البهاء مُرَفّهاً ... في ظل عيش مورقِ الأغصانِ

هل ترجع الأيامُ دهرا بعدما ... طارت بها العنقاء منذ زمانِ

هيهات يرجى في الشيُوخة والوهى ... عودُ المُسِنِّ لحالة المردانِ

فتخلَّصَنْ عن ذكر كل حبيبة ... تُهْوَى بذكر أحبة الرحمن

أعني بهم أعلامَ دين المصطفى ... في كل عصر آمد الأزمانِ

فهم الذين يحبهم ويَوَدُّهمْ ... من كان ذا لب وذا إيقانِ

وهُمُ مناخُ المعتفي والمرتجي ... وهمُ ملاذُ الخائف الحيران

أعوانُ خلق الله سادة أرضه ... أكرم بهم من سادةٍ أعوانِ

فبهم يغيث اللهُ كل بلاده ... وبهم يغيث إذا استغاث الوانِ

وبهم يسهِّل للمريد مرامَه ... وبهم يصان من المريد الشانِ

فاذكر حلى الأعلام واقصد شيخَنا ... غوث الزمان العارف الربَّانِ

شيخ المشائخ سيدي المختار م ... اختاره المولى على الأعيانِ

وعلي حتما أن أجيد بمدحه ... شعرا حسينا يزدري بجمانِ

ما ذا عسى أبدي به فيمن حوى ... قبل الفطام مآثر الثيران

إذْ كان أورثه ابوه وجده ... شانا عظيما يا له من شانِ

فحوى الحقيقة بالتحقق بعد ما ... حاز الشريعة صافي الأذهانِ

شيخ مرب مرشد ومؤدب ... بمحاسن الآداب للخلصانِ

متمسك بهدى الكتاب وسنة الـ ... ـمختار في الإسرار والإعلانِ

فعليهما دأبا مدار أموره ... وإليهما يررو بكل أوانِ

حضراته محفوفة بتلاوة الـ ... ـقرآن والأذكار بالإدمانِ

وبنشر أنواع العلوم جميعها ... ومعارف القاعات في الأزمانِ

هو غُنية العافي كريمٌ مُوثرٌ ... متعطِّفٌ بَرٌّ شفيقٌ حانِ

طود رسوخ ذو خوارقَ جمةٍ ... في الحس والمعنى زهودٌ فانِ

إن جئته تلقَ البشاشة منه في ... هيبة ليث في اللقا غضبانِ

وإليه ركبان المنى في غربنا ... دأبا من البيضان والسودانِ

ما بين عـاف للـمـؤمّل مـرتج ... أومحـتم لـلـهواجم الحـدثان
أوسـائل عـن مـشكل او سـالك ... يبغـي الوصـول لمرتقـى الأعيـان
يـا غـوث كـل مؤمـل متوسـل ... ومـلاذَ كـل مـروع حـيران
هذا المريـد يريـد منـك مزيـد مـا ... عودتمـوه بـه مـن الإحـسان
يهـوى إلى أرض الحجـاز وشـفّه ... تَـوْقٌ إليهـا أيُمـا تَوَقـان
أرض بهـا البيـت الحـرام لربنـا ... ومـزار طـهَ المـصطفى العـدناني
صـلى عليـه الله مـا حُـثّ المطـا ... لمـزار سـاحته مـن البلـدان
فـاذن لـه واضـمن لـه بذهابـه ... وإيابـه بـسلامة وأمـان
إذن الـشيوخ وأنـت مـن كبرائهـم ... إذن الرسـول عليـه كـلّ أوان
أزكى الصلاة مع السلام وإذنُـه ... إذنُ الإله الـواهب الـمنّان
إن أنت بالإذن المروم سمحت يـا ... عـوني فغايـة مـأمني وأمـاني
حاشـاكم مـن أن يـرد مخيبـا ... عـن بـابكم ذو آمـل بعيـان
أو ان يخاف صـروف دهـر مـن بكـم ... نـاط الرجـا بالـصدق والإيقـان
قـد كنـتم عـوني فكـل مـسرتـي ... مـنكم ومـنكم قـرة العينـان
حـتى غـدا في البـشر كـل محبنـا ... وحـسودنا في الغـيظ والأشـجان
حمـدا لمـن للغـوث صـحح نـسبتي ... وبفـضله ومكانـه أدرانـي
فوجدتـه شـيخا يطيـب بـالمنى ... قلـب المريـد المـشتكي العطـشان
يـا أهـل حـضرته الـسنية حـزتم ... فخـرا عـلا بـالمفخر المعـوان
زاحمـتم أصـحاب كـل مفـضل ... في ذا الـورى مـن اوليـا الـرحمن
هـاكم مقـال المتمـي لجنـان مـن ... سـدتم بخدمتـه علـى الأقـران
ثم الـصلاة علـى الحبيـب المرتـضى ... خـير الـورى المختـار مـن عـدناني
والآل مـع أصـحابه الأعـلام مـا ... بعـد المـزار يـثير بالتوقـان

ب – الشعر الحساني: ينطبق على مدائح الشيخ سيد المختار من الشعر الحساني ما ينطبق على الصنفين الأولين من مدائحه الفصيحة: المدائح الشمولية ومدائح المناسبات، وتمتاز كلها بالجزالة وشهرة المصادر وتنوع الأوزان. وإليكم نماذج مختارة منها:

I – المدائح الشمولية:

1– محمد ولد هدار: (لبْتَيْتْ التام)

الْمَشّيْت ابش تمشـــــــايْ طلع ابتيت اكبار افش جـــــايْ
طلع ابتيت اسو كاع اشـــــرايْ هـــوم بعـــد الا طلـــع اكبـــارْ
وَسَـــيْتِ الـــرَّاوِ رَايَ آرَايْ عَـــنْدِ ذاك الـــدوْرْ يْحْـــرارْ
الـــرَّاوِ لَـــعاذْ الـــلِّ رايْ بـــالراي اعـــود الـــرَّاوِ حـــارْ
مـــاه اعليـــه المـــدار الجـــودْ مِـــرْكَبْ سيد المختار الـــــدارْ
ويـــلَ دارُ دَوَّارْ اكُـــودْ ويـــلَ دار افـــسيد المختـــارْ
ادَّوَّارْ الـــل دار اعـــودْ الـــل دار اغليـــه المـــدارْ
راه اصَّ لَـــعْـــبادْ اللَّـــعْـــبَادْ مـــا تَـــعْـــطِ شِ كـــون الَ رادْ
لِـكْريـــمْ القهَّـــار الجـــوادْ مَـــعْطَ دون القهَّـــارْ أخبـــارْ
ذاكْ اللّ آثـــرُ شِ باطِـــلْ عـــادْ راســـل بيـــه الـــرَّبّْ القـــهَّـــارْ
امْـــعْ عبـــدُ غيْـــر آثـــرُ زادْ رسَّـــالْ امْـــعَ سـيد المختـــارْ

2- سيدي ولد هدار: (بُـــعُـــمْـــرانْ)

يَـــا الْعَـــيْنْ ابْلَـــدْ نَبْـــعْ الجـــودْ يـــا الـــلِّ لِجُّـــودْ معهـــودْ
كـــانْ عـــادِ اجِّيِّـــدْ مَكْـــرودْ بيـــهْ طـــولِ الدَّفْـــرِ والمـــالْ
كَـــلْ عـــنْ شِ موجـــودْ اجُـــودْ بيهْ جـــيِّـــدْ مـــن كـــصْف الحـــالْ
عـــدتْ فـــم انـــتَ جَمْـــل ارْفـــودْ كلْ ثـــقْـــلُ اكابـــلْ تـــنـــشالْ
شـــورْ كـــل اضـــعيف امـــشْدودْ هـــازلُ دَاوم الْـــــهُزالْ
اوشـــور كـــل آزكْـــحَ اعَكْـــرودْ مـــا ايمـــلُّ اُوطبـــعُ مـــشغالْ
او زاكْـــلْ الـــلِّ مـــاهُ محـــدودْ اساخْـــيَ نفـــسَكْ بَـــزَكَّالْ
ابـــاش دام ازَكّـــالْ اعُـــودْ ذاك عنـــدكْ تـــسْدَارْ اجْمـــالْ

وله أيضا: (لبير)

الـــل رَ فتـــسوَ حيلـــتُ واثـــكافيه أُتـــشراكْ
كَـــبْـــظُ واعطـــاه أبْـــحيلْـــتُ مـــا خـــلاّه اُلا صـــا كْ

3- امحمد ولد الكذي: (لبيت التام)

ســـيد المختـــار النفـــاسَ فـــات ابـــكَ بيـــهَ عـــن خاطيـــهْ
اعـــرض مـــن مـــس المـــسّاسَ حجـــبْ بالمـــال الـــلِّ فيديـــهْ
واملـــهمسْ بيـــه اللّهْمـــاسَ كـــل انهـــار املهمـــهُم بيـــهْ
أيعـــرف ذاك الـــل يتـــواسَ مـــن ش يتـــواسَ وامّاسيـــهْ

4- نزيلُ ولد الشيخ المصطف: (لبتيت التام)

لمخاليـــــكْ الاّ مـــنْـــــدَمْلَ ... شـــورَكْ والـعّـــشّـيهَ والـــنجيكْ
اُلاهْ امعـــــشيهَ حـــــد اتـــــلَ ... كـــون انـــتَ يلـــل ابـــارك فيـــكْ
واخلمّـــكْ لاجاتـــك لَبْـــــراكْ ... مَـــزْينْ بعـــد اللّـــــبْراكْ اعـــشاكْ
اخْـلمّـــكْ فـــلْـعَـــوْدانِ اخْـــذاكْ ... منْ كـــلّـــتْ عن حد الـعّاميـــكْ
اخْـلمّـــكْ يعـــينِ عفـــاكْ ... فانباتـــك صـــهران اماعيـــكْ
رفـــــدولِ ذاك الـــــذاكْ اُذاكْ ... رفـــدولِ ذاك الـــذَاكْ اُذيـــكْ
وَكْـــبَظْ يـــذاكْ ايَهـــاذَ هـــاكْ ... ـــــالينْ ابـــانْ اظّـــوْ اعليـــكْ

5- سيدي محمد ولد باب احمد ولد الكُصْرِ: (لبتيت التام)

خـــــبر ويّ ســـــيد المختـــــارْ ... رابطـــــنِ شِ فيـــــه انواســـــيه
آن حـــــكّ مـــــان صـــــبّارْ ... عـــن كـــول الحـــق انـــراع فيـــه
اهـــو مـــا هـــو بـــاغ تظهـــارْ ... اعليـــه الـــل دايـــر عربيـــه
فيـــه امـــن العلـــوم الـــسرارَ ... ارعيـــت حقـــوق الـــرب اعليـــه
الاه كّابـــل يظهـــر لغيـــارَ ... مـــن شِ ينكـــال انّ مزّيـــهْ
غـــير ابـــات اركـــاب الخطـــارْ ... عـــن كـــون الـــل جـــبرت تحكيـــهْ
وبـــات الحـــذاك النظـــارْ ... تغلـــطْ فـــامر انـــراع فيـــهْ
واب زاد العـــــزْرِ والجـــــارْ ... واكّريـــب الخلـــق ابَـــرّانيهْ
واب هـــو يـــدرك تكـــرارْ ... خـــصال عـــادت نـــور اعليـــهْ
والقمـــر مـــن ســـاعت يقمـــارْ ... مـــاييغ حـــد ايـــشير اعليـــهْ
نـــورُ مـــا يحتـــاج التظهـــارْ ... اُلا يكّـــدر غطّـــاي اغطيـــه

ويقول: (لبتيت التام)

اعرفـــتُ عـــن ســـيد المختـــارْ ... يـــولاد ابـــيرِ كـــانْ اشـــبارْ
بالجـــاه اُلمعـــاطَ لكبـــارْ ... مـــن مـــالُ والنـــاس اركُـــدينْ
وامـــسلّـك ياســـر مـــن لحـــرارْ ... مـــن ذا الـــسجن انكـــال الطـــينْ
الاَ مُوَدّيـــلُ حمـــد انهـــارْ ... الاه دايـــر مـــن ذاك اخـــزينْ
واعرفـــتُ عـــن زاد ان اصـــفارْ ... عـــام معكّـــود الا فمـــنينْ

II- مدح المناسبات :

1- يقول امحمد ولد هدار بمناسبة قدوم أبّـاه وابنه محمد: (لبتيت التام)

مرحـــــبَ ذا الـــــلِّ مـــــا ورا ... ةَ وَراءْ ليلـــــــــت كولتـــــــةَ
للرســـــول افليلـــــت لـــــسْرا ... ليلـــــــتْ كولتـــــــةَ ليلتـــــــةَ
ذاك الـــــلِّ جَ ســـيد المختالـــــــ ... ـــــــلشَّيخْ ابلـــدْ وخـــيرتْ اكبـــالْ
أو لـــــلُّ محمـــــد مـــــن لطفـــــالْ ... وخـــــيرت أُحـــــكْ احجتـــــةَ
مرحـــــبَ مامنـــــه شِ قـــــالْ ... كولـــــوةَ يخْـــــلِ خيمتـــــةَ
لاَحكْـــــةَ يخـــــوتِ تنكـــــالْ ... عـــــار بعـــــد الـــــلُّ لحكتـــــةَ

2- يقول الشاعر الكبير نزيل ولد الشيخ المصطف بمناسبة مشكلة كانت بين اولاد أبير والادارة الفرنسية حينما تحمل ابّـاه باهظ الدفع وضيافة المستدعَيْن: (لبتيت التام)

اسمعـــنَ عـــن يِـــطْـــنَ مَفكُـــوعْ ... راســـل للنـــاس اتجيـــه اجمـــوع
تجـــالُ فـــات اراه اســـبوعْ ... كلـــن فُـــدّ افْـمَـــرّ واخْـــلاصْ
ولحكْـــنَ هـــون الـــلِّ موجـــوعْ ... إِعَـــيَّطْ مـــن ظهـــرْ والـــرَّاصْ
والـــلِّ زاد اصـــحيح أُمكلـــوعْ ... مـــنْ حَـــرْب انـــيـــت والتَّـــرْهاصْ
والـــلِّ طـــايرْ كلـــبُ مخلـــوعْ ... وحَجَّبْ عـــنْ كـــاصِ ابْـــلِـخْـــلاصْ
غَـــيْر اجْـــلَ عـــينِ ذاك النَّـــوْعْ ... واعرفـــت ان لُـــولَ عـــينِ خـــاصْ
الـــلِّ جَ يَـــفْرَغْ بيـــه الجُـــوعْ ... والـــلِّ مـــا جَ يـــدار افكـــاصْ

وفاتـــه: توفـــي الشيخ سيدي المختار رحمه الله عن حياة حافلة بتقوى الله والمزايا العامة ومكارم الأخلاق والإنفاق في السراء والضراء وعن عمر يناهز 92 سـنة وذلـك فجـر الاثـنين 23 رجـب سـنة 1370هـ، 30 / ابريل / 1951م كما أرخ ذلك العلامة الشيخ عبد الله بن داداه بقوله: (رجز)

ســـيدنا المختـــار للحـــسْنَى ذهـــبْ ... في ثالث العـــشرين مـــن شـــهر رجـــبْ
طلـــوع فجـــر أهـــون عـــام شـــسعْ ... عـــنـــهُ المخـــوف والعنـــاء والفَـــزعْ
أمنـــه ممـــا اختـــشى الـــرحمن ... فللأنـــــام عمـــــره أمـــــان

كما أرخ وفاته العلامة محنض الفق بقوله: (خفيف)

لثمـــان بقـــين مـــن رجـــب الفـــرْ ... د دنا للـــجـــنـــــان بحر العطاء
رحـــم الله خـــير مُـــرْوٍ فـــأَرِّخْ ... بـــدعائي لعـــام فقـــد الـــسخاء

تأبيناته ومراثيه: لم يكن التأبين كتابة قبل وفاة الشيخ سيد المختار أسلوبا متعارفا في هذه البلاد إلا أن عظم

الخطب ومكانة المعني أملت استحداثه كلون في الأدب المحلي. كما أن مراثي أباه كلها كانت من طرف العلماء ونخبة الأدباء الموجودين في ذلك الوقت وسنعطي نماذج من التأبينات وأخرى من المراثي.

أولا: التأبينات

1- الشيخ عبد الله ولد داداه: "سلام ورحمة الله تعالى وبركاته من كاتبه إلى جميع من ينتسب لشيخنا ووالدنا الشيخ سيد المختار رحمه الله تعالى رحمة شاملة وصب عليه هواطل الرضوان المتواصلة وجعله في أعلى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين من موجبه إعلامكم لا خفضت أعلامكم أن التعزية من سنن الدين وقد شرعها لنا سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ولو كان المعزّى أعلم وأفضل من المُعزي فإني أعزيكم عن هذا الخطب الفادح الذي عم مصابه جميع المسلمين وأذكركم بما في الصبر من جزيل الأجر وجميل الشكر وإن كنتم تعلمونه فأجر الصبر يعظم بحسب عظم المصيبة قال تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ إِلَى أُلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» وقال« وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين» وقال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلى ءاخر الآية وقال ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ويجب الرضا بقضاء الله ويجب حمده على الضراء كما يجب حمده على السراء فما فعله لنا وأحبه لنا قبلناه, ورضينا به وأحببناه وإن لم تتكلفوا أنتم الصبر وتظهروا التجلد فمن يصبر فلستم مصابين وحدكم بل جميع المسلمين مصابون فإن صبرتم صبروا وإلا فلا صبر لأحد منهم قال الشاعر: (بسيط)

اصبرْ لكُن بكَ صابرين فإنما صبرُ الرعية عند صبر الراسِ

وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الآمرة بالصبر الحاضة عليه الذاكرة لكثرة أجره لا تحصر ومما يعين على الصبر ما رأيناه قد أعطاه الله لوالدنا من موجبات الفوز والرضوان من ذلك أن في الحديث أن من بلغ تسعين سنة غفر الله له جميع ذنوبه صغيرها وكبيرها ومن ذلك حسن خاتمته التي شهدها الحاضر وتواترت عند الغائب ومن ذلك أن في الحديث أن من شهد له اثنان بخير وجبت له الجنة وما على وجه الأرض أحد إلا وهو يشهد له بالخير وما على وجهها من يشهد له بضد ذلك ومنها كثرة من صلى عليه من المسلمين ففي الحديث أن من صلى عليه أربعون غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر إلى غير ذلك من دواعي الرحمة التي يعلمها الخاص والعام قال تعالى: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا» وقال: «ولا يظلم ربك أحدا» أسأل الله تعالى أن يحقق لنا ولكم ما رجوناه له من الرحمة والمغفرة ونسأله أن يجعلكم خلفا لا خلفا وأن لا يحبطنا أجره ولا يفتنا بعده ويغفر لنا وله ثم لتعلموا أن الذي كنت عليه من المحبة الصادقة والموالاة والتلمذة ومصادقة صديقكم ومعاداة عدوكم قد ازداد وكثر وقوى وتضاعف ونرجو من الله أن يعيننا على الوفاء وأن يجازيكم عنا وعن المسمين أحسن الجزاء. وكتب عبد الله بن داداه"

2- عبد الجليل ولد عبد الرحمن: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على

المصطفى وعلى آله وصحبه الحنفا ومن تبعهم على دينهم الذي هو خير ما يقتفى أما بعد: فإني معزيكم ومعزي نفسي يا حضرة آل الشيخ سيدي وخصوصا أهل سيد المختار بن الشيخ سيدي بعزاء الإسلام وهو أن تقولوا إنا لله وإنا إليه راجعون فيكون عليكم صلوات من ربكم ورحمة وتكونوا مهتدين قال عمر نعم العِدلان ونعمت العلاوة وقال الأعرابي الذي عزى ابن عباس في أبيه: (بسيط)

اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

واعلموا أن الموت ليس حراما على الكرماء قال الشيخ سيدي باب: (كامل)

ليس الكرام على الردى بحرام ... يَغْتامُهُمْ في الحل والإحرام

وقال عنترة: ليس الكريم على القنى بمحرم. وأشهد أن سيد المختار بن الشيخ سيدي من أجود الناس في هذه البلاد وأحلمهم وأصبرهم وخصلة الحلم والبذل والصبر لا يماثله فيهن أحد مما نعرف ومقر للأضياف ويصل الرحم ويحمل الكل ويعين على نوائب الحق ولقد صدق فيه قول كعب بن زهير يمدح الأنصار: (كامل)

قوم إذا خَوَت النجوم فإنهمْ ... للطارقين النازلين مَقَارِ

وقال آخر: (طويل)

متى تأته تعْشو إلى ضوء ناره ... تجد خيرَ نار عندها خيرُ موقِد

وقال آخر: (طويل)

سريع إلى الأضياف في ليلة الدجى ... إذا اجتمع الشفان والبلد الجدب

وقال آخر: (طويل)

تراه إذا ما جئتَهُ متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال آخر في مدح ترك المن وكتمان النعمة: (رمل)

زاد معروفَك عندي عِظَمًا ... أنه عندك مستور حقيرْ
تتناساه كأن لم تأته ... وهْو في العالم مشهور كبيرْ

وهذا والله صادق في سيدي المختار رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنته وجزاه الله خيرا عن كل ما يعرفه من قريب وبعيد وصديق واعلموا أن ما عند الله خير للأبرار وأن الله لا يضيع أجر المحسنين وكتب خادمكم عبد الجليل بن عبد الرحمن".

ثانيا المراثي: تتسم بشموليتها ووحدة موضوعها وصدق عاطفتها واتفاقها كلها على مكانة المرثي وشمائله وإليكم نماذج منها:

1- العلامة الشيخ عبد الله ولد داداه: (كامل)

جادت هواطلُ دِيمَةٍ مِدْرارِ ... من مُزنِ عفوٍ إلهنا الغفارِ
يدنو بها ما قد يسُرُّ ويزري ... ما يُختشَى من سائر الأخطار
وتُنيلُ أمنا لا مخافة بعده ... وإقامةً بمنازل الأبرار
جدثَ الإمام أخي المعالي المرتضى ... شيخِ الشيوخ السيد المختار
شيخٍ كساهُ حلمُه ونوالُه ... حُلَلَ القَبُول وخَشْيةُ الجبّارِ
عَيْنِ الأنامِ وعَرْضِهِ فبهِ قضى ... ما يُرْتجَى من جملة الأوطار
ورث المكارم من أبيه وجده ... وقفا سبيل السادة الأخيار
فأتى يُجاري الأكرمين ولم يكن ... عند السباق مُثَبَّطَ الإحْضار
كم قدْ أتى يومَ الرِّهانِ مُجَلِّيا ... يَشْنُو قَوارسَ حَلْبةِ المضمار
سادَ الأنامَ سيادةً مَصحوبةً ... بتأدُّبٍ وسكينة ووقار
فيزيدُهُ جهْلُ الجَهولِ تواضعًا ... لكنه ما شِيبَ باستكبار
ومرارةُ الصبر الكريهُ مَذاقُها ... تحكي لديْهِ شُهْدَةَ الْمُشْتارِ
صُبْحُ الهداية مُسْفِرٌ في وجهه ... تُجْلَى به الغَمَّا عن الأبصار
وكَسَتْه أنوارُ المعارف حِلْيَةً ... تزري بحلية لؤلؤ وبضارِ
قد كان أمْنَ الخائفين وملجأً ... للمشتكي ويسارَ ذي الإعْسارِ
تَشْقَى بِصَارِمِ جُودِهِ ألعامِهِ ... لِسَعادة الأضْياف أو للجارِ
إن الزمان إذا يَضن عن الورى ... بشبيهه ما إن يُعابَ بعارِ
فَلْتَبْكِهِ أهل الحوائج كلُّهم ... من مجتدٍ أو جائع أو عار
ولْتَبْكِهِ كُتُبُ العلوم جميعُها ... قرآنها والفقْهِ والأخبارِ
فجزى إله العرش جَلَّ جلالُه ... بجزائه الأوفى أبا الأقمارِ
الوارثين طباعَه وخلالَهُ ... والجودَ بالدِّرْهامِ والدِّينار
والباذلين نُفوسَهم ونفيسَهمْ ... في كسْب مكْرُمةٍ ونيْل فَخار
والصابرين فليس يوجدُ فيهمُ ... من مُسْتكينٍ لا ولا خَوّارِ
عَجبًا لهم لم يجزعوا لمصيبةٍ ... عَمَّتْ جميعَ البدْوِ والأمْصارِ
حفظ الإلهُ السَّيدَ المختارَ منْ ... كلِّ المكارِه غابرَ الأدْهَارِ
وأحله دار السلام مجاورا ... لمحمد صلى عليه الباري

وأَقَرَّ عَيْنَيْ كُلِّ مَن يُنْمَى لَهُ ... في هذه الأولى وتلك الدار
وجزاهُمُ عن صبرهم ومصابهم ... وحماهمُ من سيئ المقدار
وحباهم ما أمَّلُوا وكفاهمُ ... حِلْفَ العداوة باسمه القهَّارِ
صلواته وسلامه لنبيه ... والآل والأتباع والأنصار

2- العلامة محمد سالم وعبد الودود:

أجِدَّكَ ما سمِعْتَ بكلِّ نادٍ ... علانيةً مُناداةَ المنادي
بأنَّ السيدَ المختارَ وَفَّى ... وأصلد بعده واري الزِّنادِ
قضى داني الثِّمارِ بلا ثَمَارٍ ... ومرتفعُ العِمادِ بلا عِمادِ
كفَالُ أراملٍ وفِكاكُ عانٍ ... ومُغني آملٍ وجَمالُ نادِ
وجامعُ جامعٍ لا لَغْوَ فيه ... سَواءٌ عاكفٌ فيه وبادِ
قضى رب العباد بِدا رَضينا ... بما يقضي به ربُّ العبادِ
وقدْ رَجَفَتْ لِفَيْتِه الأراضي ... وقدْ برزتْ بألوابِ الحدادِ
وقد كَلح الزمانُ لِما عراه ... وأبدَى عن نواجذه الحدادِ
وقد عمَّتْ رَزِيَّته البرايا ... بفقدِ مُرزَإٍ جَمِّ الأيادي
حميدُ عواقبِ الأفعالِ عالٍ ... أبيُّ الضَّيْمِ مَنَّاعُ القيادِ
شديدُ شَكيمةٍ شاكي سِلاحٍ ... مُمَنَّعُ حَوْزَةٍ حَسَنُ الذِّيادِ
قضَى وَطَرًا من الدنيا فَولَّى ... ورغبتُها إليه في ازديادِ
ومن يرجو البقا من بعد عادٍ ... وآلِ محرِّقٍ وبني إيادِ
وما بقيَ الرِّبابُ وآلُ زيدٍ ... على الأدَمَى وأوْدٌ والإيادي
هداهُ إلى الطريقة خيرُ شَيْخٍ ... فسارَ إلى المَعادِ بخيرِ زادِ
بخمسِ نَجائبٍ وأدَلَّ هادٍ ... رفيقٍ بالأداوي والمَزادِ
وماءٍ كان يَسقيه لِصادٍ ... ومالٍ كان يُعطيه لِجادِ
وظِلٍّ كان يرفَعُه لِعافٍ ... بِدارٍ أو خِباءٍ أو بِجادِ
وضوءٍ كان يُذكيه لِسارٍ ... على أرْبَى الرَّوابي والنِّجادِ
وقدْ كثُرتْ مدائحُه فَقلَّتْ ... وفيضُ الحمدِ منه في امتدادِ
فكيف يَغيضُ جَمَّته لساني ... وكَفِّي كاغدي قلَمي مِدادي
فَلَم تَنْفَدْ مَحامدُه بِعَدٍّ ... ولا تَفْنَى إلى يومِ التَّنادِ
ولم يكُ بَيْنَه في كلِّ حدٍ ... وبينَ مُحَمَّدٍ عَيْبُ السِّنادِ
فهذا النَّوْرُ من تلك الغوادي ... وهذا المُهْرُ من ذاك الجوادِ

وكلُّ بَـــنـــيـــهِ شمسُ هُدًى ونـــورِ ... تَـــعُـــمُّ على الحواضرِ والبـوادي
ولَـــيْثُ رَدًى يُنكِـلُّ كـلَّ عـادِ ... وغيثُ نـــدًى يُطبِّـقُ كـلَّ وادِ
وقـــد أبقـــوا لـــه ذكـــرا جميلا ... يُـــؤَسِّي كـــلَّ مَقْـــروحِ الفـــؤادِ
وكلُّ بَـــنـــي أبـيـهِ إمامُ عـدْلٍ ... جـــوادٌ باســـلٌ يـــومَ الجِـــلادِ
حَـوَوْا شَـرَفًا علـى شَـرَفٍ وضـموا ... من المجدِ الطَّـريفَ إلى الـتِّـلادِ
رعـنـاهُ اللهُ فـيهم واجتبـاهم ... وأبقـاهم سَـماءً للـبلادِ
ومَتَّعَـــه بريْحـــان ورَوْحٍ ... وجنـاتٍ علـى وَفْـقِ الْمُرادِ
بجـاه المـصطفى صـلى عليـه ... وسلَّمَ سامِـكُ السَّـبْعِ الشِّـدادِ
مـع الأصـحاب والآل الطهـارى ... وتابعِهِـمْ إلى يـوم الْمَعـادِ

3- العلامة المؤرخ المختار ولد حامدْ

إبْكُوا على المجد إنَّ المجْدَ قـد رَحَـلاَ ... واستفرغوا الدَّمعَ حتى تَـرْفـوا المُقَـلاَ
وليحزَنِ القلبُ لكـن لاَ يَـقُـلْ أبـدًا ... ما يُغضبُ الربَّ مَـرْضِيٌّ قَـضَا نَـزلاَ
كان الندى أمس يمشي بين أظهُرنـا ... والفضلُ والخيرُ كُـلاًّ مِـشْيةَ الخُـيَلاَ
إذْ حِلْيـةُ الـسيِّـد المُختـارِ جـوْهرُه ... مظـاهرًا كـسَوْتَيْه العلـمَ والعَمَـلاَ
مُـزَمَّلاً بتُقًـى مُدَّثِّـرًا بِتَقًـا ... للنَّهْـيِ مُجْتَنِبًـا للأمـر مُمْتـثلاَ
وعارِجًـا في سمـاء المجـد مُرْتَقِيًـا ... مُستسْهلَ الصَّعْـب حـتى أدرَكَ الأمَـلاَ
قامـتْ علـى أرْبـعٍ للفـضل دَوْلتُـه ... إذْ ذَّاكَ فـينا فَكُـنَّا كلُّـنا فُـضَـلاَ
إذ لَقْتدي بـهُدَى شـيخٍ خَـلائِـقُـهُ ... أعْدَتْ بَـهيمَـتَـنا فضلاً عن العُقَلاَ
فَـلاَ تـرَى فَرَسًـا فيـنا ولا جَمَـلاً ... إلاَّ كـريمًـا ولا جَـدْيًـا ولاَ حَمَلاَ
وفـارقَ النـاسَ داءُ اللُّـؤْمِ وانـبعثوا ... إلى المكـارم عـاليهُمْ ومَـن سَـفُلاَ
وشَـعَّ في الأفُـقِ ضوءُ المجـد مُنتـشرًا ... وألَّ لَمْـعًا وعَـمَّ الـسَّهْلَ والجَـبَلاَ
حـتى تُخَيِّـلَ انَّ الأرضَ تُنبِتُـهُ ... وانَّ كُـلَّ حصادٍ في الـزروع عُـلَى
وأصبح الْيَـنْعُ والمِسْمارُ قَـد دَّخَـلا ... منه الغصونَ وأزْهَى مُـثمِـرًا وحَـلاَ
وانـبَتَ الحـبُّ منـه كـل واحـدة ... سَبْعًا سنابـلَ سَدَّ الـسُّنْبُـلُ السُّبُلاَ
بـيضًا وحُمْرًا فلمـا اعْـتَـمَّ كوكَبُـه ... وانهَـلَّ قَطْرُ النَّدى في روضه خَـضِـلا
ولِّـي فـودَّعَ منـه لم يَـمَـلَّ ثـرًى ... إذ وَدَّعَ الـسيدُ المختـار مـرتحلا
لوْ أنهمْ ظَـهَـروا المِـريخَ أوْ زُحَـلاَ ... لَمْ يُـدْرِكُوا رَجُلاً بالأمْسِ قَـدْ رَحَـلاَ
لا حُـسْنَ ديـنٍ ولاَ سَـمْتًا ولا أدَبًـا ... ولاَ وَقَـارًا ولاَ طَـبْعًا حَـلاَ وحُـلَى
وَلاَ صَـفًا وَوَفًـا وَلاَ تُقًـى وَنَقًـا ... وَلاَ لَـدًى وَجَـدٍّ وَلاَ عُـلاً وَإلَـى

ولا جميعَ خِـــصالِ الخيرِ ما رجُـــلٌ ... فينـــا يُكـــافئُ يومًـــا ذلـــكَ الـــرَّجُلاَ
إلاَّ ابنُه ابنُ جَـــلاَ وابنُ ابنه ابـــنُ جـــلاَ ... يا حبَّـــذا ناجـــلٌ منـــهم ومـــن نُجِـــلاَ
ضَرْبٌ لِـــوَاحِـــدِهِمْ ضَرْبٌ لسَائِـــرِهِمْ ... فكلُّهم في النَّـــدى والـــسُّودَدِ ابـــنُ جَـــلاَ
بيتُ القـــصيدِ وَوَسْـــطَى العِقْـــدِ بَيْـــتُهُمُ ... بَـــيْـــنَ الأماجدِ لـــصًّا لـــيس مُحْـــتَمَلاَ
عَزَّ السُّلُـــوُّ ولكن مَـــن سَـــلاَ بـــهُمُ ... عنْ ذلك الشيخِ فَلْـــيُتْرَكْ ومـــا عَمِـــلاَ
ففي النجومِ الـــدَّراري سُـــلْوَةٌ وهُـــدًى ... للمُدْلِـــجينَ إذا مـــا بَـــدْرُهُمْ أفـــلاَ
وحيث عُـــمِّـــرَ في الطَّاعـــاتِ ســـيِّدُنا ... حـــيِّنًا وحـــانَ لقـــاءُ اللهِ جـــلَّ عـــلاَ
فالخيرُ للشيخِ مـــا اختـــارَ الحكـــيم لـــهُ ... جـــاءَ الربيعُ فحلَّـــتْ شـــمْسُـــنا الحمَلا
اللـــهُ يُكْرِمُ مَـــثـــواهُ بمنزلـــهِ ... ويجعـــلُ الجنـــةَ العُلْيـــا لـــه نُـــزُلاَ

4- العلامة الشيخ عبد الفتاح ولد محمد ولد عبد الفتاح

أجِـــدَّكَ لم تجـــزَعْ لِفقـــدان ســـيِّدٍ ... صَـــفُوحٍ عن الجاني وَهـــوبٍ لِمُجْتَـــدِ
ألَمْ يَـــشْمَلِ الأمـــصارَ والبـــدوَ رَزْءُهُ ... إلى كلِّ مَعْمـــورٍ إلى كلِّ فَـــدْفَـــدِ
يبيتُ إذا الْـــمِـــبْطانُ نـــامَ مُـــسهَّدًا ... لإكـــرامِ جـــاراتٍ وخِدْمـــةِ ســـيِّدِ
تعـــرَّفَ بالحـــسنى إلى اللـــه محـــسنا ... فكـــان بإرضـــاءِ أحـــقَّ مُـــسهـــدِ
يـــرى زهـــرةَ الـــدنيا زَهـــادَةَ جُنْـــدُبٍ ... وليلتَـــهُ الـــدَّرْعَا عبـــادةَ أحْمـــدِ
مُبَـــدِّدُ أمـــوالٍ وجـــامعُ سُـــؤدَدٍ ... فـــأكْرِمْ بـــهِ مِـــنْ جامـــعٍ ومُبَـــدِّدِ
ثمالُ اليتامَى مـــوئلٌ حـــقَّ ذي العُـــلا ... وكـــان إليـــه القـــصدُ في كـــل مقْـــصدِ
فيـــا ليتـــه يُفْـــدَى بكـــلِّ ذخـــيرةٍ ... على أن باقي الصِّـــيتِ مثـــلُ مـــخـــلَّـــدِ
شهادةُ ذي الـــتَّـــبْـــريزِ مُجْـــمعَةٌ علَـــى ... عدالتـــه والعَـــدْلُ نافـــذُ مَوْعِـــدِ
سَـــلَوْنَا إذا يـــابَى التَّـــسَـــلِّي غيرُنـــا ... بِغُـــرٍّ بَنيـــهِ أحْمـــدٍ ومُحمَّـــدِ
وغيرِهمـــا مِـــنْ كـــلِّ حامـــلِ كَلِّـــهِ ... مُـــفَـــدَّى طويلِ الـــباعِ مَـــأوَى المُطَّـــرِدِ
كأنَّ وجـــوهَ الـــرَّهْطِ ذي الجـــاهِ رهْطِـــهِ ... مَـــشُوفُ دنـــانيرِ الْمُجِـــدِّ المُجـــدِّدِ
فَـــخَـــرْنا به الأحياءَ ما كان بـــيْـــنَـــنَـــا ... وتَـــزْكو به أهـــلُ القبور إلى الغـــدِ
تَبـــوَّأَ في الفـــردوس أسْـــنَى محلـــة ... مُحَـــيَّا المُحَيَّـــا بالأمـــانِ المُؤَبَّـــدِ
يُسَرُّ بـــجعلِ الأهل في أكْمَـــلِ الْمُنَـــى ... وأيمـــنِ عَـــيشٍ في الـــبلادِ وأرغَـــدِ
علـــى صـــاحب المعـــراج أنْمَـــى تَحيـــةٍ ... من الْمُكْـــرِمِ الهـــادي بـــه كـــلَّ مُهْتَـــدِ

5- العلامة محمد بن أبي مدين: (بسيط)

وَلّى الحياءُ ووَلّى الدينُ والأدبُ ... يا ليت ما قد مضى من ذاك يَنقلبُ
ما السيد الفاضلُ المختارُ مذهبُه ... إلا عجائبُ فضلٍ كلُّها عجبُ
حِلْمٌ لأحنَفَ لم يُقْدَرْ مُماثلُهُ ... وَوَكْفُ كَفٍّ على العافين يَنسكبُ
وشيمةٌ لم يَرَ الرّاءُونَ مُشْبِهَهَا ... له أقرَّ بذاكَ العُجْمُ والعربُ
ورحمةٌ لِبَني غَبْراءَ فَهْوَ لَهمْ ... أمٌّ عطوفٌ على عِلاّتِهِمْ وأبُ
يا رائما حصرَ ما للشيخ مِن مِنَنٍ ... تُدرِي دموعَك والأحشاءُ تَضطربُ
هيهات حاولتَ ما لا تستطيعُ لهُ ... قدْ كَلَّ قبلَك فيها الشعرُ والخُطبُ
فلْيَبْكِهِ الضيفُ والجارُ الجَنيبُ إذا ... ما أخلف المزنُ والإسلامُ والكتبُ
والعلمُ والصَّبرُ والإحسان أجْمعُه ... وسيرةٌ لَمْ تُدَنِّسْ وجْهَها الثُّوَبُ
لو بالنفائس منْ ناسٍ ومِنْ نشَبٍ ... صحَّ الفداءُ فَداهُ الناسُ والنَّشبُ
لكنّا مَعشرَ الإسلام ليس لنا ... إلا الرِّضَى وأجورَ الصبرِ نحتسبُ
والحمد لله أبقى سادةً غُرَرًا ... تسعى بهم نحوَ ما قد سَنَّه النُّجُبُ
ففي مُحَّدِنا السامي وإخوتِه ... جودُ الجدود وحِلمٌ إنْ هُمُ غَضِبوا
ما مات ما مات مَنْ كانوا له عقبا ... تبارك الله نعم الشيخُ والعَقِبُ
جادت نواحيَ روضٍ زانه سُحُبٌ ... من رحمة الله يقفوا إثرَها سُحُبُ
ودام أبناؤه من بعده خلفا ... تسمو بهم رتَبٌ من دونها الرتَبُ
حتى يتم له من بعدهمْ ولهمْ ... من بعده مِنْ عطايا الواحد الأرَبُ

6- العلامة القارئ عبد الودود بن حميه (وافر)

ألا لا تَبكِ كفكِفَنِ الدُّموعَا ... ولا تَطلُبْ لفائتِ الرُّجُوعَا
ورُمْ حُسْنَ العَزاء وعدَّ عَمَّا ... يُقَضْقِضْ إنْ أصَخْتَ له الضُّلوعَا
ولا تَحزَنْ على شَيْخٍ دَعاهُ ... كريمٌ جلَّ كان له مُطيعا
وأبقى من ثناهُ سَنًا مُبينًا ... وأبناءً تُبَيِّنُهُ رفيعَا
فلا تبعَدْ أسيدَنا المُفَدَّى ... ومختارَ الثَّنا أبدا جميعا
سقاكَ الله ثم سقاكَ سَجْلاً ... مِنَ الفِرْدوسِ مُنْهَبِطًا سريعَا
سقى قبرا ثويتَ به السَّواقي ... رِهامَ السُّحْبِ والجَوْدَ الْهَمُوعَا
سَقَى اللهُ القبورَ بكلِّ غيثٍ ... وداوَى اللهُ مِنْ كَبِدٍ صُدوعَا

7- العلامة اللغوي الحسن ولد ابا الجكني (طويل)

هو الموتُ سَهْمٌ لا يطيش مصيبُ ... وسيفٌ حسامٌ لا يُفَلُّ قَضيبُ
به كُلُّ حَيٍّ لا مَحالَةَ مَيِّتٌ ... فإنْ لَمْ تُصِبْهُ رَمْيَةٌ فَضَريبُ
فلَمْ يَنْجُ منه عاقل بِلَبَابَةٍ ... فَسيَّانِ فيه أحمقٌ ولَبيبُ
ولا جاهلٌ كُنْهَ الدَّوَا لِدوائه ... ولا ماهرٌ في طِبِّ ذاكَ طَبيبُ
ولا مَلِكٌ جَمُّ الخيولِ مُراقَبٌ ... ولا حارسٌ شاكي السلاح رقيب
فكُنْ ناب بالخطب المفجّعِ غافلاً ... غدا آمنًا أنّ الخُطوبَ تَنوبُ
وفجّع محبوبًا بأخذ حبيبه ... فلَمْ يَبْقَ محبوبٌ به وحبيب
فُجِعْنا بِإِدٍّ دائمِ الرَّوْعِ داهِمٍ ... عظيمِ النشا منه القلوبُ تَنوبُ
وخَطْبٌ تُطيرُ العَقلَ رياحُ رَجْفِهِ ... تَضاءَلُ منه إنْ أَلَمَّ خُطوب
لَعَى السيدَ المختارَ ناعٍ فَزُلْزلتْ ... وطارت بأقطارِ البلاد قلوب
وأوقد نيرانَ الكآبة نعيُه ... وأُجِّجَ منها في الصدور لهيب
وشُقَّتْ جيوبٌ بالدموع وشرعُنا ... لَهَى عندَ هذا أن تُشَقَّ جُيوبُ
وقد جلَّ رزءُ العالمين بموته ... وعمَّ وجوهَ المسلمين شُحوب
فَتًى سيدٌ ندبٌ تقيٌّ مُهذَّبٌ ... كريمُ السَّجايا في الخطاب أديب
حسيب نسيب طيب الأصل ماجد ... وفرعُ أصول الطيبين يَطيب
على آله والحمد لله خَلْفَهُ ... بَنُوهُ فكلُّ سيدٍ ونجيبُ

8- العلامة الأديب محنض الفق

بكى الأهلُ والأقصَوْنَ لَمّا نَعَوْا أبا ... محمدِ الشيخَ الهُمامَ الذي حَبَا
فأجزلَ إذْ أرْبَى على حاتمٍ بما ... أنال وما أكدى جَداه وما كبا
وعض عليه في السنين التي أبت ... عن الجود للناس الكرام فما أبى
حوى السيد المختار كل فضيلة ... تناءَتْ وكلَّ العار قِدْمًا تجنبا
سما للعلا طفلا وكهلا ولم يزل ... لديه الندى إلْفًا عزيزا مُحَبَّبا
أيا روضة الشيخ العمي وتطيبي ... فقد طاب مثوًى بالسَّخاء تطيَّبا
ويا رحمة الرحمان أُمِّي ضريحَ مَنْ ... بكل الذي يرضي الإلهَ تقرَّبا
وأحْسِنْ عَزائي بعدهُ وعزاءَهم ... وآجِرْهُمُ مَن للْورَى الأجرَ حَبَّبا
وصلِّي على خير الأنام وآله ... وسلِّمْ تسليما وكَرِّمْ واجْتَبَى

9- الأديب الفاضل يعقوب بن أبي مدين

سِهامُ المَوتِ صائبةُ المَرام ... وأرواحُ الورَى هدفُ السِّهامِ

كلمة شكر للشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ سيدي

بسم الله الحمد لله والسلامان على رسول الله وبعدُ، فقد تصفحتُ بدقة واعتناءْ هذا المجال الذي بحثه هؤلاء الأجلاء السادة العلماءْ الأساتذة النجباءْ الكرام الأوِدَّاءْ. منهم من أملاه وقت الندوة ومنهم من كتبه وقرأه بنفسه فيها ومنهم من بعث نائبا ومنهم من تداركه بعدها. والكل قد أجاد وأفادْ ووَدَّ القارئ والمستمع لو أنه زادْ فإذا هو مجال مهم ليس محضَ كلام واجتماعاتْ ولا تبادلَ دعوات وزياراتْ بل هو منبثق من وَصل ما أمر الله به أن يوصل من إحياء علوم دينية كاد يعفو رسمُها ويطمَسُ مَعْلَمُها فإن حسن العهد من الإيمان كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم فظهر جليا فيما كتبوا حسن النيةْ وإخلاص الطويةْ فإنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما نوى فليس بدعا في حقهم إذا أخذهم الغيرة الدينية في زمن قل فيه الغيورْ وكثُر عن منهج العلم والعمل الفتورْ. فقد لجلتهم سادةٌ أجِلةْ أحيا الله بهم في زمانهم الملةْ بسلاليم العزمْ والهمم العوالي فقد ارتقوا قُننَ شماريخ المعالي. حمد الله مسعى ذلك السلفْ وبارك فيمن بعدهم من الخلفْ وهكذا ينبغي لأهل كل فن أن تكون عندهم ندواتْ واجتماعات ومشاوراتْ يبحثون فيها مُتعلَّقاتهمْ ومُترتباتِ أوقاتهمْ كالأطباء والمهندسينْ والخبراء والتاريخيينْ وغيرهم أهل الشرع هم أوْلى الناس بذلكْ وأحقهم بما هنالكْ لشرف بضاعتهم من بين البضاعاتْ ورَباحِ تجارتهم من بين التجاراتْ. وذكر محاسن أهل الفضل السالفين فيه محاسنُ جمةٌ منها: امتثال الأمر الذي ورد في الحديث الصحيح: "اذكروا محاسن موتاكم" ومنها تعظيم حرمة العلم والعمل لأن الظرف في التعظيم كالمظروف. ومنها تشجيع الباقين من ذويهم وغيرهم على مثل أفعالهم. ومنها التضامن والتآزر بين ذوي المُقولِ فيهم والقائلين إلى غير ذلك.

فشكرا للسيد الوالد الدكتور إبراهيم ولد إسمعيل بن محمد بن الشيخ سيديٍّ مؤسسِ المكتبة على ما بذل من جهود في هذه الندوة التي قال إنها ما هي إلا حلقة أولى في سلسلة ندوات تعتزم المؤسسة تنظيمها بمشيئة الله حول أعلام وأئمة الفكر واللغة والأدب والإصلاح في هذه الربوع.

وشكرا للسيد الأخ أحمد ولد هرون ولد أحمد بن الشيخ سيديٍّ على جمعه ما تفرَّق ولأمه ما تشتت من مشاركات في هذه الندوة المباركة. فلولا جمعه إياها وإبرازه لها من الأشرطة وغيرها لكانت إلى حيز المفقودْ أقربَ منها إلى حيز الموجودْ.

وفي الختام أود أن أنبه إلى نجاح هذه الندوة وأن نجاحها فيه تفاؤل لنجاح الندوات الموعود بها إن شاء الله تعالى. وفق الله الجميع وهداهْ وجعل سعيه مصروفا في رضاهْ إنه ولي التوفيقْ والهادي إلى سواء الطريقْ.

وكتب الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن بن سيدِ المختار بن الشيخ سيديٍّ يوم ٨ / ٤ / ١٤٢٨هـ، الموافق: 25 / 4 / 2007م.

فمَنْ تُخْطِئْه عاش ومَنْ تُصِبْهُ فما هي رَمْيَةٌ مِنْ غيرِ رامِ
فَلَمْ يَتْرُكْ على كَرَمٍ كريماً ولا حسناءَ تبخلُ بالكلام
ولم يَقِهِ السلاحُ أخا سلاحٍ مِنَ القُلُبِ الجبابرة العظام
فلَوْ بالنفس أو بالمال يُفدى إذا حانَ الحِمامُ مِنَ الحِمامِ
لَجُدْنا بالنفوس وبالمواشي فداء الشيخ سيِّدِنا الإمام
فَمَتَّى غابتْ بغيبته المَعالي فامستْ وهْيَ ساقطةُ المقام
ستبكيه الأرامل واليتامى ويبكيه الغريب على الدوام
وتبكيه الوفود إذا ألمت فِئامٌ عَنْ فِئامٍ عَنْ فِئام
جزاه اللهُ عنا كلَّ خيرٍ ونالَ بداره أقصَى المرام
سقى قبرا تضمَّنه هَتُونٌ من الغفران مُنسكبُ الغمام
وبارك في البنينَ وفي بنيهم وبارك في البنات وفي الخيام
صلاة اللهِ يَحْدوها سَلامٌ على خير الورى بَدْرِ التَّمامِ

ونعتذر للقارئ أو المتابع عن فادح الاختصار إذ لم يمكنا الجهد والوقت من غير هذا وهو قليل من كثير في حق المترجَم (الشيخ سيدي المختار ولد الشيخ سيديٌّ)، إذ كل خصاله تستحق عدة مؤلفات لكننا على الأقل ألرنا الموضوع وللحديث بقية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.